ريم رفعت النمر

امرأة من فلسطين

متاهة حروب وجبهات



امرأة من فلسطين

ريم رفعت النمر

امرأة من فلسطين

متاهة حروب وجبهات



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

A Woman from Palestine

A Maze of Wars and Frontlines

By: Reem Refaat al-Nimer

First Published in December 2015

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-620-1

الطبعة الأولى: كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٥

لوحة الغلاف للفنان رياض نعمة

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو— علي الحاج حسن

المحتويات

كان أبو العباس واحداً من أرفع القياديين منزلةً لدى ياسر عرفات، وهو الذي لطالما اقترن اسمه بعملية اختطاف السفينة أكيلي لاورو عام ١٩٨٥. تلك العملية التي أشعلت أزمة دولية، خاصةً أنها أدت إلى مقتل السائح الأميركي العجوز ليون كلينغوفر.

تستعيد هذه المذكرات التي سطَّرَتها زوجة أبو العباس حقبة نضالية في تاريخ المقاومة الفلسطينية، وتقف على حقائق خطرة لقضية واجهت مفارقات مستحيلة. فمن السخرية بمكان أن يكون موت شخص واحد فقط قد استدعى قلب جميع موازين جدليات الخطأ والصواب.

ريم النمر، أرملة أبو العباس، كتبت قصة حياة زوجها كما عايشتها،

وسردت حادثة الاعتداء على أكيلي لاورو التي لم تكن تعلم شيئاً عنها، إلى أن رأت منشورات تتعلق بسفينة أكيلي لاورو في شقتهما في تونس. حينها فقط أدركت أن زوجها ضالع في تلك العملية.

في ما بعد أخبر أبو العباس زوجته أن هدفه كان «تنفيذ عملية مشرّفة ضد الجيش الإسرائيلي»، حيث قال لها: «لقد أردتُ منهم الوصول إلى أشدود، لا الاشتباك مع المسافرين على متن السفينة».

لقد ارتبط اسم أبو العباس بتلك الجريمة حتى آخر يوم من حياته. وعندما توفي في ظروف غامضة في أحد سجون بغداد إثر اعتقاله على أيدي القوات الأميركية بعد الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، يومها كان جلّ ما استطاع العالم تذكّره عن أبو العباس رجلاً مشلولاً يدعى ليون كلينغوفر. كانت المفارقة أن أحداً لم يأبه لأن يتساءل كيف أمكن رجلاً يبدو في تمام عافيته أن يفارق الحياة على أيدي الأميركيين.

روبرت فيسك، الإندبندنت

إهداء

تخليداً لذكرى والدي رفعت النمر، وخالي ظافر المصري، وزوجي الشهيد أبو العباس، هؤلاء الرجال الثلاثة الشجعان الغيورون على الوطن، الذين عاشوا وقضوا من أجل فلسطين.

إلى روح أمي الغالية ربيحة المصري التي تزامن رحيلها عن الحياة مع طباعة النسخة الإنكليزية من هذا الكتاب في شهر كانون الأول ٢٠١٣.

إلى أخي رامي وزوجته ملك التي كرّست نفسها لإدارة مشروع توحيد الشباب اللبناني، وهي منظمة تعليمية غير ربحية في بيروت.

إلى أختي رنا التي تابعت رسالة الوالد من خلال مؤسسة رفعت النمر.

إلى الأعزاء لؤي، ريف، خالد، عمر وعلي. هؤلاء الذين أحبهم أبو العباس أطفالاً، وكان سيفخر بهم اليوم رجالاً لو كان معنا.

إلى القارئ

عندما وُلِدَ محمد العباس سُمِّيَ محمد زيدان، وكان يُكتب بالإنكليزية Muhammad Zaydan أو Zeidan. ونشر موقع الويكيبيديا الموسوعي الأميركي معلومات عنه تحت هذا الاسم، معظمها غير دقيق. لكنّ أصدقاءه وعائلته أطلقوا عليه اسم «أبو خالد»، كما هي العادة في مجتمعاتنا العربية، وكانوا ينادونه باسمه الحركي «أبو العباس» أيضاً، بينما كانت التقارير الإخبارية الغربية تتداول اسمه بشكل خاطئ فتقول: AbulAbbas. «أبو العباس» هو الاسم الذي سنطلقه عليه حصرياً في هذا الكتاب.

كان أبو العباس بقامته الضخمة يتمتع بشخصية مهيبة، وصفتها يوماً صحيفة التليغراف اللندنية بـ«الجريئة والجذابة». وأنا كنت زوجة ذلك الشهيد البطل ورفيقة دربه وأم أطفاله وموضع ثقته. كان عام ١٩٨٠ بداية

حياتنا معاً، التي استمرت حتى وفاته في المعتقلات الأميركية عام ٢٠٠٤.

كان أبو العباس على علاقة متينة بالزعيم الراحل ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والرئيس المؤسس لدولة فلسطين. وعلى الرغم من الخلافات السياسية بينهما، كان أبو العباس يرى في ياسر عرفات قائداً تاريخياً استثنائياً في مسيرة القضية الفلسطينية. وكان الأخ أبو عمار يرى فيه الوجه العسكري الحقيقي والصادق للمقاومة الفلسطينية، ويشيد بأبو العباس تارةً، وينأى بنفسه عنه تارةً أخرى. كان عرفات يميل إلى الإشادة به أمام جمهوره الداخلي، بينما يعزف عن ذلك في خطاباته الموجهة إلى الرأي العام الغربي، لكثرة اقتران اسم أبو العباس بصفة الإرهابي، مع أنه لم يمانع قَطّ، أن يتصدر اسم أبو العباس وسائل الإعلام العربية والغربية. وعلى الرغم من أنّ العديد من العمليات العسكرية التي نفّذها أبو العباس لم تحقق أهدافها التكتيكية المرجوة، إلا أنها كانت تعبّر عن صرخة المقاومة التي شدّت انتباه العالم كله نحو الظلم الذي تعيشه فلسطين وشعبها الصامد. والكل يشهد له بذلك، حتى إنّ معارضيه اعترفوا بأنّ أبو العباس نجح نجاحاً لافتاً في تسليط الضوء على المشهد الفلسطيني، وإيصال كلمة حق هذا الشعب المقاوم إلى شعوب العالم في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

تركّز اهتمام وسائل الإعلام الدولية بأبو العباس على حادثة وحيدة. ففي عام ١٩٨٥ أمطرت القوات الجوية الإسرائيلية مقرّ منظمة التحرير في تونس بصواريخها، وقُتل يومها نحو ٢٠٠ شخص من المدنيين. وردّاً على ذلك، اختار عرفات الانتقام، وأعطى الضوء الأخضر لأبو العباس

لتنفيذ عملية نوعيّة، عرفت لاحقاً بالأكيلي لاورو. كانت الخطة المرسومة للعملية تقضي بصعود عدد من المقاتلين الفلسطينيين الشباب المتنكرين بهيئة السياح على متن سفينة إيطالية مغادِرة من مدينة الإسكندرية المصرية إلى ميناء أشدود الإسرائيلي، وقيامهم فور وصولهم إلى اليابسة بمهاجمة حرس الميناء الإسرائيليين. لكن ما حدث أن السفينة لم تكد تُبحر من الميناء حتى انكشفت هوية الشبّان، وبالتالي انهارت خطتهم بالكامل، ولم يكن لديهم أي توجيهات للتصرف في مثل هذه الحالة، لذا قاموا باختطاف السفينة، وطالبوا بتحرير خمسين سجيناً فلسطينياً ممن يقبعون في السجون الإسرائيلية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عمدوا إلى تحويل خط مسار السفينة باتجاه ميناء طرطوس، لكن السلطات السورية رفضت السماح لهم بالرسوّ في مينائها، فقفلوا عائدين إلى ميناء بور سعيد في مصر. في هذه الأثناء، كان أبو العباس قد انطلق باتجاه السفينة بقارب سريع، وأعطى أوامره للخاطفين بتسليم أنفسهم من دون إلحاق المزيد من الأذى بأيٍّ من الركاب، وبناءً على ذلك، سلّم الخاطفون أنفسهم للسلطات المصرية فور نزولهم من السفينة. لكنهم كانوا قد أقدموا خلال مسارهم المتخبط وسط أمواج البحر الأبيض المتوسط، على قتل رجل مسنّ مقعد على كرسي متحرك. كان هذا الرجل هو ليون كلينغوفر اليهودي الأميركي من مدينة نيويورك ذي التاسعة والستين عاماً.

في تلك الفترة، عام ١٩٨٥ تحديداً، كان هدف عمليات المقاومة استقطاب الرأي العام الدولي وانتزاع تعاطف غربي مع القضية الفلسطينية. إلا أنّ السحر انقلب على الساحر، وتحولت عملية أكيلي لاورو الواعدة أساساً إلى واحدة من أقل العمليات العسكرية نجاحاً في تاريخ القضية الفلسطينية.

فقد دفعت منظمة التحرير الفلسطينية الدِّيَةَ وقدمت الاعتذار لعائلة كلينغوفر. وأوضح أبو العباس في ما بعد أنّ الهدف من العمليات العسكرية الفلسطينية ليس استهداف المدنيين، على الرغم من أنّ بعض العمليات التي نفّذها كانت قد تجاوزت هذه القاعدة. ولعل أبرز إنجاز لعملية الأكيلي لاورو هو تثبيت شخصية أبو العباس قائداً ميدانياً وزعيماً فلسطينياً قلّ مثيله في تاريخ قضيتنا العربية.

وعبر السنوات، تحول أبو العباس من ثائر شاب ومقاتل إلى رجل دولة رصين وسياسي محنك، ما سمح له بالموافقة على اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣ الذي يعترف بحق إسرائيل في الوجود. لقد منحت موافقة أبو العباس بعض المشروعية والقبول للاتفاق بين الفلسطينيين.. لكن بالرغم من كل ما توضّح من موقفه في أوسلو، ومهما فعل، لم يستطع أبو العباس أن يغيّر في الأمر شيئاً، فقد تلبّسته لعنة أكيلي لاورو، وبقي في عيون الغرب والعالم إرهابياً خطراً وخارجاً عن القانون. حين وافته المنية عام ٢٠٠٤، لم يتذكر العالم إلّا هذه الصفة البشعة غير المحقة في رجل صادق، أحبّ وطنه وشعبه، وعاش ومات مناضلاً في سبيل تحرير فلسطين.

مقدمة

تونس ١٩٨٥

«استعدوا! سنغادر إلى يوغوسلافيا خلال ساعة». كان هذا ما قاله ياسر عرفات يوماً لزوجي خلال وجودهما في تونس بعد خروج منظمة التحرير من لبنان بداية الثمانينيات. حينها كانت خمس سنوات تقريباً قد مضت على زواجي السعيد بأبو العباس، وكانت يوغوسلافيا واحدة من الدول الشيوعية في المعسكر الشرقي الداعمة للقضية الفلسطينية. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، وكان عرفات قد رتّب طائرة خاصة للسفر في العاشرة. ارتدى أبو العباس ثيابه بسرعة، وقال متذمّراً: «هذه الرحلات المكوكية مع أبو عمار مرهقة جداً. إننا نسافر على عجل ومن دون سابق إنذار من مكان إلى آخر، وهو يريد إنهاء كل الأمور ولقاء كل المسؤولين خلال بضع ساعات فقط. الرجل يمضي حياته على متن طائرة، حتى

إننا لا نملك فرصة لتناول الطعام أو أخذ قسط بسيط من الراحة في هذه الرحلات». كعادته، وعد عرفات بأنّ السفرة ستكون سريعة، وأنهم سيعودون إلى تونس مساء ذلك اليوم.

وكما هو متوقع، عاد أبو العباس إلى الفيلا ذات الطبقتين التي كنا نعيش فيها آنذاك بحلول المساء، وهو في غاية التعب والإرهاق. وفور وصوله صعد إلى الطبقة العُليا ليستحمّ، بينما ذهبتُ أنا إلى المطبخ، خاصة أن تذمره الصباحي كان في محله تماماً، فعرفات لم يترك لهم دقيقة لأخذ قسط من الراحة أو لتناول الطعام. وهكذا أعددتُ وجبة العشاء. وفجأةً بينما كنتُ أعبرُ حديقة المنزل، لمحتُ قطة سوداء كبيرة تجلس هناك وترمقني بعينيها الكبيرتين اللتين لمعتا عبر ضوء الشرفة الخافت. وعلى الرغم من أنني حملتُ الكلاشينكوف في حياتي وانخرطتُ في عمل المقاومة الفلسطينية، إلا أنني كنتُ أعاني رهاباً من نوع خاص، هو رهاب القطط الذي يجعلني أشعر بهلع لدى رؤية أي قطة. وهنا صرختُ كالمجنونة، وأسقطتُ الصينية الضخمة على الأرض، فاستحالت محتوياتها قطعاً محطمة متناثرة. أبو العباس الذي أجفله صراخي وأصوات الأطباق المحطمة، اعتقد أن الإسرائيليين قاموا بعملية إنزال لقواتهم في فناء دارنا وأطبقوا بسكين على رقبتي، فما كان منه إلا أن التقط مسدسه الخاص، واندفع نصف عارٍ موجهاً سلاحه نحوي، واضعاً سبّابته على الزناد استعداداً لإطلاق الرصاص.

«أبيبيه... حبيبي... إنها قطة».

«ماذا؟».

«إنها مجرد قطة سمينة ضخمة».

«قطة؟ كل هذه الجلبة بسبب قطة مسكينة؟».

جنّ جنون أبو العباس وأخذ يقول ملوِّحاً بسلاحه في الهواء: «قسماً بالله إن حدث هذا مرة ثانية، فلن أفكر مرتين قبل أن أطلق الرصاص. هذا مُشين. ريم أنتِ متزوجة بضابط مقاتل! لا يجوز أن تصدر عنك مثل هذه الأفعال الجنونية».

تعكس هذه القصة الصغيرة التناقضات في شخصيتي. ففي شبابي تدربت مع الفدائيين الفلسطينيين، وخططتُ مع أحدهم لعمليات عسكرية كانت إحداها هجوماً على وزارة الدفاع السورية في دمشق. ووُضعتُ على لائحة المطلوبين لدى جهات استخباراتية عدة في لبنان وسورية وإسرائيل. جرى تهريبي عبر الحدود بجوازات سفر مزيفة لعدد لا يحصى من المرات، وكنتُ شاهدة على إحدى عشرة حرباً في حياتي. وها أنا اليوم أتسمّر بغباء والذعر يعتريني أمام حيوان صغير مرتعش. ولكن هذه أنا... كتلة من التناقضات.

وعلى الرغم من أني سليلة عائلة فلسطينية مرموقة، إلا أنني أمضيتُ حياتي في المخيمات ونمتُ في الكهوف واتخذتُ الشيوعيين أصدقاء لي. كنتُ أمقتُ الديكتاتوريات، كما كان زوجي تماماً، بالرغم من حصوله على الحماية، وفي مناسبات عدة على التمويل من صدام حسين، ومعمر القذافي وحافظ الأسد. أنا التي حملتُ الجرحى بين ذراعيَّ في ساحات المعارك في جنوب لبنان، وسمعتُ آخر همسات باحوا بها وأعينهم

معلقة بالسماء، قبل أن يفارقوا الحياة. مع ذلك كله أكاد أفقد وعيي لدى رؤية قطة.

أما زوجي، فبالرغم من كل ما يُشاع عنه، إلا أنه في صميمه رجل لطيف وخجول. كانت الاستخبارات الإسرائيلية «الموساد» قد عرضت مكافأة مالية لمن يأتيها برأسه، ولكن لم يكن ليرهبه كل هذا، ولم يخشَ يوماً الحروب والسجون والاغتيالات. كان أبو العباس يخشى أمراً واحداً فقط، هو الماء والسباحة. أُصيب بهذا الرهاب حين شارف على الغرق عندما كانت أمه تحممه في بركة صغيرة في مخيم النيرب الفلسطيني في مدينة حلب. أما أنا، فلم أكتشف هذا الرهاب لديه إلا بعد مرور فترة طويلة على زواجي به. كان خلالها طبعاً يسخر بقسوة من خوفي العميق من القطط.

خلال الحرب الأهلية في لبنان، تمكن أبو العباس من تفادي قذيفة كادت تودي بحياته، إلا أنه أصيب بجرح غائر في رأسه، فأرسله الأطباء للعلاج في الاتحاد السوفياتي. وكانت إحدى مراحل ذلك العلاج تتطلب من المريض الاسترخاء في حوض كبير ممتلئ بالماء الدافئ، وتعريض جسده لتيارات قوية من الماء أثناء قيام معالجة فيزيائية روسية بتدليكه. كانت المعالجةُ في العشرينيات من عمرها، صبية شقراء طويلة مليئة بالجاذبية، ومتأثرة على ما يبدو بهذا المناضل البطل الذي جاء من حرب تدور في مكان بعيد. قلتُ له: «سأنزل معك (إلى غرفة المساج)»، ولكنه رفض بشدة وهو يتطلع نحوي وعيناه كأنما تقولان لي: «إنها تريد تعليمي اللغة الروسية، ولا أريد أن أبدو محرجاً أمامكِ»، أو ربما غير ذلك من تلك الأعذار التي يحفظها الأزواج عادة عن ظهر قلب ويلقون بها في مثل هذه المواقف. لقد

كان في الحقيقة يُخفي رهابه من الماء. وبعد برهة سمعت ضجة بدا لي معها أنّ دراسة اللغة قد تجاوزت الحدود، فاندفعتُ وفتحتُ الباب لأرى ذلك القيادي الفلسطيني الشجاع منهاراً في الحوض كما لو أنه ظرف شاي في فنجان. مع ذلك كانت الفتاة الروسية تتابع ملء الحوض بالماء الدافئ، بينما أبو العباس يتخبط ويتشبث بحوافّ الحوض كطفل يخشى الغرق كلما لامس الماء وجهه.

لم أستطع إخفاء ضحكتي وأنا أقول له: «هذا أكثر من رهاب القطط».

يروي هذا الكتاب قصة استثنائية لزوجين في غاية الانسجام والتكامل في ما بينهما، على الرغم من الخلافات الصارخة التي كانت تنشب بينهما من وقت إلى آخر. لقد جمعنا حبنا لفلسطين ولأولادنا، ولحوار هادئ وسط عالم كان يبدو أحياناً مليئاً بالجنون المُطبق. كنا نتشاطر حبَّ كل إنسان بريء على وجه هذه الأرض، وحب كل الذين أحبوا أوطانهم وعائلاتهم وتطلعوا إلى تحقيق العدالة والخلاص. كانت حياتنا معاً مفعمة بالتسامح والشرف وبالعقيدة الطيبة والشهامة. هذه قصة حياتي مع أبو العباس.

الفصل الأول

حدث خطأ مريع

تونس، ٧ تشرين الأول ١٩٨٥، الساعة الثامنة صباحاً

استيقظتُ باكراً، وأعددتُ القهوة، وجمعتُ الصحف الصباحية، وجلستُ على الشرفة الصغيرة المطلة على حديقة منزلنا في تونس التي غادرنا إليها مع باقي الفلسطينيين المنفيين إثر صدور قرار يقضي بإجبار جميع عناصر منظمة التحرير الفلسطينية على مغادرة بيروت عام ١٩٨٢. كانت الفيلا الدافئة التي عشنا فيها، أنا وأبو العباس، مؤلفة من طبقتين، وتقع في المنزه الخامس، وهو مجمَّع سكني في قلب العاصمة التونسية. كانت منظمة التحرير الفلسطينية هي التي قدمت لنا هذا المنزل المجاور لوكالة الأنباء الفلسطينية، وكان مسكناً مؤقتاً لعائلتنا الصغيرة، والأهم من ذلك كله أنه

كان مناسباً جداً لعمل زوجي الذي يتلخص في الكفاح المسلح من أجل تحرير فلسطين. في ذلك الوقت، كان قد مرّ على زواجنا ثلاث سنوات، وكأيٍّ زوجين شابين، كنا قد تشاجرنا قبل بضعة أيام، وغادر هو المنزل في فورة من الغضب، من دون أن يكون لديّ أية فكرة عن وجهته. أنا كنت غاضبة جداً أيضاً، وعاهدت نفسي على ألا أهتم بالأمر.

قلّبتُ الصحف والمجلات الدولية لأقرأ مقتطفات إخبارية هنا وهناك. «لا شيء عن فلسطين»، تمتمتُ بيني وبين نفسي. كان رونالد ريغان قد اعتلى كرسي الرئاسة في أميركا والحرب الأهلية تشتعل أكثر وأكثر في لبنان. أما وسائل الإعلام الدولية، فقد تناولت باهتمام صعود نجم مايكل جاكسون في صناعة موسيقى البوب العالمية. أليس ثمة خبر واحد عن العرب أو عن فلسطين في كل هذه التغطيات الإعلامية؟ يبدو أننا سرب من النمل يعيش في بلاد العمالقة.

كان جهاز التلفاز الصغير في منزلنا يبثّ برامج قناة «راي أونو» الإيطالية التي كانت البيوت في تونس تلتقط تردداتها قبل دخول عصر الصحون اللاقطة، والفضل يعود في ذلك طبعاً إلى قربنا الجغرافي من إيطاليا. وبالرغم من جهلنا اللغة الإيطالية، إلا أننا كنا نتابع تلك القناة لأنها تفوق بألوانها وجاذبيتها والمعلومات التي تقدمها القناة الرسمية التي تديرها الحكومة التونسية. كانت «راي أونو» نافذتنا التلفزيونية الوحيدة التي نطل منها على العالم الخارجي. رنّ الهاتف، وإذا بمكالمة من خليل عبد الرحمن، أحد رجال أبو العباس.

كان خليل يعمل ممثلاً لجبهة التحرير الفلسطينية في قبرص، وهو من الشبان

الذين أحبهم زوجي ووثق بهم. وكانت جبهة التحرير الفلسطينية حركة مقاومة فلسطينية يمثلها أبو العباس في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. «وين الرفيق؟»، سأل خليل بنبرة متعجّلة خَلَتْ من عبارات السلام المعتادة على الهاتف. كان توتره وارتباكه واضحين. وأجبته أنا: «بعرفش وينو»، باللهجة الفلسطينية. كانت تظهر أمامي على شاشة التلفاز عناوين إخبارية بارزة تومض على خلفية حمراء قانية: «خبر عاجل». طبعاً، لم يكن بمقدوري فهم كلمة واحدة، لأنّ كل شيء كان باللغة الإيطالية، لكنني تمكنت من التعرف إلى منشور للسفينة الإيطالية أكيلي لاورو لدى عرضه على الشاشة. كان واضحاً أن أحداً ما قد اختطف السفينة الفاخرة واتخذ من ركابها رهائن، أثناء رحلتها التي كان من المفترض أن تستغرق ١٢ يوماً من مدينة جنوى في إيطاليا إلى ميناء أشدود في إسرائيل. كنتُ قد رأيتُ المنشور ذاته في منزلي، وتحديداً على الطاولة الصغيرة الموجودة بجانب سريري. كان أبو العباس قد جلب معه عدة نسخ إلى المنزل، ولكن لم يخطر في بالي أن أساله عن سبب وجود هذا المنشور. اليوم بعد مرور ثلاثين عاماً، أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام من دون أن أجد سبباً واضحاً لعدم سؤالي عن ذاك المنشور، أو عن السبب الذي دفعه بكل استهتار إلى ترك كل هذه النسخ في أرجاء المنزل. من المؤكد أنه لم يكن ينوي اصطحابي في رحلة على متن تلك السفينة، خاصة أن الضرورات الأمنية المرافقة لعمله تمنعه من رفاهية كهذه. هل تراه كان يحاول أن يبعث إليّ برسالة؟ هل كان يحاول أن يقول لي: «ركزي اهتمامك يا ريم على أكيلي لاورو!»؟

«لحظة... لحظة»، صرخت في وجه خليل على الهاتف، «أنا أعرف تلك السفينة. لقد رأيتُ ذلك المنشور من قَبْل». كنتُ أتكلم معه وأشير بيدي

كالمجنونة إلى شاشة التلفاز. «هذه هي! هذه عمليتنا! شكراً لكِ». أدرك خليل أنه إذا كانت نسخ منشور السفينة مبعثرة في أرجاء منزلنا، فإن أبو العباس هو بالتأكيد وراء عملية اختطافها. أنهى خليل المكالمة وتركني في حيرة من أمري، لكنني شعرت مع ذلك في صميم أحاسيسي بأنّ هذه السفينة ستغيّر حياتنا إلى الأبد.

موعد مع القدر

كانت الأكيلي لاورو سفينة فاخرة الطراز، وكان مهندسوها قد باشروا بصناعتها في مدينة نابولي الإيطالية عام ١٩٣٩، لكن أعمال البناء توقفت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، ولم تُوضع في الخدمة إلا في عام ١٩٤٦، وكانت حينها تحمل اسم حفيد مؤسسها وليام رويس الذي لقي حتفه خلال الحرب. وفي عام ١٩٦٥ بيعت السفينة لشركة فلوتا لاورو أو ستار لاورو، التي تُعرَف اليوم باسم إم إس سي كروز، وغُيِّرَ اسمُها إلى «أكيلي لاورو» تيمّناً باسم صاحب الشركة. وفي شهر آب من العام نفسه، أُعيد بناؤها وتحديثها، وذلك إثر حدوث انفجار على متنها. وفي عام ١٩٦٦ انطلقت الأكيلي لاورو تمخر عباب البحار حاملةً المسافرين من إيطاليا الى سيدني في أوستراليا، وفي أوائل عام ١٩٧٢ حُوِّلَت إلى سفينة سياحية، لكنها تعرضت بعد فترة قصيرة لحريق كارثي. وفي عام ١٩٧٥ اصطدمت بسفينة الشحن «يوسف»، ما أدى إلى غرق هذه الأخيرة، وبعدها عاد الحريق ليلتهم سطحها مرة ثانية في عام ١٩٨١ ويلفظها خارج الخدمة لفترة من الزمن.

في ٧ تشرين الأول ١٩٨٥ كانت أكيلي لاورو تبحر شرق سواحل المتوسط متجهةً نحو ميناء بور سعيد في مصر لترسو بعد ذلك في ميناء أشدود الإسرائيلي. يومها كان على متن السفينة أربعة من رجال أبو العباس، وكانوا جميعاً تحت سن الخامسة والعشرين: ماجد يوسف الملقي (٢٣ عاماً)، أحمد معروف الأسدي (٢٣ عاماً)، إبراهيم عبد اللطيف (٢٠ عاماً)، وبسام الأشقر (١٧ عاماً). كانوا قد جهّزوا أنفسهم للنزول في ميناء أشدود وتنفيذ هجوم مسلّح ضد الجنود الإسرائيليين وموظفي الجمارك المسؤولين عن أمن الميناء. وكان أبو العباس متحمساً جداً لهذه العملية.

كان زوجي في السابعة والثلاثين حينها، وكان من المفترض أن تكون عملية أكيلي لاورو بصمة مضيئة في مسيرة حياة أبو العباس النضالية. في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول، باتت العمليات الفدائيّة مدانة بوصفها «عمليات إرهابية». وكذلك في عام ١٩٨٥ سارع العالم لإدانة العملية أيضاً. أما بالنسبة إلينا في جبهة التحرير الفلسطينية، فكان استهداف النقاط العسكرية والرسمية لعبة عادلة في ذروة النضال من أجل تحرير الأرض. كنا في حالة حرب دائمة مع إسرائيل، وعلى اقتناع تام بأنّ أيَّ بقعة من الأرض داخل فلسطين المحتلة هي ساحة حرب شرعية، وبأنَّ كل إسرائيلي صهيوني هو جزء من مشكلتنا. وعلى الرغم من أنَّ الجبهة كانت تستهدف العسكريين والمسؤولين، لا المدنيين، إلا أنَّ العمليات كانت تطاول المدنيين أحياناً، لتضع جبهة التحرير الفلسطينية على لائحة المنظمات الإرهابية لدى وزارة الخارجية الأميركية. لم يكن أمامنا يومها إلا خيار واحد، البندقية والقتال لاستعادة الأرض.

في عام ١٩٤٨ هُجِّرنا نحن الفلسطينيين من أرضنا بقوة السلاح، وتحولنا لاجئين محشورين في مخيمات الشتات. بعد مرور جيل كامل على النكبة، كنا لا نزال نعيش في المخيمات من دون أن نحصل على حق العودة، أو نتقدم شبراً في تحرير الأرض. في عام ١٩٦٧ شنّت إسرائيل حرباً جديدة، وتمكنت من السيطرة على ما بقي من الأراضي الفلسطينية الواقعة بين الأردن والبحر المتوسط. واليوم، في عام ١٩٨٥، وعلى الرغم من مرور جيل على هذه الحرب، لا نزال نعيش في المخيمات، وإسرائيل مستمرة في عدوانها، وأرضنا لا تزال محتلة.

واليوم، أستذكر تلك العملية وما قاله بسام الأشقر، وهو أحد خاطفي السفينة: «كان هدف أبو العباس الأساسي نقلَ الصراع من بلدان الشتات إلى قلب فلسطين المحتلة. كان يريد إدخال السلاح وتسليح شعبنا في الضفة الغربية عبر الحدود الأردنية، وفي شمال فلسطين عبر لبنان، وفي غزّة عبر الأراضي المصرية. كان البحر هو آخر شريان لنا، ومن هنا جاءت فكرة عملية الأكيلي لاورو. بدأ الأمر برُمَّته عندما كان أبو العباس يقف على شرفة إحدى الشقق المطلة على الميناء في مدينة الجزائر. يومها لاحظ مدى ازدحام الحركة البحرية هناك وحجم الألم الذي قد يلحق بإسرائيل إذا ما سدَّد ضربة إليها على أحد مداخلها البحرية». نادى حينها رفيقَه الأكبر سنّاً أبو عمار، الذي كان يعمل على متن باخرة يونانية، وكان أحد أنشط عملائنا الاستخباريين في أوروبا. وأخبرني في ما بعد أنه كان يريد «تقريراً كاملاً عن الموانئ المحتلة في حيفا ويافا وأشدود لأنها تعتبر الخاصرة الرخوة لإسرائيل».

تونس، ٧ تشرين الأول ١٩٨٥، الساعة ١٠ صباحاً

أدركتُ من خلال مكالمة خليل عبد الرحمن ومما تبثه قناة راي أونو أنَّ الأكيلي لاورو كانت أكثر من مجرد سفينة سياحية، لقد كانت عملية فدائية، وعليها توقيع زوجي. ارتديتُ ثيابي بسرعة وانطلقتُ باتجاه مكتب جبهة التحرير الفلسطينية المجاور، أملاً بالحصول على أي معلومة. كنتُ أقول لنفسي: «إن كان محمد وراء هذه العملية وكنت أنا آخر من يعلم، سيرى عندما يعود!». لمحت الحارس أبو غازي خارج المنزل، فرمقته وسألت: «إلى أين غادر أبو العباس؟»، وكالعادة كان أبو غازي لا يعلم أي شيء على الإطلاق.

كانت مكاتب الجبهة تقع في منطقة حمام الشطّ على بعد ١٢ كم من العاصمة، بالقرب من القاعدة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومقارّها الرئيسية. وهي عبارة عن شقة متواضعة في الطبقة الأولى من بناء يخلو من أي لون، ومن أي لافتة تعريف بها، إلا أنَّ كل سكان العاصمة التونسية، وتحديداً الموساد، يعلمون جيداً أنَّ هذا هو مكتب أبو العباس. عند البوابة صادفتُ أحد رفاق أبو العباس الموثوق بهم أيضاً، وهو حسين العبد، الذي كان عضواً بارزاً في نقابة العمال الفلسطينيين في تونس. وقفتُ معه وتحدثنا لبضع دقائق، وكان من الواضح أنه الآخر لا يعرف أكثر مما أعرفه. كان جلّ ما نعلمه في تلك اللحظة هو أنَّ السفينة حاولت أن ترسو في سورية، لكن الرئيس حافظ الأسد لم يوافق على دخولها المياه الإقليمية السورية. لم يكن السوريون يحبون أبو العباس، بالرغم من أنه نشأ ودرس في دمشق، فقد كان يرفض محاباة نظام البعث.

أطلق الخاطفون تهديداتهم في بيان قالوا فيه: «إذا لم يأتِ الصليب الأحمر لنجدتنا في المياه السورية، فسنبدأ بقتل الركاب ثلاثة، ثلاثة». كان لتلك الفكرة أثرها في إرغام المجتمع الدولي على التحرك. وبالرغم من تصريحهم بأنهم قتلوا فعلاً ثلاثة ركاب أميركيين، وذكروا أسماءهم، مستغلين جوازات السفر التي جمعوها لحظة خطف السفينة، إلا أن القصة لم يكن لها أساس من الصحة. في تلك اللحظة فكَّر الخاطفون في التوجه إلى لبنان، ومن ثم مغادرة السفينة على قارب نجاة مع استخدام ركاب السفينة كدرع لحمايتهم من نيران الأسطول الأميركي السادس الذي أُشيع أنه يبحر باتجاههم، ويستعد لعملية عسكرية على الأكيلي لاورو. لكن بدلاً من بقاء السفينة في المياه السورية أو اللبنانية، شقت طريقها باتجاه مصر وأحضان رئيسها حسني مبارك.

كانت الحكومة المصرية آنذاك تعاني من مقاطعة عربية وعزلة كبيرة. فقد جرى إقصاؤها من جامعة الدول العربية بعد توقيع الرئيس الراحل محمد أنور السادات اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل عام ١٩٧٨. بعد مرور سبع سنوات على كامب ديفيد وأربع سنوات على تولي حسني مبارك الحكم، لم يتغير شيء في موقع مصر بين العرب، وتحديداً في الشارع الفلسطيني. وعلى ما أظن فقد سمح مبارك لسفينة الأكيلي لاورو بدخول المياه المصرية ليعيد مكانة بلاده كوسيط عربي موثوق ولاعب فاعل في الصراع العربي الإسرائيلي. كانت الأكيلي لاورو هبة من الله بالنسبة إلى الرئيس المصري، فقد منحته فرصة فتح القنوات مع القيادة الفلسطينية، وارتداء حلة الزعيم القادر على حل الأزمة، مستفيداً من شبكة علاقاته الواسعة في الولايات المتحدة وأوروبا.

حصلت إذاعة مونتي كارلو بحلول الظهيرة على القصة الكاملة، لكن

التلفزيون التونسي لم يأتِ على ذكر الموضوع، لا من قريب، ولا من بعيد. أدركتُ أن لا مكتب الإعلام، ولا جبهة التحرير الفلسطينية سيفيدانني بشيء عن زوجي. لذا اتجهتُ نحو المقر الرئيسي لحركة فتح للقاء الأخ أبو عمار، إذا لم يكن بمقدور عرفات مساعدتي في العثور على أبو العباس، وإطلاعي على المزيد في ما يخص هوية خاطفي الأكيلي لاورو، فليس بمقدور أحد أن يساعدني. عموماً، ليس ثمّة أمر يتعلق بالسياسة الفلسطينية من دون مباركة علنية أو سرّية من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي كنا ندعوه «الختيار»، مع أنّ عرفات كان في ذلك الوقت لا يزال شاباً نسبياً، ولم يكن قد تجاوز السابعة والخمسين.

كانت مكاتب «فتح» لا تشبه أبداً مكاتب جبهة التحرير الفلسطينية المتواضعة، فقد كانت تغصّ بالناس، وتشبه إلى حدٍّ بعيد مقارّ الشركات العالمية المليئة بأجهزة الفاكس وشاشات التلفاز، وموظفات السكرتاريا بنظاراتهن وتنانيرهن الطويلة، والموظفين الذين يذرعون المكان جيئةً وذهاباً. في تلك الأيام، كان عرفات لا يزال يتمتع بحيوية تفوق حيوية كل الموجودين في الغرفة مجتمعين. وعلى ما أذكر، كان مدير مكتبه حينها رمزي خوري موجوداً. كنتُ معجبة جداً بعرفات كما هو حال كل أبناء جيلي من الفلسطينيين، وكنتُ أعدُّه «عرّاب» النضال الفلسطيني. عندما دخلتُ عليه، كان عرفات يجلس خلف مكتبه مرتدياً كوفيته الفلسطينية بلونيها الأبيض والأسود، والتي كان طرفها مطويّاً على كتفه بكل أناقة على شكل خريطة فلسطين. نظر إليَّ وابتسم بحرارة وخاطبني بلهجته المصرية التي كان قد اكتسبها في سنواته الأولى في غزة: «ياختي نحن نعمل مع المصريين على حلّ أزمة السفينة». دخل عرفات فوراً في صلب الموضوع، ووفّر عليّ

عناء الخوض في الشروحات وتوجيه الأسئلة. عندها سألت بكل تهذيب: «هل أبو العباس في مصر؟». كان عرفات سياسياً ذكيّاً لا يُفصح إلا عن المعلومات الضرورية جداً. وبالتالي أطرق برأسه أمامي، زاعماً عدم معرفته، لكنه وعدني قائلاً: «رح نعرف». كان طبعاً يخفي الحقيقة عنّي، فهو يعرف تمام المعرفة مكان أبو العباس في تلك اللحظة، لكنه لم يرغب في الإفصاح عن مكانه، حتى لزوجته، حفاظاً على سلامته وعلى سرية العملية.

عرفات والأكيلي لاورو

أخبرني أبو العباس في ما بعد كيف حصل على موافقة عرفات على تمويل عملية الأكيلي لاورو. قال يومها: «لديّ دوماً مخططات مرسومة بتفاصيل دقيقة وجاهزة للتنفيذ. كل ما أحتاجه هو الغطاء السياسي والتمويل ورجال للتنفيذ. عندما شنّ الإسرائيليون اعتداءهم على حمام الشطّ، ذهبتُ إلى عرفات وقلتُ له: لديّ عملية جاهزة ستزعزع كيانهم، وتكون انتقاماً مثالياً». وهنا أومأ أبو عمار برأسه قائلاً: «اذهب ونفّذها. الله يكون معك». وشرح لي أبو العباس في ما بعد أنّ عرفات «لم يرغب في الخوض في التفاصيل، بل اكتفى بإعطائي الضوء الأخضر وغادر المكان عمداً، وتركني أهتم بالترتيبات».

كانت عملية الأكيلي لاورو التي خُطِّط لها بحسب ما أعتقد قبل سنتين من التنفيذ، ردّاً على الاعتداء الذي شنّته إسرائيل على مقرّ منظمة التحرير الفلسطينية في منطقة حمام الشط في تونس قبل ستة أيام من عملية الأكيلي لاورو، أي في الأول من شهر تشرين الأول ١٩٨٥ . في تلك العملية التي

كانت تحظى على الأغلب بموافقة أميركا أو مساعدتها أو كليهما معاً، قامت مقاتلات من سلاح الجو الإسرائيلي بتدمير المجمّع التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ما أدى ـــ وفق مصادر ـــ إلى مقتل أكثر من ٥٠ فلسطينياً و٢١٥ تونسياً من المدنيين وجرح ١٠٠ آخرين. ووسط احتجاجات المجتمع الدولي التي أعقبت الاعتداء، وصف الرئيس ريغان الهجوم بأنه «رد شرعي على الإرهاب» وأنّ «من غير الممكن إدانة» هذا الهجوم المحق من قبل إسرائيل.

اعتداء حمّام الشط كانت بدوره رداً إسرائيلياً على هجوم شنه قبل سبعة أيام، وتحديداً في ٢٥ أيلول ١٩٨٥، مقاتلون من القوة ١٧ التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، حين اختطف الفدائيون يختاً كان يبحر بالقرب من قبرص، وأعدموا ثلاثة من السيّاح الإسرائيليين. تُرى، هل كانوا فعلاً سيّاحاً، أم أنهم عملاء للموساد يراقبون حركة الزوارق الفلسطينية في المتوسط؟ على العموم، كانت إسرائيل تشنّ دوماً هجمات على السفن الفلسطينية في مياه السواحل الشرقية للمتوسط.

وكانت عملية قبرص بحدّ ذاتها ردّاً على اختطاف إسرائيل قائد القوة ١٧، فيصل أبو شعرة، الذي كان في طريقه بحراً من بيروت إلى لارنكا في ١١ أيلول، أي قبل أربعة عشر يوماً من الحادثة الأخيرة. وأُرسِل أبو شعرة إلى إسرائيل لاستجوابه، وحُكم عليه بالسجن لفترة طويلة.

يعتقد معظم الأميركيين أنّ بلادهم كانت في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين بعيدةً عن النزاع، وليس لها أيّ دور في رقصة الموت تلك. (ومما لا شك فيه أنني أتحدث عن فترة ما قبل حرب الخليج عام ١٩٩١، وما قبل

حرب أفغانستان عام ٢٠٠١، وحرب العراق عام ٢٠٠٣)، ومن المؤكد أن الأميركيين في السنوات التي سبقت الحملات غير المبررة في باكستان واليمن والتي بدأت في أوائل عام ٢٠٠٨، كانوا يرون أن دولتهم تقوم بعمليات عسكرية مشرّفة، لا ضربات عسكرية قد تؤدي على الأغلب إلى مقتل المدنيين. إلا أنه يجب على الأميركيين قبل أن يصنفوا عملية الأكيلي لاورو ضمن العمليات الإرهابية، وقبل أن يدينوا الحلقة البربرية في سلسلة القتل والانتقام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، أن يتذكروا التفجير الضخم الذي استهدف بناءً بأكمله وأدى إلى تدميره في بيروت يوم الثامن من آذار عام ١٩٨٥، وراح ضحيته يومها عشرات المدنيين الذين كانوا قد خرجوا للتو من الجامع بعد أداء صلاة يوم الجمعة. كان المستهدف في تلك العملية الزعيم الروحي لحزب الله، العلامة السيد محمد حسين فضل الله، الذي لم يكن في الجامع حينها. كانت وكالة الاستخبارات الأميركية المركزية هي العقل المدبّر لهذه العملية التدميرية بتمويل من السعودية، وفقاً لما ذكره الكاتب بوب وورد في كتابه «الحجاب». وتكهن البعض أنّ هذا التفجير كان ردّاً أميركياً على الاعتداءات التي شنّها حزب الله على ٣ أهداف أميركية في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤. هل كانت هذه العملية الأميركية عملاً إرهابياً؟ أم أنّ أميركا تسمو فوق الأعمال البربرية الهادفة إلى الانتقام لأرواح ضحاياها؟

شهد عام ١٩٨٥ وحده أكثر من عشرين عملية ضمن موجة الفعل وردّ الفعل التي دارت فصولها بين إسرائيل مدعومة من الولايات المتحدة من جهة، ومنظمة التحرير الفلسطينية بدعم سوفياتي من جهة ثانية. كذلك انغمس في الصراع هذا أشخاص من أمثال الخائن أبو نضال، ودول مثل

سورية وليبيا، وكلهم يجمعهم العداء لإسرائيل والولايات المتحدة، مع أنهم في مناسبات عدة ناصبوا عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية العداء.

والسؤال هنا هو: هل كان جميع أولئك اللاعبين مجموعات إرهابية أم دولاً إرهابية؟ وما هو الفرق بين الإرهاب والعمل العسكري المشرّف؟ وهل يمكننا أن نقول إنّ اعتداء إسرائيل على حمّام الشطّ يندرج ضمن الأعمال العسكرية الاعتيادية لأنه عبارة عن غارة جوية شنتها طائرات مقاتلة جرى تزويدها بالوقود بواسطة طائرة بوينغ ٧٠٧ فوق البحر المتوسط؟ وعلى المقلب الآخر، هل يمكن تصنيف اختطاف يخت فاخر وإعدام ثلاثة سيّاح إسرائيليين في لارنكا ضمن الأعمال الإرهابية لكونه انطوى على القتل العمد وجهاً لوجه؟ لقد مُنح أولئك الإسرائيليون فرصة تدوين آخر كلمات لهم قبل إعدامهم، وهو الأمر الذي كرَّسَ لدى الإسرائيليين إنسانية الضحايا، وعزّز تصنيف هذا العمل ضمن الأعمال الإرهابية. ولكن حتى لو افترضنا أن أولئك الإسرائيليين كانوا مجرّد سيّاح وليسوا تابعين لمشروع الموساد الساعي إلى استهداف الحركة الفلسطينية في البحر، هناك نقطة مهمّة جداً، هي أنّ الاعتداء على حمام الشطّ، سواء أكان عملية إرهابية أم عملاً عسكرياً، فإنه أدى إلى مقتل ما يزيد على ٢٠٠ شخص من التونسيين المدنيين، أي أكثر بسبعين مرة من ضحايا لارنكا. هل هناك أرواح بشرية أغلى من غيرها؟ لربما يتضح التمييز بين «الاعتداءات الإرهابية» و«العمليات العسكرية» في عين الرائي.

كانت إسرائيل تعدّ العمليات الفلسطينية إرهاباً، والعكس صحيح، وكان كلا الطرفين يتصارع على الجبهات الإعلامية. فمن منهما يا ترى سيرسّخ

تعريفه للإرهاب في أذهان الشعوب؟ ومن منهما سيحظى بالتالي بالتعاطف الدولي؟ هل تدفع هذه الأحداث العالم إلى التفكير مليّاً في أوجاع الفلسطينيين المهملة؟ أم أنّ هذه الأحداث هي مسألة بوليسية محضة تقتضي ردّاً وحشياً؟ إذا كانت ماركة «الإرهاب» قد وجدت لتلصق بالعمليات الفلسطينية، فمن المبرر أن «تُكسَر القاعدة» بتصنيع ماركة أخرى، وهي «مكافحة الإرهاب»، وبالتالي تكون الحلقة قد اكتملت لدينا، إذ إنّ الولايات المتحدة في عهد ريغان سلطت الضوء على مكافحة الإرهاب عوضاً عن محاولة حلّ المشكلة من جذورها، والقيام ببعض الإجراءات المنصفة للفلسطينيين. وقد ذكرت صحيفة **واشنطن بوست** في تقرير لها بتاريخ ٢٤ آذار عام ١٩٨٥ أنّ الولايات المتحدة لديها فِرق لمكافحة الإرهاب في ١٢ دولة.

كان من المهم جداً للقضية الفلسطينية أن تنجح في استقطاب الدعم الدولي تجاه مفهومها الخاص عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وكان الفلسطينيون بحاجة لحثّ المجتمع الدولي على التركيز على لبّ المشكلة، أي الظلم الذي يعانيه الفلسطينيون، عوضاً عن التوجه لمكافحة الإرهاب. وهنا تكتمل الدائرة بقضية أكيلي لاورو.

تونس، ٧ تشرين الأول، ١٩٨٥ الساعة ٢,٠٠ بعد الظهر

كنتُ مضطربة جداً، فالقناة الإيطالية نقلت خبر اختطاف الأكيلي لاورو، واستنتجت بدوري أنّ زوجي أبو العباس متورط في تلك العملية، وجبهة التحرير الفلسطينية لم تمتلك أي معلومة عن الموضوع، وفوق ذلك كله تملّص ياسر عرفات منّي بطريقة ودية. أين هو زوجي؟ منذ الصباح الباكر لذلك

اليوم وأنا أمنع نفسي عن البكاء. كان الأولاد في المدرسة، وأنا أقبع وحيدة والألم يعتصر قلبي، وأعرف تمام المعرفة أن لا أحد يصغي إليّ في لحظة ضعفي تلك. كانت دموعي لا تزال تنهمر عندما رنّ الهاتف. كان هذه المرة ابن خالتي لطف القدومي، وهو ابن فاروق القدومي رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية وأحد مؤسسي حركة فتح. كان أبو اللطف في زيارة للولايات المتحدة يومها، فقال لي ابنه: «تعالي واقعدي عندنا. والدي يريد منك أن تأتي. بقاؤك في منزلك وحدك ليس آمناً». وافقتُ على اقتراحه من دون أي جدل مثل فتاة صغيرة مطيعة لا تعلم كيف أو إلى أين هي ذاهبة.

عمّان، ٦ تشرين الأول، ١٩٨٥

كان أبو العباس في العاصمة الأردنية عمّان في اليوم الذي سبق ساعة الصفر، وذلك لحضور الاجتماع السنوي للمجلس التنفيذي الفلسطيني. وكان من المقرر أن يصل إلى تونس في السادس من تشرين الأول، أي في الليلة التي تسبق اليوم المقرر لرجاله فيه مغادرة سطح سفينة الأكيلي لاورو، ودخولهم إسرائيل ونشر أسلحتهم فيها. لكنّ أبو العباس، في سهوة غريبة، لم يكن قد حجز بطاقة العودة، وكانت جميع الرحلات اليومية الأربع من عمان إلى تونس محجوزة بالكامل بسبب توجه عدد كبير من السياسيين الفلسطينيين عائدين من عمان إلى تونس بعد انتهاء أعمال المؤتمر. فما كان من أبو العباس إلا أن توجه إلى القاهرة ليسافر من هناك برحلة العودة إلى تونس في اليوم التالي، ليصل قبل أن ترسو الأكيلي لاورو في ميناء أشدود، ما يمكنه من إدارة العملية في الوقت المناسب. بالطبع لم يكن تأخر أبو العباس ليحدث فرقاً لولا أنّ خطأً مروِّعاً كان قد حدث على متن السفينة.

إن الخطأ في عدم تمكن أبو العباس من حجز رحلة العودة لم يكن من صفاته الشخصية، فهو رجل يولي اهتماماً بالغاً لأدق التفاصيل في أي عملية عسكرية، فقد كان يخطط لعملية الأكيلي لاورو منذ سنتين كاملتين تقريباً، وهو يمتلك كما يصفه أعداؤه عينَ الجرّاح في عمله المتقن. كان قد أرسل رجاله مرتين على متن الأكيلي لاورو قبل العملية، وهو ما كلّفه في واقع الحال الكثير من المال، كذلك كان يعرف جيداً سطح تلك السفينة وأقبيتها وأماكن قوارب النجاة فيها، لا بل العاملين عليها وجنسياتهم أيضاً، وحتى الطريق الذي تسلكه. وهو قد سجّل بالدقيقة والثانية الموعد المحدد الذي يصل فيه الحرس من قوات الدفاع الإسرائيلية، ووقت تغيير مناوبة الحرس في ميناء أشدود الإسرائيلي. على الرغم من أنّ أبو العباس كان قد رسم خطة دقيقة لعملية الأكيلي لاورو، آخذاً في الاعتبار أنّ أيّ عمل تقوم به مجموعة من الأفراد قد يكون عرضة لحدوث ارتباك ما، وبالتالي النتيجة الافتراضية لهذا العمل هي الفوضى.

تكمن المشكلة في حالة الحرب، في عدم إمكانية قيام المقاتلين بتكرار العملية المطلوبة مرة ومرتين أو ثلاثاً للحصول على الخبرة والتدريب. لهذا السبب، نجد أن الدول الكبرى تستثمر في مواقع تدريب سرّية بعيداً عن أعين المتطفلين، ومزودة بنماذج لأبنية وطرقات وساحات وشوارع ومحلات بهدف توقع أي حدث عرضي قد يبرز فجأة عند التنفيذ الفعلي للعملية. لكنّ مثل هذه التدريبات باهظة التكلفة كانت بعيدة جداً عن متناول جبهة التحرير الفلسطينية، خاصة بعد إغلاق سورية معسكرات تدريبها في حمص قبل عامين من عملية الأكيلي لاورو. لكن مع ذلك، كان هذا النوع من التدريب المحترف في غاية الأهمية لنمط العمليات العسكرية النوعية الشجاعة التي كان يُخطّط لها أبو العباس.

إلا أنّ العقبة الرئيسة التي واجهها أبو العباس لم تكمن في فريق العمل أو التدريب، بل في التوقيت. فالعمليات لم تكن تدخل حيّز التنفيذ بعد اكتمال عملية التدريب وإرساء أدقّ التفاصيل في مكانها، بل كانت تُطلَق وفقاً لضرورات سياسية. كانت منظمة التحرير الفلسطينية ترغب في الردّ على غطرسة إسرائيل الجوية على حمّام الشط في تونس خلال أسبوعين، وهذا يعني أنه يجب إرسال شبان مع أسلحتهم إلى إيطاليا فوراً. هل كان إغفال حجز رحلة طيران من عمان دليلاً على أنّ التسرع في وضع هذه العملية موضع التنفيذ جعل ترتيباتها النهائية تُجرى بسرعة، وبمعزل عن الخطة الشاملة التي وضعها أبو العباس لتنفيذ العملية. هل من الممكن أن يكون ذلك التسرع قد أدى إلى فشل العملية؟

لدى وصول أبو العباس إلى القاهرة، نزل في فندق حياة ريجينسي، مستخدماً جواز سفر مزوراً. وكان هاني الحسن (أبو طارق) مبعوث عرفات إلى ألمانيا وصديق أبو العباس، نزيلاً في الفندق نفسه. كان الرجلان قد اتفقا قبل الإخلاد إلى النوم على تناول طعام الإفطار معاً في اليوم التالي.

القاهرة، ٨ تشرين الأول، ١٩٨٥ الساعة ٨,٣٠ صباحاً

في الصباح التالي اتصل زوجي بأبو طارق من أجل الفطور، ولكنّ هذا الأخير بدا مهتاجاً، وقال: «لا أستطيع. المخابرات المصرية اتصلت بي للتو، ويجب أن أذهب إليهم فوراً. لقد اختُطفت سفينة في المياه المصرية قبل قليل، وهم يعتقدون أنّ عناصر مسلحة فلسطينية تقف وراء ذلك». لم يصدق أبو العباس ما سمعته أذناه، إذ لم يكن في خطته أي شيء يمتّ بصلة

إلى اختطاف الأكيلي لاورو. لا بد أنّ خطأً مروِّعاً قد حدث. وعلى الفور بادره أبو العباس قائلاً: «أنا قادم معك»، وانطلق الرجلان خارج الفندق، وفي الطريق قال أبو العباس مفسِّراً: «أعتقد أن هذه عمليتي». استذكر أبو العباس لاحقاً جبن صاحبه عندما قال لي: «أدرك هاني الحسن أنّ ما كان يحدث هو أمر خطير. لذا فضّل أن يُقصي نفسه تماماً عن القصة، ويتركني أرتب بنفسي الفوضى التي سبّبتُها».

الفصل الثاني

على متن الأكيلي لاورو

ما الذي حدث فعلاً على متن الأكيلي لاورو؟ ظلّ هذا اللغز يدور في خلَد أبو العباس حتى آخر يوم في حياته. كان أبو العباس يقول: «لم تكن خطتنا تتضمن خطف السفينة أو اتخاذ أيٍّ من ركابها رهائن، ومن المؤكد حكماً عدم إيذاء أحد. كان نصب أعيننا عدوٌّ واحد فقط: الجنود الإسرائيليون في ميناء أشدود. لهذا قمتُ بتدريبهم وإرسالهم مرات لا حصر لها على متن السفينة لتنفيذ عملية مشرّفة ضد الجيش الإسرائيلي. لو كان هدفي اختطاف السفينة، لقاموا بذلك منذ البداية. كنتُ أريد منهم الوصول إلى ميناء أشدود المحتل، لا الاشتباك مع الركاب على متن السفينة».

حظيت السيرورة الفاشلة التي سارت بها الأمور على متن السفينة بنظريات عديدة حاولت تفسيرها. تقول إحدى تلك الروايات إنه بينما

كان الشبّان يرتبون أسلحتهم في غرفهم، دخل نادل عليهم، ولدى رؤيته الأسلحة بأيدي أشخاص يتكلمون العربية ضغط زر الإنذار، وبدأ يصرخ طلباً للنجدة.

وتلقي رواية أخرى اللوم على الروائح، إذ تقول إن الأسلحة كانت مخبَّأة في خزان وقود لسيارة مركونة على الأراضي الإيطالية، وبالتالي كانت رائحة البنزين تنبعث من تلك الأسلحة، الأمر الذي أثار ريبة أفراد طاقم الخدمة على متن الأكيلي لاورو، الذين اعتقدوا بادئ الأمر أنّ الرائحة كانت تنبعث بسبب تسرب المادة من السفينة نفسها. في الوقت عينه، كان الشبّان الفلسطينيون الأربعة الذين كانوا يعانون من الرائحة ذاتها داخل غرفهم، قد قرروا إخراج الأسلحة وتجفيفها بمجفف الشعر. لم يكن بسام الأشقر معهم عندما حدث ذلك، لأنه على حدّ زعمه كان قد خرج ليتمشى في أرجاء السفينة وليختلط بالركاب، لأنه الوحيد بين المسلحين الأربعة المُلمّ بلغة أخرى غير العربية. وأضاف أنّ مضيفي السفينة كان لديهم مفتاح رئيسي يستخدمونه عند تنظيف الغرف، ومن الواضح أنهم فعلوا ذلك في موعد تقديم الفاكهة إلى الركاب، لكنهم فوجئوا عندما فتحوا الباب برؤية ثلاثة شبان جاثمين حول طاولة صغيرة وهم يجففون قنابل يدوية وبنادق ومسدسات. وبالطبع، لم يكن لدى الشبان الذين امتلأت قلوبهم بالخوف، أي خيار سوى أسر مضيفي السفينة، ومن ثمّ اختطاف السفينة بأكملها.

وتقول رواية أخرى روّجها كتّاب إسرائيليون وأميركيون على وجه التحديد، إنّ الشبّان أصابهم الذعر عند اكتشافهم أنّ فتاة عميلة للموساد

متنكرة بهيئة عنصر أمن إيطالي كانت تراقبهم. وتشير تلك الرواية إلى أنّ الفتاة اشتبهت بهم لأنّ أحداً منهم لم يكن يتكلم الإسبانية، على الرغم من أنهم يحملون جوازات سفر صادرة عن أميركا اللاتينية. وارتفعت حدة الخوف في نفوس الفدائيين عندما علموا أنه سيتم تفتيش جميع أمتعة المسافرين قبل مغادرة ميناء الإسكندرية في الطريق إلى ميناء بور سعيد الذي يعتبر نقطة التوقف الأخيرة للسفينة قبل رسوِّها النهائي في ميناء أشدود.

تستغرق الرحلة بين الإسكندرية وأشدود ست ساعات عادة، وفي الأحوال الطبيعية تجري عملية تفتيش أمتعة المسافرين لدى دخول المياه الإسرائيلية. وكان إعلان تفتيش الأمتعة قبل دخول المياه الإسرائيلية كافياً لإقناعهم بأنّ إدارة السفينة تتحرى وجود أسلحة على متن الباخرة. وبحسب هذا السيناريو، فإنّ قرار التفتيش دفع الفلسطينيين إلى اتخاذ قرارهم باختطاف السفينة، فعمدوا إلى «اعتقال» طاقمها وركابها قبل أن يُكشف أمرهم وتفشل العملية.

وتفيد رواية رابعة بأنّ الفلسطينيين قرروا بدء الهجوم عندما رست السفينة في ميناء الإسكندرية، ونزل معظم ركابها إلى الشاطئ للتجوال في المدينة، ولم يبقَ على متن السفينة من أصل ٧٧٤ راكباً إلا ٨٠ راكباً، بمن فيهم الفلسطينيون الأربعة، وسائحان أميركيان هما ليون كلينغوفر المقعد ذو التاسعة والستين عاماً، وزوجته مارلين. كذلك سرت بعض الشائعات التي قالت إن ابنة الرئيس ريغان كانت هي الأخرى على متن السفينة، لكن لم تثبت صحة هذه الشائعة إطلاقاً، وأعتقد أنها كانت ضرباً من خيال أحد الصحافيين.

عند الظهر اكتشف طاقم السفينة الإداري أنّ نظام الإذاعة لا يعمل، لذا أرسلوا مضيفة إلى غرف الركاب لتعلمهم فرداً فرداً بأنّ الغداء جاهز. وحدث أن كان الشبّان الفلسطينيون جميعهم في غرفة واحدة، وعندما سمعوا النقر على الباب أصابهم الهلع، لأنهم اعتقدوا أنّ وراء الباب شخصاً ما يحمل بيديه الأصفاد لإلقاء القبض عليهم. لذا، عندما دخلت عليهم المضيفة، أخذوها رهينةً، وخرجوا بعدها إلى الردهة وهم يلوّحون ببنادقهم ويلقون الأوامر بأعلى صوتهم وباللغة العربية التي لم يتمكن أحد من فهمها، وأُخذ كلُّ الركاب رهائن.

أعتقد أن خليطاً من كل ما ذكر آنفاً يبدو منطقيّاً، لكن أبو العباس لم يتقبّل مطلقاً قصة «المضيفة التي اقتحمت الغرفة»، وكان يعضّ على شفتيه ويصرخ في وجه رجاله بعد انتهاء العملية قائلاً: «لماذا كنتم ترتبون أسلحتكم من دون أن توصدوا الباب اللعين أولاً؟».

الغبار في مقابل الأناقة، تفسيرات جديدة

أعتقد أنّ هناك عاملاً آخر يجب أن يؤخذ في الاعتبار، وهو يختلف كل الاختلاف عمّا ذُكر. (ما سأذكره من شرح في السطور التالية يستند إلى مقابلة أجريتُها أخيراً مع أحد الشبان الخاطفين، هو بسام الأشقر). ما حدث ببساطة هو أنّ الشبّان ارتعدوا عندما دقّت ساعة موتهم. ويجب علينا ألّا ننسى أنّ أولئك الشبّان كانوا في عمر الزهور. لقد قدموا من المخيمات الفلسطينية في الأردن وسورية، وتذوقوا على متن الأكيلي لاورو طعم الترَف الذي لم يخبروه من قبل، تلك الحياة البعيدة كل البعد عن شوارع

مخيم اليرموك المزدحمة والمليئة بالغبار في دمشق، أو مخيمات الوحدات والبقعة في الأردن. هؤلاء الشبان الذين لم يحصلوا على تعليم مناسب، وهم الذين نشأوا في مساكن ضيقة متلاصقة، وترعرعوا في الشوارع، وجدوا أنفسهم فجأة يحتسون الشمبانيا في حفلات تقام حول المسبح على سطح الأكيلي لاورو، محاطين بشقراوات أوروبا يرتدين البكيني. لم يكن هؤلاء الشبان يبالون بالموت قبل صعودهم على متن الأكيلي لاورو، لأنهم ببساطة لم يتذوقوا طعم الحياة ولم يعرفوا الراحة يوماً، ولم يكن لديهم ما يخسروه إنْ قُتلوا في المعركة. لكنّ ارتيادهم الباخرة الفاخرة مرتين فقط جعلهم يدركون سريعاً أنّ في الحياة لذةً لم يعرفوا بوجودها سابقاً، وأنّ الحياة قد تحمل معاني جميلة.

أساطير الأكيلي لاورو

بالطبع، كانت الصحافة الإسرائيلية والأميركية وجميع الكتب التي نُشرت منذ ذلك التاريخ حافلة بقصص خرافية تروي ما حدث على سطح الأكيلي لاورو. وكان الهدف الوحيد لمعظم ما نشر هو إلصاق السمعة السيئة بأبو العباس والقضية التي يمثّلها. ففي تقرير لا أساس له من الصحة، ذكرت الصحافة الإسرائيلية أنّ الخطة كانت تقضي بدخول الشبّان الأربعة إلى إسرائيل للاعتداء على «حافلة مليئة بالمدنيين». كذلك أصرّت معظم المصادر الإعلامية على أنّ عملية الأكيلي لاورو كانت رداً فلسطينياً على غارة جوية كانت قد استهدفت في الأول من تشرين الأول ١٩٨٥ مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في حمام الشطّ (تلك العملية المعروفة في الغرب باسم عملية الساق الخشبية). من المؤكد أن عمليةً

معقدة مثل عملية الأكيلي لاورو احتاجت إلى أكثر من أسبوع للتخطيط لها، أي أكثر من الفترة الفاصلة بين الغارة الإسرائيلية واختطاف السفينة. ليس هناك أدنى شك في أنّ عملية الأكيلي لاورو جاءت رداً على الاعتداء الإسرائيلي المذكور، لكنّ التخطيط لها كان قبل فترة سبقت بكثير تاريخ الغارات على حمام الشطّ. في الواقع، ناقض الإسرائيليون أنفسهم في هذه النقطة، لأنهم قالوا إن التخطيط لعملية أكيلي لاورو استغرق ١١ شهراً، فقد ذكر الأمن القومي الإسرائيلي أنّ الخيوط الأولى للعملية كانت قد بدأت في تشرين الثاني عام ١٩٨٤. وإن كان هذا الكلام صحيحاً، وبدأ التخطيط للعملية في أواخر عام ١٩٨٤، فليس هناك مجال للقول إن العملية قد حيكت على الفور لتكون رداً على غارات حمام الشطّ في تشرين الأول عام ١٩٨٥.

ربما كان هناك جانب من الحقيقة في مقولة إن العملية كانت وليدة اللحظة، إذ يعتقد بسام الأشقر، أحد الشبّان الذين شاركوا في العملية على متن السفينة، أنّ العملية كانت في أحد مراميها رداً على الهجوم الإسرائيلي، وأنّ التسرع الذي شابَ الترتيبات النهائية لها كان سبباً في فشلها.

ويقول الكاتبان الأميركيان جانيت وجون والاش في معرض سردهما قصة أخرى تروي ما حدث على متن الأكيلي لاورو، إنّ المسلحين «تصفحوا جوازات سفر الركاب (الذين كانوا لا يزالون على متن السفينة) وقاموا بتمييز اليهود منهم من أسمائهم، وفصلهم مع البريطانيين عن باقي الركاب في الردهة الرئيسية للسفينة. وقد استطاع الركاب المذعورون سماع المسلحين وهم يتكلمون العربية ويذكرون اسم عرفات».

طبعاً من الصعب تصديق كلام كهذا لأسباب عدة، أهمّها أنّ الفلسطينيين لا يشيرون إلى ياسر عرفات بهذا الاسم، كما يفعل الغرب، بل يشيرون إليه باسم «أبو عمار» أو «الختيار». كذلك لا أجد سبباً يجعلهم يتمتمون باسمه في خضم العملية، مع الانتباه إلى أنّ عرفات لم يكن له رسمياً أي علاقة بالأكيلي لاورو. وتقول القصة أيضاً إنّ الفدائيين طالبوا بإطلاق سراح ٥٠ فلسطينياً ممن يقبعون في سجون إسرائيل، ومعهم الأسير اللبناني سمير القنطار أيضاً. ويضيف والاش أنّ المسلحين الفلسطينيين بدأوا يغنون: «عرفات رجل طيب. ريغان رجل قذر».

ويتابع الكاتب روايته الدرامية بحسب رؤيته، ويقول: «طلب الركاب إذناً للذهاب إلى الحمام، ولكنهم قوبلوا بالرفض... وطلب الإرهابيون من الركاب التوجه إلى مقدمة السفينة عبر درجات السلالم، لكنّ مارلين كلينغوفر لم تتمكن من دفع زوجها على كرسيه المتحرك على تلك السلالم، وليون ذو التاسعة والستين لا يمكنه صعود السلم بنفسه، حتى لو ساعده أحد. لم تستطع زوجته تركه وحده، وتوسلت إليهم قائلة إنّ زوجها يعاني من ارتفاع ضغط الدم وأضعف من أن يترك وحده. لكنّ أحد الشبان العرب ضربها بأخمص مسدسه». ويتابع أيضاً: «طلب المسلحون من الركاب الوقوف وتوجيه وجوههم نحو سورية (في إشارة من الكاتب إلى أن الفلسطينيين كانوا ينفذون أوامر من دمشق). كان بإمكانهم رؤية عبوات البنزين الضخمة التي وضعت هناك عمداً، كي تنفجر وتُردي كل من على متن السفينة ميتاً إن أطلق أحد النار عليها». وتستمر القصة بالقول: «قام الإرهابيون بتعذيب الرهائن من خلال اللعب بالقنابل اليدوية ودسّها بالقوة في أيديهم المكبّلة».

إن الحقيقة الوحيدة والمؤسفة جداً، هي أن كلينغوفر أثار الكثير من الشغب، لدرجة أربكت ووتّرت الشبان الأربعة الذين لا خبرة لديهم في خطف الرهائن، فضلاً عن أنهم لم يتوقعوا أن يكون ضبط الرهينة من المهارات المطلوبة في مثل هذه المهمة. تلك الهستيريا التي أصابت كلينغوفر خلقت أزمة، إضافةً إلى تصرّف الشبَان من دون تعقّل أو أي تفكير في العواقب: فقد أطلقوا النار على كلينغوفر، ثمّ رموه في البحر. ولم يكتشف أبو العباس قتل كلينغوفر إلا عند انتهاء العملية. وما زاد الطين بلة أنّ كلينغوفر ينتمي إلى عائلة يهودية أميركية ناشطة تربطها صلة وثيقة بلجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأميركية «إيباك» التي تُعَدّ من أقوى جماعات اللوبي اليهودي في واشنطن. لقد أصابت تلك الجريمة عصباً من أعصاب المجتمع الأميركي، وأرغمت منظمة التحرير الفلسطينية على دفع مبالغ مالية ضخمة لعائلة كلينغوفر سُدِّدَت على مدى خمسة عشر عاماً. هذا الأمر جعل من أكيلي لاورو «عملية كارثيّة على الصعيد المالي والسياسي بالنسبة إلى القضية الفلسطينية» من وجهة نظر أبو العباس. لم يكن أبو العباس يريد قتل كلينغوفر، فهو كان يدرك تماماً أن موت كلينغوفر سيمنح إسرائيل ذريعة لقتل آلاف الفلسطينيين.

وبالفعل، كان لها هذا بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية في شهر أيلول عام ٢٠٠٠، حيث لقي أكثر من ٣٠٠٠ فلسطيني حتفهم بنيران الجيش الإسرائيلي، وإلى ذلك التاريخ لم يكن لدى صحافيي الغرب أي سؤال يطرحونه على أبو العباس سوى: «لماذا قُتل ليون كلينغوفر عام ١٩٨٥؟»، وكان أبو العباس يجيب: «من المحزن أن توجهوا إليّ هذا

السؤال. إنّ أنهاراً من الدماء تسيل في بلادي، ومع ذلك لا تزال جثة رجل واحد تلاحقني حتى هذا اليوم بعد مرور خمسة عشر عاماً».

في ٢٢ نيسان عام ١٩٩٦، صرّح أبو العباس بصفته نائباً في المجلس الوطني الفلسطيني بأنّ عملية الأكيلي لاورو كانت «خطأً نجمت عنه أخطاءٌ أخرى». بعد مقتل كلينغوفر، لم يحدث أن كتبت الصحافة الغربية حرفاً واحداً عن مسيرة أبو العباس، حتى عندما توفي في السجون الأميركية عام ٢٠٠٤. كان جلّ ما استطاعت تلك الصحافة ذكره، هو وفاة الرجل الذي تورّط بمقتل كلينغوفر (أي أبو العباس). وهكذا أصبحت عملية الأكيلي لاورو، وموت كلينغوفر، بمثابة شبح تلبّس أبو العباس حتى آخر يوم في حياته، بدلاً من أن تكون حدثاً بطولياً في حياة الرجل النضالية.

القاهرة، ٨ تشرين الأول، ١٩٨٥، الساعة ١١,٠٠ صباحاً

بعد وصوله إلى مقرّ الاستخبارات المصرية في القاهرة مع هاني الحسن، توجّه أبو العباس إلى الإسكندرية، ومنها إلى عمق البحر في قارب مطاطي سريع لاعتراض الأكيلي لاورو. كان هدفه إعطاء الأمر لرجاله بالاستسلام. ولا بد أن نشير هنا إلى أنّ قيام أبو العباس بهذه الخطوة لم يأتِ بطلب من المصريين، بل قام بها من تلقاء نفسه، لأنه كان مقتنعاً بأنّ هذا ما يجب فعله، ما دامت العملية انحرفت عن مسارها الأصلي. لقد كان الهدف من عملية الأكيلي لاورو في النهاية جذب انتباه المجتمع الدولي وتعاطفه، لا إلحاق الأذى بالسيّاح.

في الوقت الذي كان فيه القارب المطاطي يشقّ عباب البحر باتجاه الباخرة،

كان ذهن أبو العباس مركّزاً على فكرة واحدة، هي: ما الخطأ الذي حدث... ولماذا؟ كان غاضباً لأنّ تعب عامين من التخطيط ذهب أدراج الرياح. كان أبو العباس بقامته الطويلة وشهامته الوطنية قيادياً عسكرياً رفيع المستوى ممن يشرّفون أي عملية عسكرية.

الأخطاء والهفوات كانت تثير حنق أبو العباس الذي حمل مكبر الصوت وراح يخاطب رجاله على السفينة فرداً فرداً، وبالاسم، أعطى أوامره لتسليم أسلحتهم «فوراً». كان يتكلم ببطء ويتأكد من نطق كل كلمة والتشديد عليها. كان يصيح: «انزلوا! غادروا السفينة! اختطاف السفينة ليس هدفنا!»، حتى إنه عرّف عن نفسه باسمه الحقيقي «أبو خالد»، لا باسمه الحركي «أبو العباس». الاستخبارات المصرية سجّلت هذا الحديث الذي جرى في عرض البحر بأكمله، وسلمته على الفور للموساد ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

وبعد مرور ثمانية أيام، أي في ١٦ تشرين الأول، سربت إسرائيل نسخة طبق الأصل للأوامر التي وجهها أبو العباس إلى رجاله على متن الأكيلي لاورو. ونحن بدورنا حصلنا على نسخة للاحتفاظ بها في مكتبتنا بعد وصولنا إلى بغداد في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين. وصادر هذه النسخة جيش الاحتلال الأميركي في عام ٢٠٠٣ مع كل ممتلكاتنا أيضاً. كان صوت أبو العباس مسموعاً بوضوح، وهو يصرخ قائلاً: «هذا أمر عسكري. ممنوع إيذاء الركاب!». عندما تأكد الشبان أن لا أذى سيلحق بهم، سلّموا أسلحتهم لأبو العباس، وانضموا إليه في رحلة عودة آمنة إلى بلادهم وفق الوعود التي أُعطيت لهم.

أبو عمار يتولى الحديث

نسفت عملية الأكيلي لاورو اجتماعاً كان مقرراً في لندن بين قيادات فلسطينية ووزير الخارجية السير جيفري هوي، بترتيب من الملك حسين، ملك الأردن، ورئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر. وسارع عرفات إلى التملص من عملية الأكيلي لاورو، وعاقب أبو العباس عقاباً شديداً، بتجميد عضويته في المجلس التنفيذي الفلسطيني. مع أنه بعد أقل من ثلاث سنوات، وبالتحديد في نيسان ١٩٨٧، انتُخب أبو العباس لعضوية المجلس، وبترحيب كبير من عرفات نفسه. قدَّم عرفات في التسعينيات من القرن العشرين صورة مختلفة عن العملية أمام الصحافة الأميركية حين قال: «كنا نحن ضحايا هذا الإرهاب. السوريون هم من سمحوا بتسلل جماعة أبو العباس. هذا مثال على أعمال السوريين القذرة. لقد اخترقت الاستخبارات السورية جبهة التحرير الفلسطينية. أنا أعرف كل ما فعلوه». كان هذا طبعاً ياسر عرفات وبامتياز، فهو من يتنصل من أي عملية عسكرية أمام الغرب، بينما ينغمس فيها انغماساً تاماً أمام الفلسطينيين. لطالما زعم عرفات أنّ تلك العملية كانت تهدف إلى تقويضه شخصياً، وتدعيم المتطرفين الإسرائيليين الراغبين في القضاء عليه سياسياً وشخصياً. لكن الديبلوماسيين الأميركيين لم يصدقوا يوماً أنّ عرفات لا علاقة له بأكيلي لاورو. تقول إحدى البرقيات: «كان (عرفات) على علم بأنه يجري التخطيط لعملية ما، حتى لو لم يكن يعلم ما هي نتائجها أو ما ستستهدفه بالتحديد. من المضحك القول إنه ليس لديه أي خبر بأنّ أبو العباس كان يخطط لشيء ما».

ولا بد من الإشارة إلى أنّ الرئيس عرفات كان بين عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين يهوى الحصول على امتياز من أيّ عملية عسكرية، حتى لو لم يكن ضالعاً في أيٍّ منها. وعندما اكتفى من تلك الامتيازات، تحول تركيزه إلى بناء سمعته كوسيط لحل المشاكل، ليتحول في نهاية المطاف إلى صانع سلام. ومع ترحيله من لبنان في عام ١٩٨٢ ومقاطعة الولايات المتحدة له، حاول عرفات جاهداً فتح قنوات خلفية مع واشنطن.

أدرك عرفات أنّ حلفاءه في موسكو بدأوا التنصل من التزاماتهم تجاه الفلسطينيين خلال سنوات ما سُمِّيَ خريفَ الاتحاد السوفياتي. في أواسط الثمانينيات من القرن العشرين، كان عرفات أصلاً يمرّ بمرحلة انتقالية بسيرته الشخصية من مرتبة محارب إلى مرتبة صانع سلام، وكان بالرغم من توقه الشديد إلى نجاح عملية الأكيلي لاورو، غير قادر على إشهار علاقته بها أو بأبو العباس.

بعد توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، جاء عرفات على ذكر الأكيلي لاورو حين قال: «تلقيت الشكر الرسمي من حكومة إيطاليا (على إنقاذ الرهائن) ولديّ رسالة من رئيس وزرائها بيتينو كراكسي بهذا الخصوص. لقد أنقذتُ ٤٠٠ شخص (مع أنّ العدد الحقيقي كان ٧٧٤ شخصاً). وحتى وزارة العدل (الإيطالية) تنازلت عن طلبها اعتقال أبو العباس وتسليمه».

الفصل الثالث

مبارك يتكرّم علينا بتوصيلة

القاهرة، ٨ تشرين الأول ١٩٨٥، الساعة ٥,٠٠ مساءً

توجه زوجي والشبان الفلسطينيون الأربعة إلى مقرّ الاستخبارات المصرية فور وصولهم الشاطئ، للتفاوض على مخرج لأزمة. كان العالم بأكمله يراقب، فالأميركيون كانوا غاضبين جداً، وكذلك الإسرائيليون والإيطاليون والمصريون، ومثلهم التونسيون بالطبع. أما المسلحون الأربعة الذين أرهقتهم العملية الفاشلة، فقد غطّوا في نوم عميق، بينما تولى أبو العباس إدارة المفاوضات.

أصرّ أبو العباس على عدم عودة رجاله بمفردهم إلى تونس خوفاً على حياتهم، وأكد أنه لن يقبل تحت أي ظرف بتسليمهم للإسرائيليين أو الأميركيين.

وقال أبو العباس: «كنت مصراً على أنّ أفضل حل هو إرسال كل شاب على متن طائرة تجارية مختلفة متجهة إلى تونس». لكنَّ المصريين، باقتراح من الرئيس حسني مبارك، عرضوا نقلهم بطائرة الرئيس الخاصة. وجاء جواب أبو العباس بالرفض مرة ثانية. بعد ذلك، تدخّل الرئيس المصري شخصيّاً، وطلب التحدث مع أبو العباس الذي لم يكن له أي تواصل مسبق معه، بالإضافة إلى أن أبو العباس لم يكن معجباً بشخص مبارك، لأنه لم يصل إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع، ولعدم امتلاكه شخصيّة قيادية. ويمكننا القول إنه أصبح «رئيساً بالصدفة»، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لأنه ورث المنصب بعد اغتيال الرئيس أنور السادات في ٦ تشرين الأول عام ١٩٨١. مع كل ذلك، تمكن مبارك من البقاء في منصبه رئيساً لمصر لمدة ٣٠ عاماً، والفضل في ذلك يعود إلى النظام الاستبدادي وشبكة الفساد الهائلة التي صنعتها عائلته وأقرباؤه. كذلك، قال أبو العباس لاحقاً «إن الاستخبارات المصرية مخترقة على نحو كبير من قبل الاستخبارات الأميركية، بموافقة من مبارك شخصياً. إن تصنيف مبارك وفقاً للمعايير القومية متدنٍّ جداً، خاصة في ما يتعلق بمواقفه تجاه الفلسطينيين وولائه الأعمى لاتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة عام ١٩٧٨».

كان مبارك في حديثه مع أبو العباس حازماً ولبقاً في آن واحد، حيث قال له: «أنا أعطيك وعد شرف بأنّ أحداً لن يعترض طريقك. لا تقلق يا أبو العباس... دي مصر!». كان مبارك ـــ كما ذكرت آنفاً ـــ يتوق إلى عودة مصر إلى مسرح السياسة في العالم العربي، بعد أن أقصته جامعة الدول العربية منذ اعتلائه كرسي السلطة قبل أربع سنوات. كان أبو العباس كلما سرد الأحداث التي أوصلته إلى تلك النقطة يبتسم مذهولاً من مدى

سذاجته في ذلك الوقت. لماذا وثق وقتها بمبارك وأخذ وعد الشرف ذاك على محمل الجد؟

القاهرة، ١٠ تشرين الأول ١٩٨٥، الساعة ١٠,٤٥ صباحاً

وافق أبو العباس على عرض مبارك، وصعد على متن طائرة الرئاسة (الخطوط المصرية ٧٣٧) مع رفاقه الأربعة وأبو العز، القيادي في جبهة التحرير الذي كان يثق به كثيراً. صحيح أنّ في الخطوة مقامرة، لكنّ أبو العباس لم يملك أي خيار آخر. كان على متن الطائرة ضابط مصري أرسله مبارك لمرافقة الفلسطينيين. ربَّتَ أبو العباس على ظهرَ الضابط بودّ ومازحه قائلاً: «هل أنت متأكد من أن الرئيس لا يريد التخلص منك؟». لم تلقَ مزحة أبو العباس صدىً مرحاً لدى الضابط الذي كانت تلمع الأوسمة على بزته العسكرية الأنيقة، فأجاب متسائلاً: «لماذا تقول ذلك سيد أبو العباس؟»، فأجاب أبو العباس وهو يكتم ضحكته: «لأنه ربما يجري تفجير جميع من على متن هذه الطائرة أو إغراقهم في أعماق البحر». كان قد اعترف لي بأنه كان يشعر بقوة بأنّ خطباً ما سيقع للطائرة ومن فيها.

طائرات إف ١٤

أقلعت الطائرة في الساعة التاسعة والربع بتوقيت غرينتش في العاشر من شهر تشرين الأول، وكان طاقمها على درجة عالية من اللطف، خاصة الكابتن وإحدى المضيفات التي أصبحت في ما بعد صديقة لأبو العباس،

لأنها على حدٍّ وصفه كانت «شجاعة وذات تأثير». حتى أولئك الذين خاطروا بحياتهم معه، من دون أن يودّوا ذلك، بقي حبهم واحترامهم له في قلوبهم. لكن الطائرة لم تكد تقلع حتى واجهتها أربع طائرات إف ١٤ مجهولة الهوية، أحاطت اثنتان منها بجانبي الطائرة، وحلقت اثنتان خلفها. كان أبو العباس أول من لمحها، وسرعان ما أدرك أنها تابعة للقوات الخاصة الأولى في وحدات الجيش الأميركي لمكافحة الإرهاب، والمعروفة باسم قوات دلتا. كانت تلك الطائرات قد أقلعت من قاعدة ساراتوغا الأميركية على شواطئ ألبانيا. كذلك، كانت طائرتان من نوع أي ـ توسي الذي يُستعمَل للمراقبة الإلكترونية (وهي نموذج مصغر عن طائرات الإواكس) قد أقلعتا في وقت سابق من القاعدة ذاتها، في مهمة تعقب للطائرة المصرية. في ذلك الوقت كان الرئيس ريغان في طريقه من شيكاغو إلى واشنطن، وكان قد أعطى أوامره للقوات الجوية الأولى باعتراض مسار الطائرة المصرية.

اندفع أبو العباس إلى حجرة القيادة وصاح في وجه الكابتن: «إلى أين نحن متجهون؟ أي وجهة يطلبون منك التوجه إليها؟». طبعاً، أبو العباس كان بحوزته مسدسه المحمول على خصره أينما ذهب، وكان الكابتن قد لحظ ذلك. ثم أردف قائلاً: «إن كانوا يأمرونك بالتوجه إلى إسرائيل، فلن أسمح لك بالهبوط هناك! ستُصغي إلى كلامي، لا إلى كلامهم». كان الكابتن يتصبب عرقاً، فهو لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا يحدث، لكنه أجاب بهدوء: «إنهم يطلبون مني التوجه غرباً». وهنا سأل أبو العباس: «هل تستطيع هذه الطائرة عبور الأطلسي؟»، وأجابه الكابتن: «اهدأ. ليس لدينا الوقود الكافي للقيام بذلك. سنحتاج للتوقف في أوروبا أولاً».

بالنسبة إلى أبو العباس، كان ذلك يعني على الأغلب أنهم متجهون إلى إسرائيل، واستنتج أنّ مبارك أجرى ترتيباته مع الأميركيين لاختطاف الطائرة واعتقال الفلسطينيين الموجودين على متنها أو قتلهم. بالفعل، اختُطفت الطائرة حيث اقتادتها الطائرات المرافقة عنوةً إلى قاعدة سيغونيلا العسكرية التابعة للناتو في صِقلية بالقرب من كاتانيا، وذلك في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً بتوقيت غرينتش. وكان بإمكان أبو العباس سماع الأميركيين وهم يوجهون أوامرهم باللغة الإنكليزية لبرج المراقبة، فقد كان صدى الكلمات يتردد في أرجاء الطائرة الرئاسية. كانت تلك الأوامر تقول: «عليكم أن تسمحوا لهذه الطائرة بالهبوط»، لكنّ الإيطاليين أجابوا: «ليس لدينا تصريح للقيام بذلك».

عندها تحولت الأوامر إلى تحذيرات تقول: «نحن قوات دلتا، ونحن نأمركم بالسماح لهذه الطائرة بالهبوط بأمان». وبعد أن هبطت الطائرة واستقرت على المدرج، نظر أبو العباس من نافذة الطائرة ليرى رجال الأمن بكامل سلاحهم وقد طوقوا الطائرة، ومن خلفهم حلقة كاملة من الجنود الأميركيين المدججين بالسلاح. وفي مكان قريب جثمت طائرة سي ١٤١ الأميركية التي أدرك أبو العباس أنها مخصصة لنقل الفلسطينيين إلى الولايات المتحدة.

كان الأميركيون والإيطاليون حلفاء وأعضاء في حلف الناتو، لكن الشرطة العسكرية الإيطالية مع ذلك حالت لثلاث ساعات دون اقتحام الأميركيين الطائرة. وأخيراً، أرسل رئيس الوزراء الإيطالي كراكسي مبعوثاً إلى الطائرة حمل رسالة تقول: «رئيس الوزراء يرغب في التحدث إليك. عليك النزول إلى صالة المطار كي يتكلم معك.» خشيَ أبو العباس أن يكون هذا فخّاً،

لذا أرسل أحد رجاله، وهو أبو العزّ الذي تفاجأ لدى وصوله إلى أسفل درج الطائرة بالجنود الأميركيين وقد اختبأوا تحت الطائرة، وأصابعهم على زناد أسلحتهم. ومع اقتراب أحد الجنود خشي أبو العز على حياته، وأسدى لكمة إلى الجندي، واندفع نحو الدرج ثانيةً ليقول لأبو العباس: «رفيق أبو العباس، لا يمكنك النزول. الجيش الأميركي يملأ المكان».

هنا أرسل أبو العباس، بكل هدوء، كلمة إلى الإيطاليين، قال فيها: «إن برنامج العمل لديّ اليوم لا يتضمن أي لقاء مع رئيس الوزراء كراكسي. أنا آسف. ليس بمقدوري التحدث إليه».

لكن كراكسي لم ييأس، وأرسل إلى أبو العباس هاتفاً يتدلى منه سلك بطول مئات الأقدام، وأجرى من خلاله اتصالاً مع أبو العباس قال فيه: «عليك أن تثق بنا. إنّ ما نقوم به هو لمصلحتك. لن نسمح لأحد بإيذائك. لقد قمنا بتنسيق كل التفاصيل مع عرفات»، ومع ذلك رفض أبو العباس مغادرة الطائرة.

إيطاليا، ١١ تشرين الأول ١٩٨٥، الساعة ٣,٠٠ صباحاً

في الصباح الباكر (بطلب من كراكسي على الأغلب) أعطى الرئيس ريغان أخيراً أوامر لجنوده بالانسحاب، والسماح للإيطاليين باحتجاز الخاطفين الفلسطينيين، بينما بقي أبو العباس وأبو العز والضباط المصريون والطيّار والمضيفة على متن الطائرة. اعتُقل الخاطفون الأربعة وأُبقوا في صِقلية لبضعة أيام، بينما غادر أبو العباس بالطائرة إلى مطار روما العسكري، حيث ترجل الضباط المصريون بطلب من السفير المصري فاروق حسني.

وقد تمت تلك الرحلة تحت مراقبة المقاتلات الجوية الأميركية. وكان من المقرر أن يصل أبو العباس في ١٢ تشرين الأول إلى مطار ليوناردو دافنشي الدولي في روما، ومن ثمّ التوجه إلى يوغوسلافيا على متن طائرة مدنيّة. ومع جاهزية الطائرة المصرية للإقلاع باتجاه مطار ليوناردو دافنشي، أمسك الكابتن جهاز الإرسال وخاطب الأميركيين في برج التحكم قائلاً: «هذه المرة إن لحقتم بي فسوف أطير على ارتفاع منخفض واصطدم بأحد الأبنية الموجودة في روما». وأخيراً وصل أبو العباس إلى مطار بلغراد، وهناك لاحظ وجود حشد من الصحافيين يحملون كاميراتهم وينتظرون عند البوابة. ولدى وصوله إلى القاعة الرئيسية، كان بانتظاره السفير الفلسطيني نمر حمّاد محاطاً بعناصر الأمن اليوغوسلافي. سأل أبو العباس السفير حمّاد: «من الذي كان على متن الطائرة؟ لا بد أنه شخصية مهمة جداً حتى توافد كل ذلك الحشد من الصحافيين لرؤيته». لم يتخيل أبو العباس للحظة واحدة أنه هو من كان نجم الطائرة، وأن الصحافيين توافدوا لرؤية ذلك الرجل الذي أشعل أزمة دولية تدخلت فيها الولايات المتحدة ومصر وإيطاليا وإسرائيل. ابتسم السفير وأجاب: «أبو العباس، أنت لا تعلم أي أزمة دولية قد خلقت؟ دعنا ندخل إلى السيارة وسأشرح لك». عندما وصلا إلى منزل حمّاد، شغّلا المذيّاع ليستمعا إلى التغطية الإعلامية لمغامرة أبو العباس. تسمّر أبو العباس في مكانه صامتاً وعليه ملامح الصدمة من الطريقة التي ضُخِّمَت فيها أحداث بسيطة، وتبيّن لاحقاً أنّ تلك الحادثة قد خيّمت بتداعياتها على السياسات الفلسطينية والعربية، وأضحت عنصراً مؤثراً على الساحة الدولية لسنوات عديدة تلت. أما بالنسبة إلى أبو العباس، فقد كانت نقطة تحول في حياته.

لكن ما الذي حدث في إيطاليا؟ رفضت حكومة كراكسي تسليم

أبو العباس للأميركيين، بحجة أنّ منصبه الرفيع في منظمة التحرير الفلسطينية يمنحه حصانة ديبلوماسية. في ١١ تشرين الأول ١٩٨٥، تعرّفت مارلين كلينغوفر مع ثلاثة من الرهائن الذين كانوا على متن الأكيلي لاورو على الخاطفين الأربعة في مركز الشرطة في صِقلية. وفي ١٦ تشرين الأول، سرّب رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية إيهود باراك، تسجيلات الاتصال المُختَرق الذي جرى بين أبو العباس والخاطفين. وُجِّهَت إلى الخاطفين الأربعة تهم الخطف والقتل وحيازة الأسلحة والمتفجرات على نحو غير قانوني. كذلك وُجِّهَت إلى محمد خلف ومحمد عيسى العباس (أحد أقرباء أبو العباس) اللذين كانا أصلاً رهن الاعتقال، تهمة نقل الأسلحة والمتفجرات من تونس وتسليمها للخاطفين في جنوى، وأُدينا بتاريخ ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٨٥، وحُكم عليهما بالسجن لمدة راوحت ما بين أربع وتسع سنوات. كانت العقوبة الأقسى من نصيب محمد عيسى عباس، الذي حُكم عليه بالسجن لمدة تسع سنوات، لنقله تعليمات من أبو العباس إلى الخاطفين الأربعة.

وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني من العام ذاته، رفعت عائلة كلينغوفر دعويين قضائيتين:

الأولى كانت في المحكمة العليا للولايات المتحدة في مانهاتن، وطالبت بمقاضاة منظمة التحرير الفلسطينية بـ ٥,١ مليار دولار أميركي، والثانية في المحكمة الفدرالية في مانهاتن، ضد شركة شاندريز إيتالي التي تملك أكيلي لاورو، وميناء جنوى، وكذلك شركة أي بي سي كلوب للسياحة، وطالبت فيها بإيقاع أحكام عقابية ودفع تعويضات مالية.

المنقذ بيتينو كراكسي رئيس الوزراء الإيطالي

لا بد أن نَشْهدَ لرئيس الوزراء الإيطالي كراكسي، رفضه تسليم أبو العباس، ووقوفه في وجه الأميركيين. كانت تلك المرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية التي تقف فيها الحكومة الإيطالية موقف التحدي تجاه الولايات المتحدة. وقد ذكرت مصادر أميركية أن كراكسي كان في البداية قد منح ريغان الإذن باعتقال الفلسطينيين، ولكنه تراجع لاحقاً، ربما بضغط من عرفات الذي كانت تربطه علاقة جيدة بإيطاليا. بذل كراكسي خلال فترة توليه منصب رئيس الوزراء (٢٦ شهراً) جهوداً كبيرة في توطيد العلاقات مع العالم العربي، وكانت وسيلته الرئيسية في ذلك هي دعم منظمة التحرير الفلسطينية. وقال كراكسي لاحقاً إنه أعطى أوامره للإيطاليين بتطويق الطائرة لحمايتها من الأميركيين. ويفترض أن تكون هذه الخطوة قد اتُّخذت لاعتبارات تخص أعراف الديبلوماسية الإيطالية تجاه العالم العربي، ولاعتبارات أمنية تتعلق باحتمال استهداف إرهابيين إيطاليا في حال تمكين الحكومة الإيطالية الأميركيين من اعتقال ركاب الطائرة.

وبالرغم من مطالبة الأميركيين السلطات الإيطالية بتسليم أبو العباس، إلا أن كراكسي تشبث بقوة بفكرة أن الجريمة وقعت على متن سفينة إيطالية تُعدّ جزءاً من الأراضي الإيطالية، وبالتالي وفقاً لجدلية كراكسي، فإن جمهورية إيطاليا هي السلطة القضائية الوحيدة المعنيّة بالقضية. كان كراكسي هو من مكّن أبو العباس من الرحيل بسلام والتوجه إلى يوغوسلافيا، وهذه الحادثة قدمت كراكسي على أنه «رجل أوروبا القوي» في مقال نشرته مجلة الإيكونوميست، ومنحته حفاوة بالغة وسط مجلس الوزراء الإيطالي. كان

من الواضح أن ريغان اتصل بكراكسي خلال العملية، لا قبلها، لإعلامه بأنّ الولايات المتحدة اتخذت قراراً بهبوط الطائرة في سيغونيللا، واعتقال من فيها. كلمات ريغان بدت حينها أوامر، وليست مشاورة، لكن كراكسي رفض الأمر بحجة أنّ هذا الهبوط غير القانوني يُعَدّ خرقاً للاتفاق الأميركي الإيطالي الناظم لاستخدام قاعدة الناتو هذه. دفع كراكسي ثمن موقفه، فقد كلّفه وقوفه في وجه الولايات المتحدة إسقاط حكومته في ١٨ تشرين الأول، أي بعد ثمانية أيام فقط، إثر قيام وزير دفاعه جيوفاني سباندوليني بسحب حزبه الجمهوري من حكومة التحالف بسبب عملية الأكيلي لاورو. استمر كراكسي في إدارة حكومة تصريف أعمال حتى فاز في النهاية بموافقة البرلمان في ٨ تشرين الثاني ١٩٨٥ على تشكيل حكومة جديدة. أما الأمر المثير للسخرية، فهو أنّ حكومة كراكسي ذاتها، التي بذلت كل جهدها لاسترضاء منظمة التحرير الفلسطينية والحكومات العربية خلال معالجتها لقضية الأكيلي لاورو، واجهت تفجيراً فلسطينياً على أراضيها في ٢٧ كانون الأول ١٩٨٥، وذلك عندما هاجمت مجموعة تابعة لأبي نضال، المعارضة الشرسة لكل من أبو عمار وأبو العباس، مكاتب الخطوط الجوية الإسرائيلية «إلعال» في كل من مطاري روما وفيينا، ما أدى إلى مقتل ١٨ مسافراً وجرح ٦٠ آخرين. كان أبو العباس على النقيض تماماً من أبو نضال، فهو لم يتقبّل الإرهاب ولا الهجمات المسلحة التي تستهدف المدنيين، لأنه كان يعلم تماماً أنّ مثل هذا العنف قد أساء كثيراً إلى بلده وقضيته.

الفصل الرابع

أبو العباس ثائر من أجل القضية

طيرة حيفا، الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، فلسطين ١٩٤٨

«احزمي ما يمكن حمله من أمتعة، لن تطول فترة غيابنا». هذا ما قاله أبو إسماعيل العباس لزوجته الشابة لطيفة. كان قد طُلِبَ من الفلسطينيين حينها مغادرة منازلهم والإقامة في سورية والأردن لفترة يفترض أنها لن تطول.

امتثلت لطيفة التي كانت أمّاً لطفلين وحاملاً بابنها الثالث محمد (أبو العباس) للأمر، ومثل آلاف النساء الفلسطينيات حزمت بعض الحاجيات، منفّذة تعليمات زوجها. حملوا معهم أوراق ملكية أرضهم وهوياتهم

ومفاتيح منازلهم في فلسطين. «سنعود خلال بضعة أسابيع»، هكذا كانوا يظنون، وهذا ما قالته الإذاعات العربية. حتى إن بعض العائلات الفلسطينية تركت جهاز الراديو مفتوحاً ظنّاً منها أن العودة ستكون خلال بضع ساعات فقط. أعلن الصهاينة في ١٤ أيار من عام ١٩٤٨ تأسيس دولة إسرائيل. كانت حرب الـ ٤٨ الفلسطينية على وشك أن تندلع، وقُدر للفلسطينيين بعد ٤٠٠ عام من حالة الاستقرار تحت حكم الأتراك العثمانيين، و٣٠ عاماً تحت وطأة الانتداب البريطاني، أن يشهدوا فجأة اضطراباً عنيفاً لا مثيل له في تاريخهم الحديث.

كان أبو إسماعيل يعيش مع عائلته الصغيرة في قرية طيرة حيفا، قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشمالي لفلسطين، وكان مثل جميع ساكني القرى يمتلك مزرعة صغيرة مليئة بأشجار الزيتون والليمون وغيرها من أنواع الفاكهة التي تشتهر بها بيارات فلسطين. كان معظم سكان القرية، ومنهم أبو إسماعيل، يعتمدون على دخلهم البسيط، لكنهم كانوا يعيشون حياة شريفة وكريمة.

أكّد أبو إسماعيل لزوجته لطيفة أنّ الأمر «لن يستغرق طويلاً حتى تقوم الجيوش العربية الباسلة بدحر الميليشيات الصهيونية وطردها من فلسطين. وعندها سنعود إلى طيرة حيفا». كان هذا ما وعدتهم به جامعة الدول العربية، وردده القادة العرب على اختلاف مشاربهم وألوانهم. قبل بضع سنوات قام هؤلاء القادة ذاتهم بتحرير سورية ولبنان من الانتداب الفرنسي، وتحرير العراق من الانتداب البريطاني، ومن المؤكد أنهم لن يخذلوا فلسطين. صدّق أبو إسماعيل، ذلك الرجل البسيط والعنيد والشجاع في الوقت ذاته،

ما سمعه من المذياع عن استعداد الجيوش العربية لرمي اليهود «في البحر».

وكان أهالي طيرة حيفا معروفين في فلسطين بشراستهم كمحاربين، وأنهم قد يقاتلون أي شيء يقف في وجههم «حتى لو كان البحر نفسه». لم يدرك أبو إسماعيل أنه خلال بضعة أسابيع سيترك نحو ٧٦٠,٠٠٠ من الفلسطينيين بيوتهم، أو سيُطردون منها على أيدي الإسرائيليين الذين كان من المفترض أن يكونوا على قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة.

نكبة عام ١٩٤٨

نتذكر نحن في العالم العربي ونشير إلى حرب عام ١٩٤٨ باسم النكبة، وهو المصطلح الذي أطلقه رئيس الجامعة الأميركية في بيروت الدكتور قسطنطين زريق أحد فلاسفة القومية العربية الحديثة. أما بالعبرية، فقد سمّاها الإسرائيليون «ملخميت هأتزمأوف»، أي حرب الاستقلال. صفحات التاريخ امتلأت، بالطبع، وفاضت بذكر النكبة من خلال المثقفين الفلسطينيين، لكن الظلم والقهر اللذين لحقا بالفلسطينيين لا يمكن إيفاؤهما الحق من الوصف، لأنهما وَلّدا الوعي السياسي لدى أجيال كاملة من الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨ وحتى اليوم، بمن فيهم أنا وأبو العباس. لقد نشأنا وكبرنا ونحن نسمع قصصاً مروعة عمّا حدث لبلدنا الحبيب، وسلّمنا بكل أمانة أبناءنا وأحفادنا الحقائق المحفورة في أذهاننا وتفاصيل دقيقة عن نكبة عام ١٩٤٨ كما رواها لنا آباؤنا وأجدادنا تماماً.

تبنّت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أواخر تشرين الثاني لعام ١٩٤٧ قراراً يوصي بتقسيم فلسطين، وذلك بناءً على القرار ١٨١ الصادر عن

الجمعية العمومية ذاتها. ووفقاً لذلك القرار يُمنَح الفلسطينيون العرب مقاطعة محصورة في يافا ويحصل اليهود على ٥٦ في المئة من الأراضي الفلسطينية. كما هو معروف، رفضت الجامعة العربية قرار التقسيم، وأعطت أوامرها للجيوش العربية بالتوجه إلى فلسطين في الخامس عشر من شهر أيار. كانت جدلية الجامعة العربية تقول: «وفقاً للمادة ٧٣ ب من ميثاق الأمم المتحدة، يتوجب على الأمم المتحدة إعطاء حكم ذاتي للشعوب ضمن أراضيها ويكون تحت إدارتها». تفاوتت أعداد الجيوش المرسلة من الدول العربية للانخراط في القتال ما بين ١٠,٠٠٠ من الجيش المصري و١,٠٠٠ من الجيش اللبناني، وانضمت وحدات من سورية والعراق، بالإضافة إلى جيش عربي تطوُعي عُرف باسم جيش الإنقاذ بقيادة ابن طرابلس فوزي القاوقجي، وكان يضمّ في صفوفه مقاتلين من اليمن والسعودية وسورية. وانضم إليهم بالطبع الفدائيون الفلسطينيون تحت قيادة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وقيادة عسكرية ترأسها القائد الفلسطيني الأسطوري عبد القادر الحسيني رحمه الله.

أعلنت الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ أيار أول هدنة في فلسطين تبدأ بتاريخ ١١ حزيران وتستمر ٢٨ يوماً، وعُهد بمراقبة عملية وقف إطلاق النار إلى وسيط الأمم المتحدة الكونت فولك بيرنادوت، الذي اغتالته في نهاية الأمر عصابة شتيرن، وهي ميليشيا إسرائيلية كان يقودها إسحاق شامير، الذي أصبح لاحقاً رئيس وزراء إسرائيل. وكان تفويض الأمم المتحدة لبيرنادوت (الذي قامت الجمعية العمومية بشطبه) يقضي بـ«ضمان سلامة الأماكن المقدسة وحماية مصالح السكان والتوصّل إلى تسوية سلمية لوضع فلسطين المستقبلي».

انهارت الهدنة الأولى سريعاً، لأن أيّاً من الطرفين العربي أو الإسرائيلي لم يرغب في احترامها، بل استُغلَّت لتدعيم القوة القتالية لكلا الطرفين، ويُعدُّ هذا بحد ذاته خرقاً لوقف إطلاق النار. حصلت قوات الدفاع الإسرائيلية حديثة العهد خلال فترة الهدنة على أسلحة من تشيكوسلوفاكيا، ورفعت تعدادها القتالي من ٣٠,٠٠٠ إلى ٦٥,٠٠٠ جندي. وللمفارقة الساخرة، أنّه بعد ١٦ عاماً تدرب أبو العباس مع شبانه على تلك الأسلحة التشيكية ذاتها التي استُخدمت في تدمير منزل عائلته عام ١٩٤٨، وتمكنّ الجيش الإسرائيلي خلال فترة الهدنة من زيادة عتاده القتالي إلى أكثر من ٢٥,٠٠٠ بندقية و٥,٠٠٠ مدفع رشاش وأكثر من ٥٠ مليون طلقة. وفي النهاية انهارت الهدنة لدى احتلال الجيش الإسرائيلي مدينتي رام الله واللد الفلسطينيتين وتهجير نحو ٦٠,٠٠٠ فلسطيني من منازلهم. كانت مدينة رام الله موقعاً حيوياً بالنسبة إلى إسرائيل، وذلك لقربها من الخطوط القتالية مع الجيش المصري، بينما كانت اللد على وشك السقوط بيد الجيش الأردني الذي كان قد تمكن من الاستيلاء على مركز الشرطة فيها. احتلت إسرائيل بتاريخ ١٦ تموز ١٩٤٨ مدينة الناصرة، وبحلول الهدنة الثانية في مساء ١٨ تموز، كانت إسرائيل قد استولت على القسم الأدنى من الجليل بأكمله، بدءاً من خليج حيفا، ووصولاً إلى شواطئ الجليل.

وفي أواخر شهر تشرين الأول، احتل الجيش الإسرائيلي القسم الأعلى من الجليل بأكمله، الذي كان من حصة العرب وفقاً لخطة التقسيم التي وضعتها الأمم المتحدة. وبحلول الثلاثين من الشهر ذاته استولت إسرائيل على كامل الجليل، وتقدمت ٨ كيلومترات داخل لبنان، مجبرة الجيش اللبناني على التراجع باتجاه نهر الليطاني. وتمكنت بحلول ٢٢ كانون الأول من طرد

القوات المصرية خارج فلسطين، لتؤمِّن بذلك كامل منطقة النقب، ولترغم الملك فاروق على الموافقة على وقف لإطلاق النار في ٢٤ شباط ١٩٤٩. وأُوقف إطلاق النار على جبهة لبنان في ٢٣ آذار، والأردن في ٣ نيسان، وسورية في ٢٠ تموز، ومُنحت إسرائيل تفويضاً على ٧٨ في المئة من الأراضي الفلسطينية، أي أكثر بـ ١٨ في المئة مما قدمته خطة الأمم المتحدة التقسيمية لليهود. وأُعطي قطاع غزة لمصر، والضفة الغربية للأردن، ولا شيء عملياً للشعب الفلسطيني الأبيّ الذي تحول إلى لاجئين يعانون العوز والألم والفقر.

أقرت الأمم المتحدة حق العودة للاجئين الفلسطينيين في قرارها رقم ١٩٤ الصادر في كانون الأول لعام ١٩٤٨، إلا أن القرار لم يجد طريقه إلى التنفيذ، بل بين عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ أُرغم ١,٨ مليون فلسطيني، أي ٨٥ في المئة من سكان فلسطين الأصليين على ترك منازلهم والنزوح إلى غزة والضفة الغربية، بينما نزح ١٥ في المئة إلى سورية ولبنان والأردن، وهناك أسسوا ما يسمى مخيمات اللاجئين التي سرعان ما انتشرت كالفطر ليصل عددها إلى ٥٨ مخيماً، أقيمت عشرة منها بعد حرب ١٩٦٧. لم يُمنح الفلسطينيون في الدول المضيفة مثل لبنان حق المواطنة، وذلك لأنّ احتواء الفلسطينيين قد يؤثر في التوازن الطائفي الحساس فيها. كانت معظم العائلات الفلسطينية التي قصدت سورية قد انحدرت من صفد وحيفا ويافا، ومنها عائلة زوجي، التي انتقلت في البداية إلى لبنان، ومنها إلى عفرين، حيث استقرت في تلك البلدة الكردية الواقعة شمالي سورية بالقرب من الحدود التركية، والتي تبعد ١,٠٠٠ كم عن طيرة حيفا.

ولد أبو العباس في مخيم للاجئين الفلسطينيين في كانون الأول عام ١٩٤٨،

أي بعد سبعة أشهر من احتلال فلسطين. كان والده أبو إسماعيل ووالدته لطيفة قد أيقنا حينها أنّ هذا المخيم سيكون بيتهم الجديد، وأنهم لن يعودوا إلى طيرة حيفا في وقت قريب. وفي عام ١٩٥١ اتجهوا شرقاً إلى مخيم النيرب بالقرب من مدينة حلب الصناعية شمالي سورية. عندما بلغ أبو العباس الحادية عشرة من عمره توفيت والدته بسبب المرض، ولم يتزوج والده بعدها.

كان أبو العباس يستذكر وفاتها قائلاً: «توفيت على الأغلب بسبب الأوضاع الصحية والطبية المتردية في المخيم». كان لوفاتها وقع مؤلم في نفسه أثناء طفولته، ذلك الألم الذي استمر يعذبه حتى عندما أصبح بالغاً، فقد كان يقول: «كانت أمي هي وطني، لم يكن هناك فرق بينهما أبداً. من الصعب جداً أن تخسر الأم والوطن وتقضي حياتك كلها في البحث عنهما». رأى أبو العباس في موت أمه مظهراً آخر من مظاهر عجزه وضياعه، ودفعه كل ذلك إلى ترك عائلته والاعتماد على نفسه، والقيام بما هو أكبر من عمره بكثير. لم يكن أبو العباس يمتلك سوى صورة وحيدة بالأبيض والأسود لوالدته لطيفة العباس، وكان الزمن عاملاً في تآكل حوافّ تلك الصورة التي بدت فيها تلك الأم مثل أي سيدة من الريف الفلسطيني: شاحبة وبائسة ولكن مليئة بالفخر. حمل أبو العباس تلك الصورة الوحيدة معه من المخيمات الفلسطينية في سورية ولبنان إلى تونس، وبعدها إلى العراق، وحرصَ على حمايتها أثناء الحرب الأهلية في لبنان، والحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات من القرن العشرين. لكنّ هذه الصورة أيضاً لم تسلم من يد الجيش الأميركي الذي اقتحم منزلنا في بغداد وصادر كل ما فيه في نيسان عام ٢٠٠٣.

النيرب، قرب حلب، سورية، ١٩٥١

كان النيرب أكبر مخيم رسمي تديره وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة (أونروا)، وقد أُنشئ عام ١٩٥٠، أي بعد عامين من احتلال فلسطين. ويقع المخيم على بعد ١٣ كم شرق مدينة حلب بالقرب من مطارها الحالي، ويمتد على مساحة ٤٠ دونماً تحيط بها وتتوسطها براكيات عسكرية استخدمها الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. وجدت عائلة العباس في إحدى تلك البراكيات مأوى لها.

وروى أبو العباس في ما بعد أن العائلة «قسّمتها الى غرف باستخدام الشراشف، التي استعضنا عنها لاحقاً بألواح خشبية وقرميد لتنعم العائلات الأخذة بالتزايد ببعض الخصوصية. كان معظم الشبّان يعملون عمالاً مياومين أو باعة جوالين. أنا عملت في طفولتي في طلاء الأسوار والجدران مقابل مبالغ ضئيلة من المال. كانت تلك البراكيات تغلي تحت درجات الحرارة المرتفعة في الصيف، بينما كانت تتحول في شتاء سورية القارس إلى جليد نتيجة سوء أسسها البنائية. وفضلاً عن ذلك، كان تسرب المياه وانتشار القوارض مشكلة دائمة بالنسبة إلى اللاجئين. لا يمكن أن أنسى أبداً تلك المعاناة القاسية التي مرّت علينا خلال أيام الشتاء تلك. أما الشوارع القذرة والمليئة بالغبار، والتي لا يتعدى عرض معظمها المسافة بين ذراعي طفل ممدودتين، فكانت المكان الوحيد للعب الأولاد». عندما أصبح أبو العباس في الخامسة من عمره، انضم إلى صفوف الطلاب في مدارس الأونروا داخل مخيم النيرب.

مخيم اليرموك، دمشق، ١٩٦٢

عندما بلغ أبو العباس الرابعة عشرة من عمره، انتقل مع عائلته إلى دمشق، حيث وجدوا مكاناً لهم في مخيم اليرموك الواقع في الجهة الجنوبية من المدينة والمعروف بعاصمة الشتات الفلسطيني. لم يكن مخيم اليرموك الذي يُعَدّ اليوم أكبر مخيم في سورية، أفضل بكثير من مخيم النيرب، على الرغم من أنّ دمشق كانت بالتأكيد مدينة جذّابة بالنسبة إلى شاب في الرابعة عشرة من عمره. كانت منطقة اليرموك التي تبعد فقط ٨ كم عن مركز المدينة تشبه بأبنيتها الحجرية المبنيّة عام ١٩٥٧ الحيّ المتحضر لمدينة عربية تقليدية. ويستذكر أبو العباس ذلك المكان قائلاً: «كان اللاجئون في مخيم اليرموك من طبقة اجتماعية أرقى من تلك في النيرب، فمعظمهم كانوا أطباء ومهندسين وموظفي دولة. وكانت دمشق في ذلك الوقت زاهرة بالمفاتن المغرية لأي شاب قادر على التمتع بها مثل دور السينما والمقاهي والمطاعم التي لم يكن باستطاعتي الاقتراب منها، لأن والدي كان عاجزاً تماماً عن تأمين حياة مريحة لأولاده».

إلا أنّ التعليم كان مجانيّاً في سورية، وبالتالي تمكّن أبو العباس من الانتساب إلى ثانوية الكواكبي العامة وحصل على شهادة الثانوية العامة، ليدخل بعدها دار المعلمين التي كانت معهداً يتدرّب فيه الطلاب ليصبحوا معلمي مدرسة لصفوف المرحلتين الابتدائية والإعدادية. وكجميع طلاب ذلك المعهد، كان أبو العباس يحضُر المحاضرات، ويذهب في زيارات للثانويات القريبة للحصول على خبرة في التدريس. لكنه عمل في الوقت نفسه في مهن غريبة جداً كي يعين والده على إعالة العائلة. فقد عمل في تنفيذ مهمات لدى

أصحاب المحلات التجارية، وقام بطلاء الجدران الإسمنتية التي تعلوها ألواح زجاجية، والتي تحيط بفناء منازل الأغنياء، وقام برعاية الأطفال أيضاً ، وما إلى ذلك من تسخير نفسه مقابل الحصول على بعض المال. ولم تغب فلسطين عن ذهن أبو العباس أثناء حضوره الحصص الدراسية أو قيامه بأعمال وضيعة. كذلك أدرك أبو العباس الذي عانى الفقر في مخيم اليرموك أنه بحاجة لعمل يخدم اهتماماته السياسية.

كانت المهن الغريبة التي عمل بها وسيلة مؤقتة لكسب لقمة العيش، وشيئاً فشيئاً ترسّخ في ذهنه اليافع أنّ النشاط السياسي لمصلحة فلسطين لا بد أن يعتمد على ممارسة مهنة التدريس.

ثورة أساتذة المدارس

دمشق، ٨ آذار، ١٩٦٣، ثورة الثامن من آذار

كان للانقلاب العسكري الذي حدث في سورية نتائجه في وصول العديد من الجنرالات إلى سدّة الحكم في دمشق، ومعهم اثنان من أساتذة المدارس، هما ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، فقد تسلّم هذا الأخير منصب رئيس الوزراء، بينما تمسك عفلق بمنصبه أميناً عاماً لحزب البعث الحاكم. كان عفلق والبيطار يمثلان شريحة المثقفين من متخرجي الجامعات الملهمين للعائلات السورية الريفية الفقيرة البعيدة عن ثراء المدينة. حصد أساتذة المدارس جلّ الوظائف الحكومية بعد ثورة آذار، وارتقوا لتسلّم حقائب وزارية وإدارة الشركات الحكومية. أثار أشخاص من أمثال عفلق والبيطار في ذهن أبو العباس فكرة أنّ المدرّس يمتلك القدرة على تطوير أيديولوجية

أو منظمة يمكنه الاستفادة منها في إحداث التغيير. المثال الأبرز كان على وجه الخصوص عفلق المسيحي البارع في إلقاء الخطب الحماسية التي كان من شأنها حشد جماهير دمشق ذات الغالبية الإسلامية. لقد تمكن عفلق بقامته القصيرة من تجاوز خلفيته ومواطن ضعفه ليصنع التاريخ.

طور أبو العباس وعيه السياسي خلال سنتين أمضاهما داخل مخيم اليرموك، والتحق بمنظمة التحرير الفلسطينية في عمر السادسة عشرة عام ١٩٦٤، أي بعد تأسيسها بفترة قصيرة، وكان أحد أصغر أعضائها. حافظ أبو العباس على ولائه لمنظمة التحرير الفلسطينية على مدى أربعين عاماً حتى وفاته عام ٢٠٠٤. كانت المنظمة في الحقيقة بمثابة مظلة ينضوي تحتها أعضاء ينتمي كل منهم إلى فصيل من الفصائل الفلسطينية التي تدين بالولاء للمنظمة الأم، وتتلقى التمويل منها.

جامعة دمشق، ١٩٦٥

التحق أبو العباس بجامعة دمشق ـــ قسم اللغة العربية، وهو في عمر السابعة عشرة، وتابع تركيزه على التعليم كمهنة. كان التعليم مهنة محترمة في العالم العربي، إضافة إلى أنها تحقق للشاب ارتقاءً عن الأعمال البسيطة والأشغال التي تتطلب قوة بدنيّة، وتحافظ على اتقاد فكره وتكسبه في الوقت ذاته دخلاً جيداً وثابتاً. التعليم كان مهنة واعدة جداً بالنسبة إلى شاب يتوق إلى ولوج عالم السياسة، فبعيداً عن أيّ دعم قد تقدمه هذه المهنة في مجال احتراف السياسة في المستقبل، كانت تعد بمنح أبو العباس ذلك الارتقاء المهني والاجتماعي الذي كان في أشد الحاجة إليه ليتقدم في

حياته. كانت قيمة التعلّم وأهمية المتعلّمين حقيقة لدى الفلسطينيين الذين كانوا قد حُرموا كل شيء على وجه البسيطة بعد عام ١٩٤٨، ذلك التاريخ الذي أفقدهم أموالهم وممتلكاتهم، وأقصاهم حتى عن أي مكانة اجتماعية، فلم يعد لديهم سوى العلم الذي أدركوا أن فيه خلاصهم. بالنسبة إلى أبو العباس، كان التحصيل العلمي أولى مهماته في صراعه مع الحياة لتحسين معيشته ورعاية عائلته ومساعدة قضيته.

أتاحت له السنوات التي قضاها أبو العباس في الجامعة فرصة للتبادل الفكري وسط مجموعة متشابهة العقليات. في الحرم الجامعي جلس مع الكثير من الطلاب من كل الأنماط، وكان الأقرب إليه زملاؤه من الفلسطينيين الذين ترعرعوا في المخيمات وشاركوه مرارة آلام نكبة ١٩٤٨. كان الحرم الجامعي بحدّ ذاته يخضع لرقابة أمنية مشددة، لكنّ أبو العباس وأصدقاءه الفلسطينيين كانوا يذهبون في المساء بعد انتهاء المحاضرات إلى مناطق في أطراف العاصمة السورية لعقد لقاءات داخل غرف، كانوا يعتبرونها مقرّاً للحركة السرّية الفلسطينية. كان أبو العباس ورفاقه يقوّمون أحداث ١٩٤٨ والسنوات التي تلتها، ويحللون تقارير تتناول الظلم والقهر الجاري في وقتهم، ويسردون حكايات الفدائيين الذين نفذوا غارات داخل فلسطين. كانت ردود أفعالهم على ما يحدث في وطنهم تتجلى في إلقاء أشعار ملتهبة، ووضع استراتيجيات عسكرية لتحرير فلسطين. وطبعاً لم تغادر معظم تلك المخططات ألواح الرسم التي خُطَّت عليها.

على الرغم من أنّ أبو العباس أخبرني أنه تلقى تدريباً عسكرياً على الأسلحة التشيكية لدى انضمامه إلى منظمة التحرير الفلسطينية، إلا أنه ورفاقه الشبّان

كانوا غير مسلحين، ولم تكن لديهم أيّ مصادر للحصول على السلاح، فهم كانوا غير منخرطين تماماً في المنظمة، ولم يكن لديهم قنوات داخلها. كانوا مجرد فتيان منحدرين من المخيمات، أولاد فقراء يملأهم الغضب والنزق ويجتاحهم شعور بالقدرة على تحقيق كل شيء، ويحلمون أحلاماً كبيرة ويعتريهم طموح لا حدود له، وكانت في هذه المرحلة بدايات العمل العسكري الفلسطيني.

أمضى أبو العباس ورفاقه الكثير من وقتهم في تلك الغرف المليئة بدخان سجائرهم، لكن السؤال الوحيد الذي كان دوماً يدور في خلدهم هو: مَن سيقودهم؟ عندما يتعلق الأمر بموضوع القيادة، من يا ترى يمكن أن يكون موضع ثقة الشباب الفلسطيني؟ كان الرئيس المصري الشاب جمال عبد الناصر بارقة أمل مبكرة للفلسطينيين المشتّتين في المنطقة، خاصة أنه عاصر نكبة ١٩٤٨ من دون أن تتلطخ يداه بتلك الهزيمة، لأنه لم يكن يبلغ حينها سوى الثلاثين من العمر. لكن بعد أربع سنوات، وتحديداً في تموز ١٩٥٢، قاد عبد الناصر انقلاباً عسكرياً أسقط فيه حكم الملك فاروق. وعد عبد الناصر بتصحيح الأخطاء والظلم المرتكب بحق العرب والفلسطينيين خلال حرب ١٩٤٨ وما بعدها، ولقيت هذه الوعود أذناً صاغية من الفلسطينيين وإيماناً تاماً بها.

لكن الشك تسرب إلى نفوس الفلسطينيين بعد ثلاث سنوات فقط. ففي شباط عام ١٩٥٥ قُتل مدني إسرائيلي على يد أحد المتسللين العرب، ورداً على ذلك شنّت إسرائيل عملية السهم الأسود التي قامت فيها بإنزال ١٥٠ مظلّياً داخل أراضي غزة التي تقع تحت سيطرة المصريين، وهاجمت قاعدة

للجيش المصري ونصبت كميناً لقافلة مصرية، ما أودى بحياة ٤٠ جندياً مصرياً تقريباً. أعلنت إسرائيل العملية انتصاراً عسكرياً لها، فيما عدّتها مصر إهانة علنيّة. أما مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، فقد دان العملية. ولكن ماذا كان ردّ فعل الأنظمة العربية؟ طبعاً، دانت الجامعة العربية ذلك العمل، وعمد الرئيس عبد الناصر إلى إغلاق خليج العقبة في وجه السفن والطائرات الإسرائيلية. هذا كل شيء.

كان عقم السلاح العربي وإمكانات القادة العرب الوطنيين ومدى إخلاصهم موضع تساؤل لدى أبو العباس، طالب السنة الجامعية الأولى المفعم بالكبرياء. وعزز الشكوك لدى أبو العباس عدم اتخاذ خطوة واحدة لاستعادة فلسطين خلال السنوات التي امتدت منذ النكبة إلى وقوع الغارات التي شنّها شارون عام ١٩٥٥. في عام ١٩٦٧، أي بعد مرور اثني عشر عاماً، وعندما كان أبو العباس ذو التسعة عشر ربيعاً في أولى سنواته الدراسية في الجامعة، وقعت حرب الأيام الستة مع إسرائيل. سحقت تلك الحرب كل أحلامه، وانهارت معها كل الوعود بالنصر. عندها أدرك أبو العباس ورفاقه من أبناء جلدته أنّ عبد الناصر كان بدوره عاجزاً أمام السلاح الإسرائيلي، واستنتجوا أن «تحرير فلسطين لن يكون إلا بأيدي الفلسطينيين أنفسهم».

من يصلح نموذجاً للقيادة أيضاً؟ كان هنالك اثنان من الفلسطينيين يصغران عبد الناصر بعشر سنوات، ومن جيل يسبق مباشرة جيل أبو العباس ورفاقه. كانا ينتميان إلى الجيل الذي شهد مأساة النزوح عام ١٩٤٨ وامتلأت ذاكرتهما الأولية بما شاهداه مباشرة بأمّ أعينهما كيافعين متأججَي الإحساس، خلافاً للجيل اللاحق الذي يحمل في ذاكرته الأولية صور

المنفى وحكايات سمعها من أهله وأجداده. هؤلاء هم من ابتدعوا خلال السنوات التالية الأفكار، وأسسوا تنظيمات المقاومة في الجامعة الأميركية في بيروت. إنهما الدكتور وديع حداد والدكتور جورج حبش.

كان وديع حداد (أبو هاني) أسطورة فلسطينية من مدينة صفد الشمالية، وكانت عائلته قد انتقلت إلى بيروت إثر تدمير منزلها خلال نكبة ١٩٤٨. في لبنان درس أبو هاني الطب في الجامعة الأميركية، وفيها تعرّف إلى زميل فلسطيني لاجئ من عمره وطالب في كلية الطب أيضاً، وكان هذا الأخير هو الحكيم جورج حبش. كذلك التقى بالمؤرخ العربي الدكتور قسطنطين زريق، الذي يكبره في العمر، وهو من مواليد مدينة دمشق. كانوا جميعهم من المسيحيين، لكنّ التوجه السياسي في تلك الأيام كان يتجاوز الانتماء الديني. ومع مرور السنوات العشر التالية للنكبة، أصبحت أفكار القومية العربية التي انبعثت من داخل الجامعة الأميركية في بيروت وحولها محط التركيز.

في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، التقت مجموعة من الطلاب المتحدين فكريّاً، لا رسمياً، حول هدف محدد، هو توحيد العالم العربي وتحرير فلسطين. وفي عام ١٩٥٨، أي بعد عشر سنوات من النكبة، أطلق حداد وحبش اسماً على مجموعتهما، وصنعا بذلك ما هو أكثر من الخطابات. لقد أسّسا تنظيماً سمّياه حركة القوميين العرب. وبعد مرور عقد من الزمن، ومع خيبة أمل حرب الأيام الستة، أضافا إلى تنظيمهما اثنتين من المجموعات: أبطال العودة وجبهة التحرير الفلسطينية التابعة لأحمد جبريل. وفي ١١ كانون الأول من عام ١٩٦٧ أعلنا تشكيل

منظمة تنضوي تحتها جميع التنظيمات الأخرى، وسمّيت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت هذه المنظمة ترى في نفسها حليفاً لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي السنوات التي تلت، أصبح مقر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الرئيسي في دمشق، وبدأت بتدريب المغاوير في قواعد عدة مثل السّلط في الأردن. وكان أبو العباس قد انضم إلى الجبهة عام ١٩٦٧، وفقاً لما ذكرته مصادر عديدة.

في عام ١٩٦٨ كان أبو العباس قد شارف على التخرج من جامعة دمشق، وكان هو ومن معه من رفاقه قد حددوا موقفهم، وقد أشبعتهم مرارة النكبة والذلّ الساحق لحرب عام ١٩٦٧. لقد خذلتهم الجيوش العربية، وكانت الحكومات العربية بنظرهم عقيمة وفاسدة وخانعة. وأدركوا أنهم إذا انتظروا القادة الوطنيين العرب ليحرروا فلسطين، فلا بد أنهم سينتظرون إلى ما لا نهاية. تأثر أبو العباس ورفاقه بالتنوير الذي حملته أفكار قسطنطين زريق، واستمدوا الإلهام من أعمال الرفاق الفلسطينيين من أمثال وديع حداد وجورج حبش، وهذا ما دفعهم إلى التوجه أكثر نحو الوطن للبحث عن حلول. كان حداد وحبش مقيمين في بيروت، وليس في دمشق، وكانا أكبر بنحو عشرين عاماً من أبو العباس وزملائه. ومن الممكن أن يكون أبو العباس قد انضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة بعد عدة أشهر من تأسيسها في عام ١٩٦٨، وفق ما ذكرته بعض المصادر، وكان حينها لا يزال طالباً في الجامعة، وربما وجد فيها تركيزاً على الفعل أكثر من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

على الرغم من فارق السنّ بين أبو العباس وكل من حداد وحبش، إلا أنهما

كانا أقرب إليه بكثير من الرؤساء العرب ذوي الميول القومية، لأنهما أقنعا الشباب الفلسطينيين أمثال أبو العباس بأنهم قادرون على تطوير قيادات من داخل صفوفهم، وأن بإمكانهم تأسيس منظمات قادرة، ولو نظرياً على الأقل، على القيام بأفعال.

دمشق، حي الميدان، أيلول ١٩٦٨

حصل أبو العباس بعد تخرجه من جامعة دمشق بدرجة ليسانس في الأدب العربي على عمل في مدرسة العربي في حيّ الميدان بدمشق، وهو حيّ محافظ في الجهة الغربية من المدينة. وهكذا أدرك حلمه في عالم التدريس، وأصبح قادراً على إعالة نفسه مادياً والارتقاء نحو تحقيق التميّز والمكانة الاجتماعية، لأنه لم يعد الآن لاجئاً يعيش على هامش المجتمع. لقد بات بإمكانه قضاء الوقت في قراءة قصائد شعرائه العرب المفضلين بصوت عالٍ وتقاضي المال لقاء هذه المتعة.

لكنّ أبو العباس لم يكن شغوفاً بالتدريس شغفه بالشعر، إذ سرعان ما أدرك أنه لم يُخلَق ليمضي حياته بين الطلاب والحصص الدراسية. وخلافاً للمدرسين، لم يُمضِ أوقاته المسائية أو عطلته الأسبوعية في إعطاء الدروس الخصوصية أو تصحيح أوراق الامتحانات، أو تحضير الدروس للطلاب، وكان دوماً يتأخر عن حصصه الدراسية، ويدخل على طلابه بثياب مُجعدة والهالات السوداء تحيط بعينيه من كثرة التدخين والسهر. كان أبو العباس يقضي مع أصدقائه الفلسطينيين ليالي بطولها في مناقشة الأمور السياسية وشتم ضعف العرب.

في أحد الأيام رفع مدير المدرسة شكوى إلى مديرية التربية ضد أبو العباس، مشيراً إليه باسمه الرسمي، حيث قال: «هذا المدرّس الفلسطيني الشاب محمد العباس يسيء إلى المدرسة. لا أريد رؤيته فيها بعد اليوم». كان ذلك المدير قلقاً من تصرفات المدرّس الشاب التي قد تؤثر في نظام المدرسة، وتشجّع باقي المدرّسين على التسيّب على نحو مماثل. وهنا عرض أحد الموجهين القديرين العاملين في مؤسسة تعليمية تابعة لمديرية التربية خدماته قائلاً: «أرسل هذا الفتوة إلى مدرستي، وأنا سأعلّمه النظام».

في النهاية، نُقل أبو العباس من مدرسة العربي إلى مدرسة جديدة تفرض نظاماً قاسياً على مدرّسيها. كان أبو العباس قد تلقى تعليمات بالوصول إلى المدرسة صباحاً في الساعة السابعة والنصف تماماً من أجل حضور تحية العلم في باحة المدرسة وبدء الحصص الدراسية في الساعة الثامنة تماماً. لكنّ أبو العباس، في يومه الأول في تلك المدرسة، وصل في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. كان مدير المدرسة غاضباً جداً من سلوك ووقاحة ذلك المدرّس الذي هو في النهاية فلسطيني خرج توّاً من المخيمات، واستدعى أبو العباس وهو يتساءل لماذا يشعر هذا الفتى بأنّ القوانين التي تسري على الجميع لا تسري عليه؟ وقال له: «برّر تصرفاتك». وردّ أبو العباس: «هل تعلم لماذا تأخرت؟ لقد تأخرتُ لأني أعمل من أجل فلسطين».

كان أبو العباس يعتقد دوماً أنّ مجرّد ذكر اسم فلسطين يجب أن يكون كافياً لإثارة التعاطف الوطني لدى أي شخص عربي. كان يشعر بأنّ اسم فلسطين كافٍ لانتفاض بدن أي عربي، وكان الأمر كذلك فعلاً. كانت فلسطين بالنسبة إلى أبو العباس بمثابة الإذن لكي يتصرف على هواه.

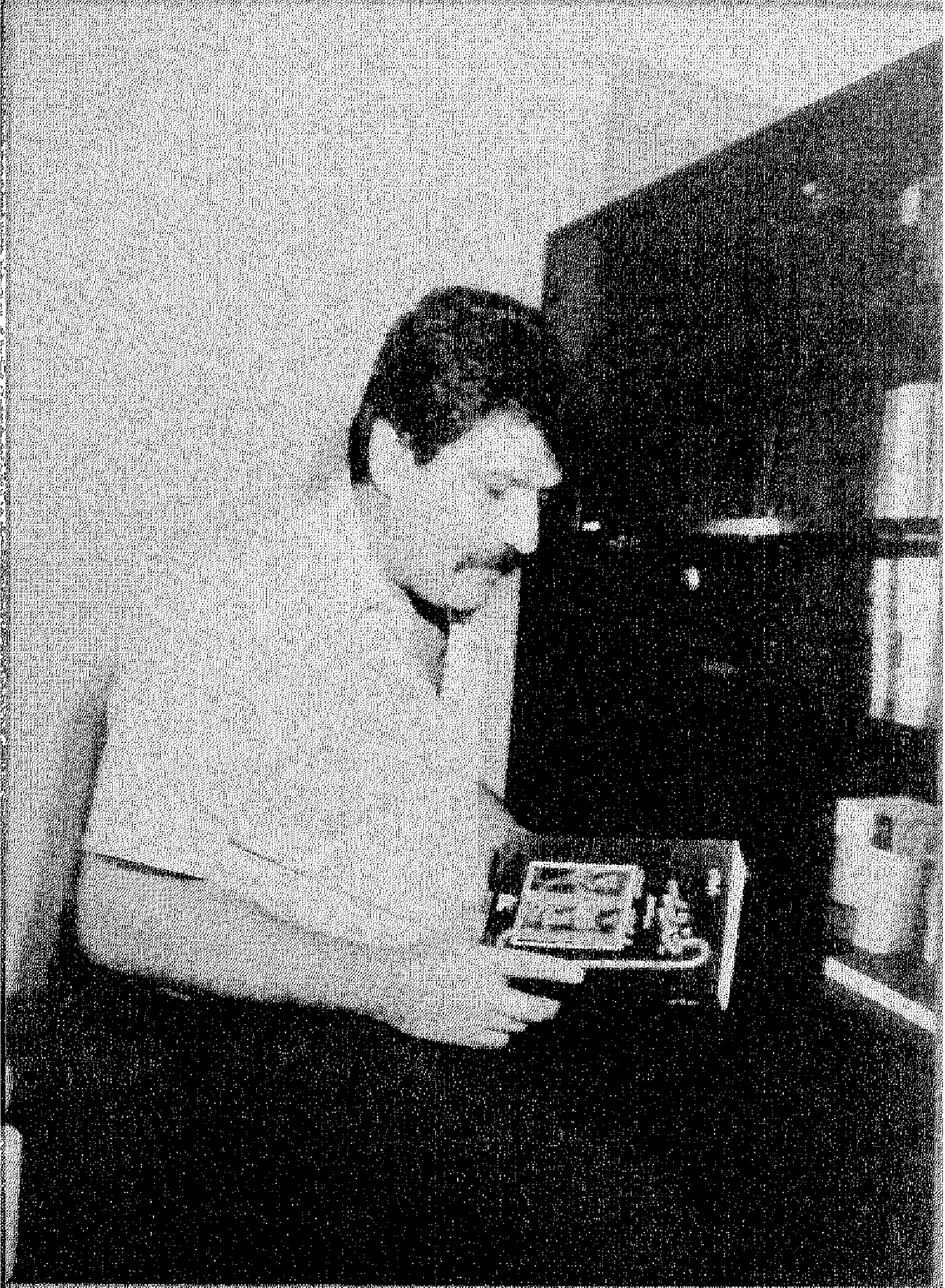
بحلول عام ١٩٦٨، كان للإخفاق التام في إحراز أي تقدم نحو إيجاد حل للقضية الفلسطينية أثره في توليد رابط عاطفي قوي مع هذه القضية. لقد وحّدت فلسطين العرب من الخليج ومن شمال أفريقيا ومن سورية، وحّدت العرب على اختلاف ألوانهم، سواء أكانوا سُمراً بشعر أسود، أم شُقراً بعيون زرقاء مثلي، ووحدتهم أيضاً على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم من مسلمين أو مسيحيين، دروز أو علويين أو علمانيين. لقد أضحت فلسطين بالنسبة إليهم هي المحك.

وأصبحت فلسطين عبر العالم العربي بأكمله الراية التي رفعت تفكير العرب، وألهبت الشعور الصارخ بالقومية العربية. في دمشق اكتشف أبو العباس أنّ الولاء المطلق لفلسطين يمكن أن يرفعه في عيون العرب، ويعزز من مكانته في عمله ويمنحه سبيلاً لولوج أعلى المستويات الاجتماعية. لقد أمضى سنوات في الدراسة والتدريس ليحقق ذاته. وهو يشعر الآن بأنّ ارتباطه بفلسطين سيزيده ارتقاءً.

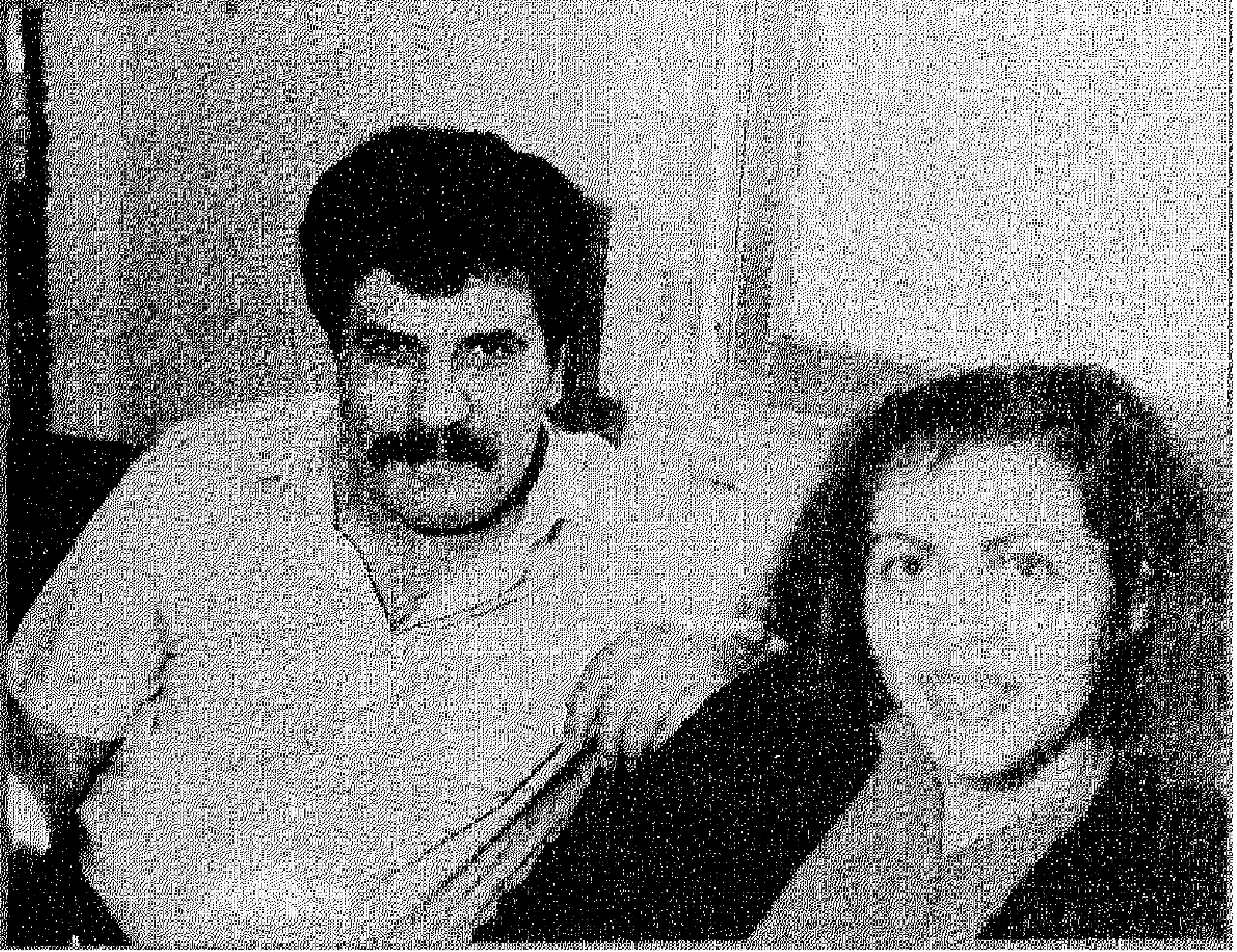
بالعودة إلى الحديث عن مدرسته الجديدة ويومه الأول فيها، وقف أبو العباس أمام ذلك المدير العجوز الذي كان يفكر في ما يجب أن يفعله مع هذا الأستاذ الجديد وأعذاره الغريبة في التأخر عن دوامه. بعد ذلك فتح أبو العباس مغلفاً كان يحمله تحت ذراعه ودفع أمام مدير المدرسة برزمة ورقية من البيانات الرسمية التي كان قد خطّها أبو العباس ورفاقه بلغة عربية فصيحة منمّقة ووضعوها ضمن تصميم أشبه بتصاميم المجلات التي ترد فيها العبارات الآسرة بحروف كبيرة وعريضة. كانت تلك النصوص مليئة بقصص معاصرة عن الظلم الذي يتعرض له الوطن فلسطين، وتزخر

بالحثّ على إعادة فلسطين إلى الفلسطينيين. بدا المدير مأخوذاً وليس متأثراً، فهو يدرك أنّ أبو العباس في هذه اللحظة ليس ذلك الشخص القيادي المرموق الذي يدافع عن قضية سامية، بل مجرّد شاب وصل متأخراً إلى عمله، فأجابه مشدداً على كل كلمة: «عذرك غير مقبول».

اتصل أبو العباس بأشخاص متنفذين في السلطة من الفلسطينيين أو غيرهم في كل أرجاء دمشق ممن يستطيع الاستماع إلى ندائه ومدّ يد العون له في سعيه إلى الحفاظ على عمله. كان يحثّهم على احترام أفكاره وعمله الذي يقوم به مع باقي الشبّان الفلسطينيين. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان أبو العباس حقاً يطلب مساعدة للحفاظ على عمله؟ الجواب نعم ولا. مشكلة العمل التي واجهها كانت من صنع يديه، وتلك الأزمة التي اختلقها مع مدير مدرسته كانت إلى حدٍّ كبير حجة مكّنت أبو العباس من مطالبة الدمشقيين الرفيعي المستوى بإدراك معاناة الفلسطينيين الملحّة، وتقدير مكانته مناضلاً لخلاص فلسطين وتحريرها. هذا هو التكتيك الذي طالما استخدمه وسيستخدمه طوال حياته العملية، فقد كان يكرر دوماً: «أنا لست مجرد مدرّس مغمور جاء من المخيمات المتهالكة... أنا أكثر من ذلك بكثير... أنا صوت الحركة السرية الفلسطينية».



أبو العباس في منزله في بغداد



ريم النمر مع زوجها أبو العباس في بغداد بعد عملية الأكيلي لاورو

الفصل الخامس

رفعت النمر وعائلتنا

نهاية الحرب العالمية الأولى، انهيار الإمبراطورية العثمانية، ١٩١٨، ولادة والدي.

مما لا شكّ فيه، أنّ كلّ فتاةٍ معجبة بوالدها، ولكن والدي تحديداً كان رجلاً استثنائياً. رفعت النمر (أبو رامي) كان رجلاً فريداً من نوعه. كان يتمتع بشخصية جذابة وموهوبة تعتمد الشرف والأخلاق الحميدة أساساً لها في الحياة. لقد كرّس جلّ حياته لخدمة القضية الفلسطينية. كان رجلاً كريماً شديد البأس والصلابة وأهلاً للثقة.

ينحدر رفعت النمر من عائلة فلسطينية بارزة ومتنفّذة في مدينة نابلس التي تقع شماليّ الضفة الغربية على بعد نحو ٧٣ كم شمال القدس، والبعد نفسه

عن عمّان باتجاه الغرب. في السنوات الأخيرة من عهد الإمبراطورية العثمانية كان آل النمر أصحاب أرض ونفوذ ومال، ولديهم عسكر تحت إمرتهم. كان منزلهم في نابلس وجهةً للشخصيات المرموقة والنخبة المثقفة في المدينة. وكان أغنياء المدينة يقصدون بيت النمر لتوطيد علاقات سياسية يطمحون من خلالها إلى الحصول على مناصب مدنيّة لدى الحكومة العثمانية، أو لاقتناص فرص لأعمال مربحة لمشاريعهم الخاصة. أما فقراء المدينة، فكانوا يقصدون سرايا آل النمر يومياً طلباً للمساعدة الماديّة التي قدّمها أجدادي بكل كرم قدر ما أمكنهم ذلك. كان آل النمر وسطاء لدى النظام العثماني، فقد قدّموا الحماية والخدمات للشعب مقابل الولاء للسلطان العثماني، واستمروا في أداء هذا الدور بفاعلية عالية حتى انسدال الستار على حكم الإمبراطورية العثمانية عام ١٩١٨.

كان منزل آل النمر ذا جدران وأسقف حجرية عالية تلفّه حدائق غنّاء واسعة مزدانة بالنوافير، وتنمو فيها جميع أنواع الفاكهة والخضروات. أما من الداخل، فكان يضم غرف استقبال كبيرة وغرفاً للضيوف، وكان يضم ثلاثة إسطبلات للخيول. على الرغم من أنّ آل النمر كانوا حلفاء العثمانيين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، لكنهم في الواقع، وقبل مئتي عام من ذلك، قاوموا المحتل العثماني إلى جانب عائلة طوقان في عام ١٦٥٧ . وفي عام ١٩١٨ انهارت الإمبراطورية العثمانية وتداعت أركان نظامها، ومعها بدأت ثروات آل النمر بالتآكل هي الأخرى. ولو تابع والدي مسيرة حياته منذ ولادته عام ١٩١٨ على خطى عائلته، لكان تربّع على عرش الفقر في تاريخ عشيرته. لكنّ رفعت النمر أثبت ألمعيةً في دمج ما بقي من أملاك عائلته في العالم الجديد الذي أصبحت فيه معايير العلم والموهبة والإخلاص أساساً لحصد المكانة

التجارية والاجتماعية. وتفوق الرجل الحاذق في اكتساب جميع مهارات إدارة الثروة المجرّدة.

كان نظام امتلاك الأراضي وإدارتها والعلاقات الوطيدة مع الحكومة التي ضمنت رفاه العائلة في الجيل الأسبق قد انهارت بالكامل جرّاء حرب ١٩٤٨، وألحقت الاشتباكات الأضرار بأملاك العائلة، ولكن مع ذلك بقيت سليمة إلى حد كبير. بعد الحرب سقطت نابلس في قبضة الحكومة الأردنية. وبالرغم من خسارة الثروات والنفوذ السياسي، إلّا أنّ عائلة النمر كانت لا تزال تمتلك الأراضي وتتمتع بالمكانة الاجتماعية ذاتها. وفي عام ١٩٦٧، وخلال حرب الأيام الستة، أطبقت إسرائيل سيطرتها على نابلس وأتبعتها إدارياً لسلطاتها، وبالتالي ازدادت العائلة بعداً عن رفاهها السابق. ومع اندثار المصادر الملموسة لثروة العائلة، عمل رفعت على تعويض الخسائر بتطوير المهارات المالية لتوظيف ما بقي من أملاك العائلة على أحسن وجه، ولاستثمار دخله كموظف بنك بكل حكمة.

عندما بلغ رفعت العاشرة من عمره في عام ١٩٢٨، توفي والده صدقي النمر. ومنذ ذلك الوقت تولّى أخوه الأكبر رشيد، العناية به. درس رفعت في مدارس نابلس الحكومية التي كانت تديرها سلطة الانتداب البريطاني، وكان من بين أساتذته فلسطينيون قوميون بارزون أمثال وصفي كمال وأكرم زعيتر (الذي أصبح في ما بعد سفيراً لفلسطين في جامعة الدول العربية). وكان بينهم أيضاً الدرزي المرموق الدكتور فريد زين الدين، الذي أصبح سفيراً لسورية في الولايات المتحدة في الخمسينيات من القرن العشرين.

في عام ١٩٣٦، بعد فترة قصيرة من اندلاع الثورة الفلسطينية في وجه الإنكليز، شارك والدي في تأسيس رابطة الطلاب الفلسطينيين، وانتُخب رئيساً لها، وبدأ من مقرّه في نابلس بدعم ثورة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وذلك بتهريب السلاح والمال والطعام للثوار. وبالتالي، وبسبب هذه النشاطات، زجّه البريطانيون في زنزانة مع عمه الحاج عبد الرحمن محمد (أبو كامل). كان دخول المعتقل وصمة في سجلّ رفعت، سبّبت إغلاق أبواب كثيرة في وجهه، لكنها من جهة أخرى كانت كفيلة بفتح أبواب أخرى على مصراعيها. في السجن التقى رفعت بشخصيات قيادية في الحركة السرّية الفلسطينية أمثال عزة دروزة وراشد أبو غزالة وعبد الحميد شومان وأستاذه في المدرسة أكرم زعيتر. عندما أُطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر، تبلّغ قرار فصله من المدرسة، لذا أرسله أخوه لإكمال دراسته في قرية سوق الغرب اللبنانية الواقعة في جبل لبنان. وهناك تولى رعايته عمه أبو كامل، الذي حصل في ما بعد على لجوء سياسي بالقرب من دمشق، واستمر بالتردد إلى بيروت.

ولدى حصوله على الشهادة الثانوية انتسب رفعت إلى جامعة الملك فؤاد الأول (التي سُميت في ما بعد جامعة القاهرة). كانت رغبة أخيه الأكبر أن يدرس الطب، على الرغم من أنّ أساتذته نصحوه كثيراً بدراسة الهندسة، نظراً إلى تفوقه في مادة الرياضيات. لكنّ الثائر الصغير رفض كلا الاقتراحين، واختار دراسة الأدب العربي بدلاً من ذلك. وكان من بين أساتذته الجامعيين عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، الذي كان له تأثير كبير في رفعت النمر. اعتاد طه حسين ممازحة رفعت وتسميته «الثائر الفلسطيني». في الكلية أسهم والدي في إنشاء اتحاد الطلبة العرب،

وعُيِّن رئيساً له. ولدى عودته إلى نابلس، بدأ بالبحث عن فرصة عمل، إذ لم يعد لديه خيار آخر، فثروة العائلة في تضاؤل حادّ ومستمر، والأراضي التي تملكها لا تضخّ سيولة كافية لإعالة رفعت وإخوته. كان الحصول على وظيفة ضمن مؤسسات الإدارة البريطانية أمراً محظوراً على رفعت بسبب ماضيه في السجن. في النهاية، حصل على فرصة عمل في مصرف في نابلس بمساعدة عبد الحميد شومان الذي جمعته مع رفعت أيام السجن في نابلس، والذي كان قد أسس البنك العربي في القدس في تموز عام ١٩٣٠ برأسمال قدره خمسة عشر ألف ليرة فلسطينية.

أول فرصة عمل في المصرف

كان ذلك في عام ١٩٣٧ لدى توسيع البنك العربي أعماله وافتتاح فرعٍ له في بغداد. وهنا حصل رفعت على وظيفة له وتمكن من الارتقاء في المناصب مع ازدهار أعمال البنك العربي.

في عام ١٩٤٢ تزوج رفعت فتاةً من نابلس تنتمي إلى عائلة المصري الرفيعة المستوى على الصعيدين السياسي والمادي. وفي عام ١٩٤٣ أصبح البنك العربي واحداً من أهم المؤسسات المالية في الشرق الأوسط بفروعه المنتشرة في دمشق، بغداد، عمّان وبيروت. في عام ١٩٤٧ رُقّي رفعت إلى منصب معاون مدير فرع البنك العربي في عمّان. كان مقرّ عمله في عمّان يبعد مسافة ساعة أو ساعتين فقط بالسيارة عن منزل عائلته في نابلس، لذا تمكّن من التواصل مع عائلته والإشراف على أراضيها.

عشيّة حرب ١٩٤٨، كانت آفاق الحياة قد بدأت بالتحسن لدى رفعت،

ويرجع الفضل في ذلك إلى عمله الذي يعود عليه بدخل جيد ولزواجه الناجح. كذلك كان لاستقرار رفعت في عمّان أيضاً الفضل في تمكينه من إعادة انتسابه إلى الحركة السرّية الفلسطينية. كان الفلسطينيون المقيمون في الأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا زواراً دائمين لعمّان، وذلك لقرب الحدود. كان رفعت يقضي نهاره في عمله المصرفي، وفي الليل يلتقي مع جمعيات فلسطينية سرّية. مع اندلاع الحرب انقسمت العائلة بين عمّان ونابلس، ومع استمرار وتيرة الاقتتال توقفت نشاطات رفعت السياسية.

أمي

عام ١٩٢٢ وُلدت ربيحة المصري في نابلس. نشأت والدتي ضمن مجتمع نابلس الأرستقراطي في كنف عائلة معروفة من أصحاب الأملاك الزراعية. درست في مدرسة الأصدقاء ــ فرع القدس. كانت مدرسة الأصدقاء من المدارس الخاصة المختلطة رفيعة المستوى التي أنشأتها مجموعة الأصدقاء الدينية (الكويكرز) لدى البدء بنشاطاتها في فلسطين عام ١٨٦٩. أولت تلك المدرسة اهتماماً مكثفاً بتعليم المرأة لتمكينها من تطوير قدراتها وإدراك فرصتها التي تحقق لها المساواة مع أفراد مجتمعها. كانت ربيحة في العشرين من عمرها عندما تزوجت رفعت، وكان هو في الرابعة والعشرين. رافقت ربيحة زوجها إلى بغداد، ومن ثَمَّ إلى عمّان عام ١٩٤٧، وفي عام ١٩٥٢ أنجبا مولودهما الأول (أنا) في نابلس. أما أخي الأصغر رامي، فقد وُلد عام ١٩٥٦ في نابلس أيضاً، وبعده وُلدت رنا عام ١٩٦١ في بيروت.

كانت ربيحة امرأة ذكية وذات شخصية مستقلة تعود بنسبها إلى عائلة

عريقة، وقد حافظت على اسم عائلتها العريق وفقاً للأعراف العربية، واثقة من نفسها لم تتردد للحظة في البوح بكل ما يجول في خاطرها لزوجها وعائلته، من ناحية أخرى لم تتذمّر أبداً من دورها الذي تقوم به كأم وزوجة. وكانت ربيحة على الدوام إلى جانب زوجها حتى في سنوات التشتّت التي تلت نكبة ١٩٤٨، حيث رافقته من نابلس إلى عمّان، ومنها إلى السعودية، وبعدها إلى بيروت، حاملةً ابنَيها حينها. ولم تتذمّر مرةً من عدم وجود فرصة تضمن لزوجها حياة عملية مستقلة، بل كانت الداعم الرئيسي له، مع قناعة تامة بأنّ هذا هو دورها الطبيعي الذي يعكس أصالتها.

كانت ربيحة خلال الأيام التي يسافر فيها زوجها لحضور المؤتمرات المصرفية في جميع أرجاء المعمورة تحافظ على منزله مضبوطاً كعقارب الساعة. كانت مربيّة وأُمّاً حنونة، تراها دوماً موجودة وحاضرة للإصغاء إليك، وتهتم بنظافة أولادها ولباسهم وطعامهم. ما زلت أذكر من طفولتي على وجه الخصوص طبق «المسخَّن»، ذلك الطبق الفلسطيني التقليدي الذي كانت تُعدُّه أمي لنا، وهو يتكون من قطع الدجاج المفلفل والبصل التي تُرَشّ على رقائق الخبز المشروح، يضاف إليها الكمون والسماق، وتُصنع في لفافات تُشوى بإضافة زيت الزيتون وتُزيّن بالصنوبر.

كرّست ربيحة نفسها لضمان حصول أبنائها على أفضل أنواع التعليم الدراسي والثقافي على حد سواء. كنت وإخوتي نحضر دروساً في رقص الباليه وعزف البيانو، إلى جانب الحصص الدراسية النظامية. ربيحة التي نشأت وترعرعت أيام الانتداب البريطاني في بلادها، تلقت تعليماً رفيع المستوى، وكانت صارمة وجدّية بتعليمنا. أما نحن الأولاد، فكنا مجتهدين

جداً في المدرسة. وكنا في أيام تموز وآب الحارّة نسافر إلى المنتجعات الجبليّة في سورية مثل بلودان والزبداني، وكان الجلوس مع أصدقاء العائلة وتناول الطعام الشهي في المقاهي المفتوحة متعة حقيقية.

كانت ضغوط العمل تنوء بثقلها على رفعت في بعض الأيام، ولولا دعم ربيحة ووجودها دوماً إلى جانبه لنال منه التوتر والانهيار. كانت هي من يمنحه القوة للمضي قدماً في الأوقات العصيبة. لطالما عاشت في ظلّه تملؤها ثقة كبيرة بقدراتها وأهميتها. كانت زوجة مُحبة ورفيقة مهتمّة وأمّاً من الطراز الرفيع لأولاده. كانت مَثَلي الأعلى في الأمومة، فقد حذوتُ حذوها في تربية أولادي.

عائلتنا في فترة ما بعد حرب ١٩٤٨

بعد الحرب حلّ الأردن مكان بريطانيا حاكماً للضفة الغربيّة. كانت بريطانيا خلال فترة الانتداب قد زجّت برفعت في السجن، ومشى الأردن على الخطى ذاتها إذ أصدر مذكرة في عام ١٩٥٧ لاعتقال رفعت، الأمر الذي دفع به للهرب إلى الرياض في المملكة العربية السعودية مع زوجته وولدين صغيرين. في ذلك الوقت كنتُ ما أزال طفلة صغيرة، حتى إنني لا أذكر شيئاً عن سنوات حياتي في السعودية. هناك حصل على عمل كمعاون مدير في بنك الرياض بمساعدة المرحوم علي شعث والد وزير الخارجية الفلسطيني الدكتور نبيل شعث. خلال السنوات الأربع اللاحقة، عمل رفعت في بنوك عدة في السعودية، وتابع في الوقت نفسه نشاطه السياسي، معلناً تأييده التام للرئيس المصري جمال عبد الناصر.

وكما هو معتاد، يجب على المرء أن يدفع ثمن ولائه، فقد كان ناصر ناقداً لاذعاً لآل سعود، الأمر الذي دفع المملكة بعد ثلاث أو أربع سنوات من استقرار رفعت فيها إلى إعلانه شخصاً غير مرغوب فيه، وذلك بسبب دعمه لعبد الناصر. في ذلك الوقت من عام ١٩٦٠، كانت بيروت تزدهر على مستوى العالم العربي بالأعمال المصرفية، الأمر الذي دفع رفعت للانتقال إليها وإنشاء مؤسسته المصرفية الأولى، وهي بنك الاتحاد العربي، وذلك بتمويل من بعض المستثمرين العرب. وانتقلنا للعيش إلى جانبه في بيروت، في شقة بمنطقة رأس بيروت الشهيرة التي يتوسطها شارع الحمرا التجاري المتخم بالمؤسسات المصرفيّة. كنتُ في التاسعة من العمر عندما بدأت حياتي في بيروت التي لا أرى سواها وطناً لي، على الرغم من مراحل الاستقرار المهمّة التي مررتُ بها في غرب أفريقيا وتونس والعراق.

تمكّن رفعت مع بعض المستثمرين الكويتيين من شراء أسهم بنك بيروت للتجارة، وعُيِّنَ في ما بعد مديراً تنفيذيّاً للبنك. على الرغم من اندلاع الحرب الأهلية في لبنان بعد ثلاث سنوات عام ١٩٧٥، رفض رفعت مغادرة بيروت، وتابع حياته وعمل فيها حتى بعد اقتحام قوات الاحتلال الإسرائيلي البنك، في محاولة منها لاعتقاله عام ١٩٨٢.

كان رفعت من الرواد الأوائل في العمل المصرفي، مع الانتباه إلى أنه وُلد في زمن كانت فيه أعمال التمويل في المشرق تحت هيمنة مؤسسات عثمانية أو إنكليزية أو فرنسية. وقد عاش خلال فترة كان فيها النفط العربي والإيراني يوفران حاجة العالم من الوقود. لكن بعد الحرب العالمية الثانية تمكن العرب والإيرانيين من استعادة سيطرتهم على ثرواتهم من الحكومات والشركات

الغربية. كانت المنطقة آنذاك تعوم بالأموال، والصناعة المصرفية مزدهرة بكل أشكالها في بلدان الشرق الأوسط. وهنا برزت بيروت عاصمةً للعمل المصرفي، وكان رفعت أحد اللاعبين الرئيسيين فيها.

بيروت ١٩٦٤، انضمام رفعت إلى منظمة التحرير الفلسطينية

على الرغم من أن رفعت انصرف في حياته العملية إلى عالم المال، إلا أنه تلقى ضربات بسبب نشاطه السياسي، فقد زجّت به السلطات البريطانية في السجن، ولاحقته السلطات الأردنية بإصدارها بلاغاً باعتقاله، وقامت السعودية بطرده. ومع ذلك لم يستسلم، فانضم عام ١٩٦٤ إلى منظمة التحرير الفلسطينية الحديثة العهد آنذاك، وقدم دعمه لأحمد الشقيري، أول رئيس للمنظمة التي ارتبط اسمها في ما بعد بالزعيم ياسر عرفات. وفي ٢٨ أيار من العام نفسه، توجه رفعت مع أربعمئة عضو تمثيلي فلسطيني من الأردن، وسورية، ولبنان، وغزة، ومصر، والكويت، وليبيا والعراق لحضور مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في القدس الشرقية واستمرّ لمدة خمسة أيام. في ذلك المؤتمر، وضع رفعت شارة تحمل خريطة فلسطين ونقش بداخلها عبارة «سنعود». وفي المؤتمر أُعلن تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ممثلةً للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة والأراضي المحتلة والشتات. في شهر أيلول أعلن الشقيري إنشاء الصندوق الوطني الفلسطيني، وعيّن رفعت نائباً لرئيسه. كان رفعت يعلّق آمالاً كثيرة على الشقيري، ذلك الوجيه المتمرّس ورجل الدولة اللافت. بعد نكسة حزيران غادر أحمد الشقيري الكرسي لمصلحة ياسر عرفات، وغاب عن

المشهد السياسي ليعتليه أبو عمار مالئ الدنيا وشاغل الناس لمدة تجاوزت أربعين عاماً. كانت الإجراءات المالية تعرقل عمل عرفات، في وقت كانت فيه نزاهة الأعمال المالية صفة دامغةً في حياة والدي العملية. كان عرفات يريد إنفاق المال بحسب رغبته من دون تقديم مستند مبرر لذلك الإنفاق، خلافاً لوالدي الذي كانت الشفافية والمحاسبة أساساً في عمله، والعالم بأسره يُقاس لديه في الميزان. ويجب أن نتذكر أنّ المال كان بالنسبة إلى عرفات وسيلة للسيطرة، فقد كان بالتأكيد يشتري به ولاء الأفراد. لكنّ قدرته على الإنفاق من دون رقيب على الإطلاق منحته الفرصة لصقل فنّ التلاعب وجعله أداة فائقة الدقة والتعقيد. ويمكننا القول إنّ المال الذي أنفقه عرفات أعاد ترتيب كل ما في منظمة التحرير الفلسطينية من أفراد ومن علاقات. لم يكن عرفات فاسداً على الصعيد الشخصي، ولكنه كان مفسداً كبيراً، للتمكن من الإمساك بالسلطة من خلال تقديم الهبات المالية لحلفائه وشراء أعدائه على مدى خمسين عاماً تقريباً.

لم يكن رفعت يوماً على عداوة مع منظمة التحرير الفلسطينية أو رئيسها، لكنّ العلاقات بينهما لم تكن سلسة. ففي إحدى المرات في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، رفض رفعت صرف شيك لصالح زهير محسن، القيادي في المنظمة، بالرغم من أنّ الشيك يحمل توقيع عرفات نفسه. يومها اتصل عرفات بِرفعت متذمراً، ولكنّ الأخير أصرّ على رفضه وأخبر أبو عمار أن النفقات مدرجة في حساب «لا لزوم له في الوقت الراهن». في النهاية، لم يحصل زهير محسن على المبلغ، وغضب عرفات.

لم تقتصر علاقات رفعت النمر السيئة على عرفات وحده، بل كانت

كذلك مع السوريين الذين زجّوا عام ١٩٧٦ دباباتهم في ساحات الحرب الأهلية اللبنانية. بالرغم من زياراته الكثيرة لدمشق، لكن رفعت النمر لم يكن الرجل المطيع للسوريين الذين كانوا ينتهزون الفرص للانتقام. ففي واحدة من سفراته من بيروت إلى دمشق، قامت الشرطة اللبنانية بتحريض من ضباط سوريين باعتقاله واحتجازه في مخفر شرطة مدينة شتورا اللبنانية الحدودية، ولم يُطلَق سراحه إلا بعد تدخّل الإمام موسى الصدر، مؤسس حركة أمل، شخصياً لدى السلطات اللبنانية.

عمر السادسة عشرة الجميل

في التاسع من أيلول عام ١٩٦٨ بلغتُ السادسة عشرة من عمري. لم أكن أعلم أنّ أبو العباس كان في ذلك الشهر يعيش في دمشق حيث يغفو في الليل في أقدم جزء من مخيم اليرموك ويقضي النهار في محاولات يائسة للنجاح في عمله كأستاذ مدرسة. ترى كيف كان أبو العباس يقضي أوقات فراغه؟ كان مع رفاقه يجتمعون كل مساء في غرفة تعبق بالدخان ليرسموا أحلامهم بالانضمام إلى المقاومة الفلسطينية. أما أنا، فقد كنتُ في ذلك الوقت أسكن في شقة جميلة في أغلى منطقة في رأس بيروت. كنتُ فلسطينية الجنسية، وأحمل أفكار الشيوعية، وعلى الرغم من ذلك فوالدي رجل مقتدر مادياً وأنا أهوى التمتع بالحياة.

كانت أيام المراهقة مليئة بالراحة، والفضل يعود في ذلك إلى الدفء ورغد المعيشة التي وفّرها والدي رفعت النمر ووالدتي ربيحة المصري. لم تكن لدينا مشكلة مادية قَطّ. تُرى، هل كانت ثروتنا بحد ذاتها هي ما

أشعل الوعي السياسي بداخلي؟ كان والدي حريصاً على إرضاء أهواء مراهقتي. ما زلتُ أذكر مثلاً أنّ أول سيارة اشتراها لي كانت ألفا روميو خردلية اللون مكشوفة. لا بد أنّ الفكرة غريبة نوعاً ما: صبية شيوعية تقود ألفا روميو! ولكن في الستينيات من القرن العشرين، كانت بيروت تعجّ بالسيارات الفاخرة. كنتُ أقود سيارتي في نزهة يومية باتجاه الشاطئ إلى منطقة الروشة التي تبعد اثنين أو ثلاثة من الكيلومترات عن الجامعة الأميركية في بيروت، وأسير بمحاذاة الشريط الساحلي بسيارتي اللامعة على وقع أغاني البيتلز الشهيرة وخاصة أغنية «عدنا إلى الاتحاد السوفياتي» التي قلبت عبادة الذات في الغرب رأساً على عقب، وبالتالي كانت متناسبة مع إحساسي السياسي الوليد.

كنت أرتدي بنطلونات الشارلستون (بنطال ضيّق عند الخصر وعريض عند أسفل القدمين) وبلوزات من أحدث الماركات، وأجد متعة كبيرة في تدخين سجائر المارلبورو، تاركة للهواء العليل حرية التغلغل في شعري الأشقر. عندما كنتُ أركن سيارتي إلى جانب الطريق للاستمتاع بمنظر طبيعي أو لشراء مشروب بارد، كان يبدأ الشباب بالتصفير وإطلاق عبارات الغزل، بينما الأكبر سناً يكتفون بالتحديق والاحتفاظ بآرائهم لأنفسهم. كنت شابّة صغيرة، وكان يروقني لفتُ انتباه الآخرين.

في ذلك الوقت لم يكن في بيروت سوى سيارتَي سباق عدا سيارتي. الأولى كانت لشاب من عائلة الأسعد المتنفّذة، والثانية لوليد جنبلاط، ابن الزعيم كمال جنبلاط. وبما أنّي كنتُ تلك الفتاة الصغيرة المجنونة، انخرطت في سباق تحدٍّ مع السيارتين الأخريين في منطقة الرملة البيضاء

التي سُمِّيت كذلك نسبة إلى رمال الشاطئ البيضاء الجميلة التي تبعد كيلومتراً واحداً عن أسفل صخرة الروشة. خلافاً لما هي عليه اليوم من فخامة، كانت منطقة الرملة البيضاء في ذلك الوقت خالية من الأبنية تقريباً، وتضمّ الكثير من الساحات الواسعة المعبّدة، وكأنها تستجدينا للبدء بسباقاتنا المجنونة.

وفي أحد الأيام لمحنا رئيس شرطة بيروت، وأبلغ والدي رفعت بك الذي صادر بدوره السيارة وباعها عقاباً لي. وصار لزاماً عليّ الركوب في المقعد الخلفي لسيارة والدي الكاديلاك السوداء اللامعة كلما أردتُ الذهاب إلى مكان ما. ولكن مع ذلك، كان لا يزال حول منزلي في رأس بيروت الكثير من أماكن المرح الرائعة. كنتُ ألتقي بأصدقائي في مطاعم راقية مثل مطعم فيصل الشهير في شارع بلِس بالقرب من الجامعة الأميركية. ولكن مطعم ويمبي في شارع الحمرا كان المكان المفضّل بالنسبة إليّ، حيث كان يجتمع الشيوعيون ويُكتَب التاريخ مرة تلو الأخرى.

تلقيتُ تعليمي في مدارس خاصة مرموقة، سواء في فلسطين أو لبنان أو مصر. وفي المنزل كانت والدتي تعلّمني آداب الطعام وألوان الرقص والقراءة وأصول الحديث والتعامل المهذَّب وسط الجلسات الاجتماعية. كذلك تذوقتُ من خلالها الطرب العربي الأصيل، مثل فنّ أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، بينما نهلتُ من علوم الموسيقى الكلاسيكية المعمّقة، من أمثال بيتهوفن وباخ في المدرسة، إذ تعلّمت عزف المقطوعات التقليدية. كانت غرفتي التي أعيش فيها مليئة بصور رائعة لي، من دروس الباليه التي تلقيتها آنذاك. لقد ربّت أمي

أولادها على التهذيب والأدب والاتزان، وزرعت فينا منذ طفولتنا الثقة التي سنحتاج إليها للاندماج في المجتمع اللبناني الراقي عندما نكبر.

لم يتوانَ رفعت وربيحة عن دفع أي نفقات في سبيل تعليمي. وبالرغم من أني تلقيت تعليمي الأساسي في مدارس بيروت، لكنني انضممت لاحقاً في فترة إلى فيكتوريا كوليدج الرّاقية في الإسكندرية التي درس فيها مشاهير العالم، أمثال ملك بلغاريا وعاهل الأردن الملك حسين والممثل المصري العالمي عمر الشريف والمفكّر الفلسطيني الكبير إدوارد سعيد. كانت أجمل ذكرى لي في مصر عندما أبحر عبد الناصر إلى الإسكندرية مع الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف، وطُلب إلينا كطلاب مدرسة حمل الزهور وانتظار قدوم الرئيسين في الميناء للترحيب بهما. كنتُ من أشدّ المحبين لناصر، خاصة أني نشأتُ في بيت فلسطيني يقدّره عالياً. عندما وقعت عيناي على الرئيس المهيب الوسيم، اندفعتُ نحوه من وسط الحشود متجاهلةً جميع التعليمات التي أوصتنا بها مديرة المدرسة. ركضتُ نحوه وناديته بأعلى صوتي: «عبد الناصر!»، يا لبراءة الأطفال! حتى إني نسيتُ أن أناديه بلقبه «سيادة الرئيس». عندها، حاول مرافقوه الشخصيّون منعي من التقدم، فأومأ إليهم عبد الناصر بالتنحي جانباً وقرّبني منه وقبّلني على خدّي. وإلى اليوم، لا تزال صورة هذا الرئيس المصري بقامته الطويلة الضخمة محفورة بعمق في ذاكرتي. وفي اليوم التالي اتصلت مديرة المدرسة بوالدي لتشكو إليه ما قامت به ابنته الصغيرة من خرق للقوانين. وبعد إصغائه بكل احترام، أدرك رفعت النمر أنّ لديه ابنة متمرّدة مثله تماماً. وأكثر من ذلك، فهي تشاركه الحب لعبد الناصر ويثير غضبها وجود نظام يقف بينها وبين حلمها المتمثل بالانتماء إلى فلسطين.

كان رفعت في كل مرّة يذكر فيها تلك الحادثة يرسم ضحكة على وجهه، مستبعداً أن تكون تلك الحادثة مجرد عاطفة طفولية تجاه شخصية بارزة. ومنذ ذلك اليوم، بدأ التمرّد يكبر في داخلي، حتى أصبحت مستعدة لكسر أي قاعدة وعصيان أيّ أمر قد يقف في وجه ما أريد. وفي ما يخصّ فلسطين تحديداً، كنت مقتنعة تماماً بأنّ ما أردته كان عين الصواب.



السيد رفعت النمر مع السيدة ربيحة المصري في القاهرة



ريم النمر مع والدها السيد رفعت النمر في نابلس



ريم النمر مع والدتها السيدة ربيحة المصري في القاهرة



ريم النمر بعمر سبع سنوات في جدة



ريم النمر مع عرفات في تونس

الفصل السادس

عملية جمال عبد الناصر

في الوقت الذي كنتُ أحظى فيه بأيام مراهقة ممتعة ومريحة في بيروت، كان أبو العباس في دمشق يركض لاهثاً للحصول على عمل يؤمن له نفقات الدراسة ومساعدة أخيه الأصغر. وكما ذكرتُ من قبل، انضمّ في عام ١٩٦٤ إلى منظمة التحرير الفلسطينية وكان في الرابعة عشرة من عمره، وبعد ثلاث سنوات انضمّ إلى الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وكان في السنة الأولى من الجامعة. وفي عام ١٩٦٨، وكان حينها على أبواب التخرج من جامعة دمشق، انضمّ إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة. وبعد التخرّج، وتحديداً في خريف عام ١٩٦٨، عاش بضعة أشهر من الفشل المتعمّد في مهنته أستاذَ مدرسة، ومن ثمّ أقدم على قفزته المجازفة وانتقل مرّة واحدة إلى مجال مختلف تماماً، حيث عمل ناشطاً محترفاً لصالح فلسطين.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة في دمشق جبهة المقاومة الفلسطينية الأولى. انضمّ إليها أبو العباس حتى عام ١٩٧٧، أي العام الذي دعمت فيه الجبهة قرار سورية، بإرسال قوات إلى لبنان لمهاجمة منظمة التحرير الفلسطينية. هذه الخطوة دفعت أبو العباس إلى الانفصال عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة، وأعاد تأسيس جبهة التحرير الفلسطينية، كما كان يسمّيها، أو «الجبهة». كانت جبهة التحرير الفلسطينية في نظر الإعلام الغربي مرادفاً للإرهاب، لارتباطها بأبو العباس. ولكن في الحقيقة كانت هذه الجبهة بعيدة كل البعد عمّا يسمى إرهاباً. لقد كانت تجسيداً لكل ما حارب أبو العباس من أجله في حياته، ابتداءً من تحرير فلسطين، إلى إنشاء الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس وضمان حق العودة للاجئين الفلسطينيين.

جبهة التحرير الفلسطينية، ١٩٦١ - ١٩٦٦

تعود جذور جبهة التحرير الفلسطينية إلى زمن انتشار الفكر الماركسي وتفتّح الشيوعية العربية التي شاعت في الشرق الأوسط في الستينيات من القرن العشرين. أُسِّسَت الجبهة عام ١٩٦١ على أيدي اثنين من العقول الفلسطينية المتشابهة، هما أحمد جبريل وشفيق الحوت، وفي ما بعد انتقلت للعمل تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية التي قادها ياسر عرفات بنفسه من شباط ١٩٦٩ وحتى تشرين الثاني عام ٢٠٠٤. كان أحمد جبريل هو الآخر معروفاً باسمه الحركي أبو جهاد. ولكن يجب ألّا نخلط بينه وبين خليل الوزير الذي كان يعرف بأبو جهاد أيضاً، وكان من جماعة ياسر عرفات.

بعد عام النكبة ١٩٤٨ هرب جبريل مع عائلته إلى دمشق، ولم يكن قد تجاوز العاشرة آنذاك. وفي أواخر الخمسينيات من القرن العشرين انضّم إلى الجيش العربي السوري وترفّع لرتبة مقدم. لكن انتماءه الشيوعي أدى إلى استبعاده من الجيش خلال فترة الوحدة بين سورية ومصر التي لم تدم طويلاً، إذ لم يكن الرئيس عبد الناصر يرغب في وجود الشيوعيين في صفوف الجيش.

وبالرغم من أنّ أبو العباس لم يكن معجباً بجبريل، إلا أنه كان يقدّر عالياً شريكه الذي أسّس معه جبهة التحرير الفلسطينية، شفيق الحوت، الذي كان بالنسبة إلى أبو العباس أكثر مبدئية وعلمانية. ومن المهمّ أن نشير إلى أن الحوت هو متخرّج من أرقى جامعات لبنان، الجامعة الأميركية في بيروت، وعمل في مجال التدريس في الكويت، وهناك تعرّف إلى عرفات وإلى الرئيس الفلسطيني الحالي محمود عباس. كانت شخصية شفيق الحوت متّزنة أكثر من جبريل، فضلاً عن أنّ سجلّه المالي والسياسي أكثر نظافة. لم تتلوث يدا الحوت إطلاقاً بدماء الفلسطينيين، وقد ارتبطت كتاباته بأيديولوجية القضية الفلسطينية أكثر من جبريل على مرّ السنين، بالرغم من الالتزام الذي أظهره الأخير بالقومية العربية والفكر الماركسي اليساري.

في عام ١٩٦٦، شنّت جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة كل من جبريل والحوت، عمليتها العسكرية الأولى على إحدى المستوطنات الإسرائيلية في أعلى الجليل، ما أودى بحياة اثنين من الإسرائيليين. وأتبعت الجبهة عمليتها الأولى بثانية قبل فترة قصيرة من اشتعال حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل. وجاء بعدها عملية السينما في حيفا، حيث اعتقلت إسرائيل أحد قادة الجبهة، وهو سمير درويش، الذي كان أول عنصر من

عناصرها تطأ قدماه السجون الإسرائيلية. وفي عام ١٩٦٧ صارت جبهة التحرير الفلسطينية قبلة الشبان الطامحين للالتزام بالثورة الفلسطينية.

وبعد حرب الأيام الستة التي وقعت في حزيران ١٩٦٧، دُمجت الجبهة بقيادة جبريل والحوت مع «أبطال العودة» وحركة القوميين العرب، وذلك لتشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت حركة القوميين العرب برئاسة القياديّ الفذّ جورج حبش الذي كان مستقراً في بيروت آنذاك، وخرّيج الجامعة الأميركية، وكانت له مكانة كبيرة لدى الفلسطينيين. في الواقع، كان حبش بالنسبة إلى الفلسطينيين مثل نهرو بالنسبة إلى الهند، أو مثل شارل ديغول بالنسبة إلى فرنسا. كان معظم المراقبين يعتقدون أنّ جبريل محظوظ جداً بتلك الرابطة التي جمعته بحبش، وأنها ستعود عليه بالنفع الكبير، ولكن في نهاية ١٩٦٧ أصبح الفارق جليّاً بين حبش وجبريل في ما يخصّ العلاقات مع سورية. كان جبريل يريد التصاقاً أقوى مع سورية، ولكنّ جورج حبش كان يشعر بأنّ اعتماد القضية الفلسطينية بالكامل على سورية سيجعلها عرضة للخطر. وكان يرى أنه لا يمكن الوثوق بالسوريين، بالرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت تربط سورية بالاتحاد السوفياتي الذي أعلن هو الآخر موقفه المعارض لإسرائيل وداعميها من الأميركيين والبريطانيين. ونتيجةً لهذا الخلاف بين جبريل وحبش، انفصل جبريل عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأنشأ في العام ١٩٦٨ منظمة جديدة أطلق عليها اسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة. لا بدّ من أن نقول هنا إنّ هذه المنظمة الجديدة التي سلبت حبش اسم منظمته والعديد من قياداته أصبحت منظمة سورية الدعم والتمويل العسكري، ومقرّها في دمشق.

أبو العباس يعيد إحياء جبهة التحرير الفلسطينية
منطقة الفاكهاني، بيروت، ٢٤ نيسان ١٩٧٧

في عام ١٩٧٦ أرسل أحمد جبريل قوات من الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة، للانتشار في لبنان ومؤازرة القوات السورية ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وقع الخبر على أبو العباس كالصاعقة، وشعر بالاستياء الشديد من تلك الحركة. وشعر أيضاً بأنّ الأوان قد آن لإثبات ذاته، واتخذ قراره بالانفصال عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة، للانتقال إلى منظمة جديدة، ولكنها قديمة العهد. وبالفعل، أُعيد تأسيس جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة طلعت يعقوب الذي كان يعمل أستاذ مدرسة هو الآخر.

لم يكتف جبريل بعدم تقبّل فكرة انشقاق شريكه الأسبق، بل أعلن حرباً عليه، وفجّر المقرّ الرئيسي لجبهة التحرير الفلسطينية، الواقع في حيّ الفاكهاني في بيروت في شهر آب من عام ١٩٧٧. كان أبو العباس خارج المبنى في وقت ذلك التفجير الذي قضى فيه ٢٠٠ فلسطيني بدم بارد. لم يسامح أبو العباس جبريل قطّ على فعلته هذه، وكان ينعته أمامي بـ«الرجل المجنون».

لدى تسلّمه منصب الأمين العام لجبهة التحرير الفلسطينية، ضمّ أبو العباس رفاقه إلى أطرها، وبذل كل جهوده لإنجاح انتخاب رفيقيه عمر شبلي وأبو أحمد حلب في اللجنة المركزية للجبهة. كذلك قام أبو العباس بتعديل ميثاق الجبهة وإضافة مفاهيم «الاشتراكية» لعقيدتها، وذلك

للحفاظ على علاقة جيدة مع الاتحاد السوفياتي الذي كان فاعلاً قوياً في الشأن السياسي الفلسطيني ويرتبط بعلاقات ممتازة مع عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتمكنت الجبهة أيضاً من تأسيس ذراع إعلامية تمثلت بإصدار صحيفتها «إلى الأمام» دورياً. وأصبح أبو العباس الناطق باسم جبهة التحرير الفلسطينية، خاصة أنه الأقدر على التعبير عن رؤية المجموعة تجاه تحرير فلسطين. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد في حياة أبو العباس أي شيء آخر، فقد أصبحت فلسطين هاجسه الوحيد في الحياة ولا يضاهيها أهميةً أي نفوذ أو أمان أو مال أو صحة، ولا حتى العائلة.

نفذت جبهة التحرير الفلسطينية أولى عملياتها في عهد أبو العباس، عندما تمكن ثلاثة فدائيين ينتمون إليها من التسلل عبر الأردن ودخول منطقة الحمّة المحتلة في جنوبيّ الجولان واشتبكوا مع قوات الأمن الإسرائيلية بالقرب من منتجع محصّن، وذلك في عام ١٩٧٨، وبالتزامن مع غزو إسرائيل جنوب لبنان في عملية نهر الليطاني. نُفِّذت عملية الجبهة بنجاح، وعاد جميع أفرادها سالمين إلى بيوتهم من دون أن تتمكن القوات الإسرائيلية من إلحاق الأذى بهم. وجاءت العملية الثانية للجبهة إثر اغتيال السياسي اللبناني كمال جنبلاط الذي كان حليفاً للمقاومة الفلسطينية، وسُمّيت العملية باسمه. كانت تلك العملية سبباً في شهرة أبو العباس، حيث استُخدمت فيها طائرات شراعيّة هبط فيها مغاوير فوق الجليل واشتبكوا مع جنود إسرائيليين، ما أدى إلى مقتل غسان الكاخي واعتقال كل من جمعة خلف يوسف وعبد الحليم محمد الحافظ.

لكن عملية جمال عبد الناصر (كما سمّاها أبو العبّاس) كانت أشهر عملية

قامت بها جبهة التحرير الفلسطينية على الإطلاق، حيث جرى فيها هجوم على مستوطنة نهاريا الإسرائيلية في ٢٢ نيسان عام ١٩٧٩.

عملية جمال عبد الناصر، ١٩٧٩

خطّط أبو العباس مع زميله القيادي العسكري سعيد يوسف، لعملية ناصر، وذلك ردّاً على اتفاقية السلام المصريّة ــ الإسرائيلية التي وقّعها خليفة عبد الناصر في كرسي الرئاسة أنور السادات عام ١٩٧٨. نفَّذ هذه العملية أربعة من الفدائيين الشجعان الذين انتقاهم أبو العبّاس بمنتهى الدقّة والتأني، وكان ثلاثة منهم سوريين: عبد المجيد أصلان من حماة، محمد علي من السويداء، وأحمد الأبرص من اللاذقية، أما رابعهم وهو قائد المجموعة فقد كان سمير القنطار من جبل لبنان، الذي كان حينها في السادسة عشرة من عمره فقط (والذي أصبح في ما بعد عميد الأسرى اللبنانيين في السجون الإسرائيلية).

في ظل قيادة أبو العباس لجبهة التحرير الفلسطينية في السبعينيات من القرن العشرين، كان تدفق الشباب من مختلف البلاد العربية للانضمام إلى الجبهة أمراً مألوفاً جداً، ويشبه إلى حدٍّ بعيد تدفق الشباب للانضمام إلى فتح بعد معركة الكرامة عام ١٩٦٨. كان أبو العبّاس حريصاً على إفساح المجال أمام الشبان العرب من مختلف الجنسيّات للانضمام إلى جبهة التحرير الفلسطينية. لم تكن الجبهة يوماً فلسطينية بكل عناصرها، فقد كان أبو العباس يطالب بدعم جميع العرب من أجل تحرير فلسطين.

انطلق الشبّان الأربعة مساءً من مدينة صور جنوب لبنان، في قارب مطاطي

صغير مزود بمحرك خارجي بقوة خمسة وخمسين حصاناً لتصل سرعته إلى ٨٨ كلم بالساعة. وبحلول منتصف الليل، كانوا قد اجتازوا ١٠ كلم المياه الإقليمية الإسرائيلية، وتمكنوا من الوصول إلى شاطئ مستوطنة نهاريا. كانت الغاية من العملية استهداف قوات الأمن الإسرائيلية، وجذب انتباه العالم إلى القضية الفلسطينية.

اختلفت الروايات في سرد تفاصيل أحداث العملية من مصدر إلى آخر، إلا أن الكتّاب الغربيين كانوا يكررون دوماً رواية واحدة تقول إن فدائيي جبهة التحرير الفلسطينية اتصلوا بمنزل أحد المدنيين عبر الهاتف الداخلي (الإنترفون) وخاطبوا قاطنيه بلغة عربية لبثّ الرعب في نفوسهم بغية دفعهم إلى الاتصال بالشرطة، ولدى حضور رجال الشرطة أطلق أحدهم، وهو إلياهو شاشار، النار على الفلسطينيين (أو أنهم هم أطلقوا رصاصات تحذيرية وفقاً لرواية أجهزة الأمن الإسرائيلية؟)، وردّ الفلسطينيون عليه برصاصات أردته قتيلاً. يقول سمير القنطار إنه وحده أطلق ثلاثين رصاصة خلال تلك العملية. وبعد ذلك دخل الفلسطينيون إلى شقّة في شارع جابوتنسكي ٦١ حيث كانت الخطة تقضي باختطاف عدد من الإسرائيليين والعودة بهم إلى لبنان ليعمد أبو العباس في ما بعد إلى مبادلتهم ببعض السجناء الفلسطينيين القابعين في سجون الاحتلال. إحدى الشقق التي دخلها الفلسطينيون كانت شقة تشارلز شابيرو، وهو إسرائيلي قادم من جنوب أفريقيا، وقد تمكّن بدوره من قتل القيادي عبد المجيد أصلان بمسدسه الخاص. وتابع الشبّان الثلاثة الباقون العملية، إذ اقتحموا شقّة عائلة هاران وأخذوا داني هاران البالغ من العمر ٣١ عاماً وابنته أنيت رهينتين، واصطحبوهما إلى الشاطئ حيث حصل اشتباك مع قوات الشرطة

الإسرائيلية وعناصر قوات النخبة في لواء جولاني. الرصاصات اخترقت القوارب وأعطبتها، ما دفع القنطار إلى إطلاق النار على داني وابنته. اعتُقل القنطار ورفيقه الأبرص، بينما قُتل رفيقهم الثالث. وجاء الرد الإسرائيلي على هذه العملية سريعاً، فقد أمطرت مدافع البحرية الإسرائيلية قذائفها على مخيم نهر البارد الواقع شمال طرابلس. وأشارت تقارير الصحافة الغربية إلى أن ثلاثة من المدنيين لقوا مصرعهم خلال عملية القصف التي استمرت لمدة ساعة كاملة.

في عام ١٩٨٠ أصدرت المحكمة الإسرائيلية أربعة أحكام بالسجن مدى الحياة على كل من القنطار وأحمد الأبرص، بتهمة قتل أربعة من الإسرائيليين، وحكماً آخر بالسجن لمدة ٤٧ عاماً بتهمة إلحاق الأذى بجنود إسرائيليين. وفي عام ١٩٨٥ أُطلق سراح الأبرص خلال عملية تبادل الأسرى المبرمة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة. وقد أطلقت إسرائيل في تلك العملية سراح ١١٥٠ فلسطينياً (كان بينهم أحمد ياسين مؤسس حركة حماس) مقابل ثلاثة إسرائيليين كانوا قد أُسروا خلال حرب لبنان. أما سمير القنطار، فقد قضى نحو ٣٠ عاماً في السجون الإسرائيلية قبل أن يُطلَق سراحه خلال عملية التبادل التي قام بها الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله وإسرائيل في ١٦ تموز عام ٢٠٠٨.

الفصل السابع

تجربتي في عالم السياسة

بدأت حياتي السياسيّة في عام ١٩٧٠، وكنتُ حينها في الثامنة عشرة من عمري فقط، كنتُ ما أزال طالبة في المدرسة الثانوية، عندما انضممت إلى حركة فتح التي كان قد أسسها ياسر عرفات قبل عشرة أعوام. كانت ملهمتي في حركة فتح شادية حلو، تلك الشابّة الفلسطينية التي تكبرني ببضع سنوات فقط، وهي متخرّجة في الجامعة الأميركية في بيروت. كان الدافع للانضمام إلى حركة فتح بسيطاً جداً، هو: ستُحرَّر فلسطين بأيدي الفلسطينيين وحدهم. إنّ تعقباً بسيطاً لما قامت به الدول العربية منذ عام النكبة ١٩٤٨ يظهر بوضوح أن استراتيجية الاعتماد على هذه الدول في استعادة فلسطين خائبة. لقد كانت مجرد فكرة امتلاك الحكّام العرب القوة أو رغبتهم في اختيار ما لديهم من قوة وهماً فظيعاً. بالنسبة لعناصر فتح

كانت جميع بقاع العالم ساحة حرب متاحة للفلسطينيين وكل إسرائيلي هو عدو لهم. كان لصوت رسالة فتح هذه صدى في عقلي وعقل أبو العباس وعقل جيل بأكمله من شباب فلسطين الذي كبر في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

في عددها الصادر بتاريخ ١٩٥٩ أوضحت صحيفة «فلسطين نداء الحياة» الصادرة عن المجموعة أن حركة فتح ولدت من رحم الاحتلال والظلم والقهر وآلام اللاجئين الفلسطينيين المشرّدين في أصقاع العالم العربي. في ذلك الوقت كان هناك الكثير من المجموعات الفلسطينية السرّية وكم هائل من الحوارات والنقاشات. ولكن حركة فتح ظهرت بقوة ولقيت حظوة في الأوساط الفلسطينية بسبب الهزيمة في حرب الأيام الستّة مع إسرائيل عام ١٩٦٧. في أعقاب هذه الكارثة انضمت فتح لمنظمة التحرير الفلسطينية وحصلت على ٣٣ مقعداً من أصل ١٠٥ من مقاعد اللجنة التنفيذية في المنظمة. في الوقت الذي التحقتُ بالحركة كان ياسر عرفات قد أصبح رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب منصبه كرئيس لحركة فتح.

معركة الكرامة

الأردن، آذار، ١٩٦٨، معركة الكرامة

بعد مرور ثمانية أشهر على حرب الأيام الستة وتحديداً في شهر آذار ١٩٦٨، قامت قوات الدفاع الإسرائيلية بشنّ هجمات شرسة على الأردن وذلك بهدف تدمير معسكرات التدريب الفلسطينية في منطقة الكرامة. ولكن

منظمة التحرير الفلسطينية تمكنت، وبمساعدة القوات الأردنية، من سحب جميع عناصرها من منطقة الكرامة والتصدي في الوقت نفسه لتلك الهجمات. وعلى الرغم من المزاعم الإسرائيلية بتحقيق نصر تكتيكي في تلك المعركة، إلا أنها في الواقع حطمت أسطورة إسرائيل التي لا تقهر التي كانت تفاخر بها قوات الدفاع الإسرائيلي بعد حرب الأيام الستة. في تلك المعركة شنّت فتح الى جانب باقي المجموعات الفلسطينية، بدعم من الأردن، هجوماً قوياً على الجيش الإسرائيلي وصمدت تحت ثقل السلاح الإسرائيلي صموداً أذهل القوات العسكرية الإسرائيلية. كانت معركة الكرامة الانتصار العسكري اليتيم الذي حققه الفلسطينيون والمجد الوحيد الذي غمر الفلسطينيين على مرّ سنوات الاحتلال. لقد قدمت معركة الكرامة لعرفات ما قدمته حرب قناة السويس لعبد الناصر، إذ ارتقى عالياً إلى مصاف البطولة وسط سماء العالم العربي. وبالنتيجة تدفق آلاف الشبان للانضمام إلى حركة فتح في عمّان وبيروت ودمشق.

في شهر أيلول ١٩٧٠ بدأ عناصر فتح بتنفيذ تسلل من الأردن وشنّ هجمات داخل إسرائيل، مع اتخاذ لبنان قاعدة لهم آنذاك. في تلك الفترة كنتُ أقصد معسكرات فتح باستمرار، مرتدية الزي العسكري لأتدرب على الحركات القتالية والزحف على الأرض مع حمل بندقيتي تحت ذقني. وتعلّمتُ فنون التصويب والتسديد على الأهداف، وساعدتُ في تقديم الإسعافات الأولية للجرحى من المقاتلين الفلسطينيين. كنتُ ضمن الفريق الذي يقوم بنقل الجرحى من القرى الحدودية إلى مشافي بيروت. كنت أقضي أيامي بالذهاب والإياب إلى الحدود، أما في بيروت فكنت أساهم في بناء قاعدة علاقات عامة والتواصل مع الشرائح الاجتماعية وجمع الأموال من أجل

القضية الفلسطينية. إضافة إلى ذلك، كنتُ أزور المشافي لرفع معنويات الجرحى والبقاء إلى جانب من كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

في عام ١٩٧٦ شنّت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة هجمات على قوات منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، وفي العام التالي أسس أبو العباس مع رفيقه طلعت يعقوب جبهة التحرير الفلسطينية. وفي عام ١٩٨١ انقسمت الجبهة مع انفصال طلعت يعقوب عنها ورئاسته لفصيل يتلقى دعمه من سورية. وفي عام ١٩٨٢ وبعد أن غادرت قوات منظمة التحرير الفلسطينية بيروت وتركت زمام الأمور الأمنية بأيدي الولايات المتحدة وإسرائيل ارتكبت ميليشيات الكتائب مجزرة بحق اللاجئين القاطنين في مخيمات صبرا وشاتيلا وسجلت حصيلة قتلى راوحت بين ٨٠٠ و٣٥٠٠ شخص. وفي عام ١٩٨٣ رفض أبو العباس جهوداً سورية سعت إلى إقناعه بالوقوف ضد عرفات، وكانت النتيجة أن خسر مكاتب ومراكز تدريب جبهة التحرير الفلسطينية في سورية. وفي عام ١٩٨٤ رحّب عرفات مجدداً بأبو العباس وكافأه على ولائه بمنحه عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي عام ١٩٨٥، وإثر فشل عملية أكيلي لاورو، شجب طلعت يعقوب اعتداء جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة أبو العباس على سفينة أكيلي لاورو، وبدوره ردّ أبو العباس على ذلك بتوجيه انتقادات قاسية إلى يعقوب بشأن ارتباطه بسورية.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

غادرتُ فتح للانضمام إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أوقفتُ نشاطاتي في حركة فتح في عام ١٩٧١، وانضممتُ إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

التي كانت برئاسة صديق والدي الدكتور جورج حبش، بالإضافة إلى معرفتي التامة بجميع عناصر المنظمة، فقد كانوا يأتون باستمرار لزيارة والدي في المنزل. كنتُ بالنسبة إليهم «ابنة» المنظمة، وأنا كنتُ أبادلهم الشعور نفسه. لقد كنّا مأخوذين جداً بخطاب المنظمة اللينيني الماركسي، خاصة أنّ الروح الثورية كانت تغمرنا كشباب يافعين، وبالتالي كان الدافع لالتحاقي بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عاطفياً وفكرياً في آن واحد، لكن بالرغم من ذلك لم تكن لي أي صفة رسمية في الجبهة.

خلافاً لعناصر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كان عرفات إسلامياً حتى النخاع، وكان في شبابه منخرطاً في جماعة الإخوان المسلمين المصريين. ولا يغيب عن أحد مدى التناقض الكبير بين ذهنيّة الإسلامي والذهنيّة العلمانية الثورية التي كنا نحملها. كنتُ في تلك الآونة أنظر إلى العالم الرأسمالي الذي نشأتُ وترعرعتُ فيه كعالم متردٍّ ورجعي وخاطئ إلى حدٍّ بعيد. وكنتُ أريد مجتمعاً تنعدم فيه الطبقيّة ويقوم على أساس التوزيع العادل للثروات، كنتُ أريد إسقاط الأنظمة الموالية للغرب في العالم العربي واستبدالها بأنظمة شيوعية ماركسية واشتراكية.

صحيح أني فلسطينية، ولكن تطلعاتي ومفاهيمي المتنامية كانت عالمية، ولا تناقض في ذلك، فبيروت عموماً مدينة عالمية. لقد كان لغلبة الطابع المسيحي على سكان بيروت دور في وصول الإعلام الغربي إلى قلب بيروت ليتابع أهلها البرامج الرياضية أو السياسية ذاتها، وحتى أخبار المشاهير التي كان يتابعها الأوروبيون والأميركيون على قنوات التلفاز أو الراديو.

كانت البعثات التبشيرية هي التي أنشأت في الستينيات من القرن التاسع عشر

الجامعة الأميركية التي درستُ فيها والتي بقيت شاهداً على الحضور الأميركي المزمن في منطقتنا. وبما أني كنت شيوعية، لم أتقبّل الحكومات الغربية الرأسمالية على الرغم من الانتشار القوي لثقافتها في بيروت.

أما السوفيات، فقد كانوا تحت سلطة جيل قديم لم يتمكن في بعض الأوقات من البقاء في تلك السلطة، ولكنه كان داعماً دائماً للفلسطينيين على الصعيدين السياسي والمالي، وهذا يُعَدّ كافياً بالنسبة إليّ ولرفاق جيلي. كانت صور ماوتسي تونغ وتشي غيفارا تزيّن غرفتي في منزلنا في بيروت.

ومضات خاطفة،

بوليفيا، ٩ تشرين الأول ١٩٦٧، إعدام تشي في قرية لاهيغيورا

أُعدم تشي عام ١٩٦٧ على أيدي جنود قامت الولايات المتحدة بتجهيزهم وتدريبهم. وهنا اشتعل التوتر بين الشيوعية الصافية التي أقدّرها ورفاقي عالياً، وبين القوانين الذرائعية (البراغماتية) التي تحكم الأعمال اليومية للحكومات الوطنية، أيّاً تكن أيديولوجيتها. ما الذي كان يفعله تشي في بوليفيا؟ لقد كان تشي غيفارا ضمن الحلقة الحاكمة في عهد كاسترو، إلى أن بدأ في عام ١٩٦٥ بتوجيه انتقادات كثيرة إلى الاتحاد السوفياتي، من بينها أنه «شريك في الاستغلال الإمبريالي»، ردّاً على ذلك، أبعد كاسترو تشي من محيطه، وأفادت المعلومات المتناقلة أنّه غادر البلاد وشوهد في مقدّمة تظاهرة جُوبهت بالرصاص. جاهر تشي غيفارا بالحقيقة القاطعة. وفي عالم تحكم فيه الواقعية السياسية آفاق الشرق والغرب معاً، كانت كلمات غيفارا وبقاؤه على قيد الحياة أمراً مستحيلاً. كان غيفارا شهيد الشيوعية النقيّة التي لم تخلق

لتكون في أي من حكومات العالم، ولا حتى في الاتحاد السوفياتي، بالتأكيد. نحن نشكره على دعمه لنا الذي لولاه لكنّا أمواتاً، ولكن ذلك لا يعني أننا غير متيقظين لمواطن ضعفه.

الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين، ١٩٧٢

قبل انضمامي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كنتُ شخصياً أوجه انتقادات لها خلال حوارات مع الأصدقاء. فقد كانت هذه الجبهة صنيعة جيل قديم منعزل لم يكن يمتلك رؤيتنا العالمية ولا وعينا السياسي. عندما فكّك الأردن المعسكرات التدريبية الخاصة بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وطرد عناصرها المسلحين، كان ردّ قيادات الجبهة على ذلك الإجراء محبطاً بالنسبة إلينا. وجهتُ ورفاقي اتهامات إلى قيادات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بميلهم الجارف إلى اللعب على القوانين. أليست القاعدة الأولى في حياة الثائر هي خرق القوانين؟ هذا بالضبط ما فعلناه.

بعد عام كامل من العمل الودّي مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، غادرتُ ورفاقي تلك الجبهة وانضممنا إلى مجموعة منفصلة عنها. كنا نحو ١٥٠ شخصاً أسسنا الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين عام ١٩٧٢ بقيادة زميلنا أبو علي إربد. لم تدم تلك المنظمة طويلاً، ولم تحقق أية إنجازات جوهرية، ولكن الفكرة بحدِّ ذاتها كانت تطوراً، فقد نجحنا في جذب شبّان متمردين من فكر واحد تحت سقف واحد وضمن منظمة واحدة. لقد كنا نمثل بذلك المستقبل. كانت المثالية في الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين واضحة وصريحة، وبدت مقنعة إلى حدٍّ بعيد في ذلك الوقت. لقد

أسسنا قاعدة جمعت فلسطينيين في منطقة الفاكهاني في بيروت، وكنا نستعد للقيام بكثير من الأمور. طبعاً، في تلك الفترة اعتزلتُ رأس بيروت وكل ما فيها من أماكن راقية، مثل مطعم فيصل وويمبي الذي كنتُ أعشق الهمبرغر لديه، وتعودت على ارتياد مطاعم الوجبات السريعة ولقاء الأصدقاء وإجراء الحوارات والنقاشات الطويلة معهم في المقاهي الشعبية في منطقة الفاكهاني. واليوم عندما أستذكر تلك الأيام، أستغربُ فعلاً عدم بقاء تلك المنظمة وانعدام إنجازاتها. لقد كانت ببساطة جمعية حوارية، ولكنها تمكنت من استقطاب المثقفين الفلسطينيين واللبنانيين الشباب، وجمعهم في غرفة واحدة وتناول الأوضاع المتردية في العالم العربي.

محمد وعلي

في المنتدى الأول للجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين، التقيتُ محمد الغضبان الذي أصبح في ما بعد زوجي الأول. كان محمد في الرابعة والعشرين من عمره، من قرية كويكات في ضواحي مدينة عكّا. ولد محمد لأب فلسطيني وأم لبنانية، وكان شاباً وسيماً يتمتع بشخصية غنية بمُثُلنا الفلسطينية. ما زلتُ أذكر كيف جعل قلبي يخفق له، مع أنني اليوم مثل أي سيدة ينتهي زواجها بالانفصال، أتساءل كيف عميت بصيرتي عن رؤية الصورة الحقيقية لهذا الرجل الذي كان جذّاباً جداً آنذاك.

كان محمد طالباً في المرحلة الجامعية، ولكنه لم يكن مهتماً بحضور المحاضرات، ويعتمد على نفسه في دراسة جميع المواد، ولم يكلف نفسه أيضاً عناء إنهاء المطلوب منه كطالب للحصول على الدرجة الجامعية. بينما كنتُ

في ذلك الوقت أتابع تحصيلي الجامعي في أرقى جامعات لبنان، وهي كلية بيروت الجامعية التي تُعرف اليوم باسم الجامعة اللبنانية الأميركية.

كان محمد الابن الأوسط في عائلته، وكان مغموراً إلى حدٍّ ما أمام الحضور القوي لأخويه الآخرين، إذ كان أخوه الأكبر يدير عملاً ناجحاً في أفريقيا، ويعيل العائلة من هناك، بينما كان أخوه الأصغر علي سياسيّاً منذ نعومة أظفاره، والنجم الساطع في مجموعتنا. كان علي أحد مؤسسي الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين، وكان من أعزّ أصدقائي. كانت عقولنا وقلوبنا تطفح بالثورة فقط. كنا نطلق على علي اسم تشي، تيمّناً بتشي غيفارا الذي كان اسمه مرتبطاً على الصعيد الفكري بمفهوم الرجل الثوري الجديد الذي يُعَدّ شرطاً أساسياً لصناعة الثورات. كان صديق والدي جورج حبش يرفع القبعة عندما يأتي على ذكر غيفارا، وذلك تقديراً لـ«جيل الإنسان الجديد» الذي علّقنا عليه آمالنا. كان علي الغضبان بالنسبة لي ولرفاقي هو هذا الرجل. كان علي شاباً معروفاً ضمن مجموعتنا فقط، ولكنه كان بالنسبة إلينا المثل الأعلى والشخصية الملهمة والشعلة المتّقدة بيننا. كان علي يسمو فوق الجميع، وروحه تحلّق بعيداً جداً وعالياً جداً. كان التحدي الذي طرحه إزاء الوضع الراهن عميقاً جداً. كان مثالاً للتضحية. كانت الحياة تليق به كثيراً، كما كانت تليق بتشي غيفارا نفسه.

أما محمد، فقد كان راضياً أكثر بكثير من إخوته بحياته ضمن حدود الطبقة التي ولد فيها. التحق محمد بالجامعة، ولكنه كان يشعر بأنّ حصوله على الدرجة الجامعية لن يكون ذا جدوى، بما أنه ليس سليل عائلة ثرية، وبالتالي فقد الحافز لإكمال تحصيله الجامعي. لم تكن قيود الأصل والمنشأ

التي فُرضت على محمد لتشعره بالمرارة أبداً، بل كان يشعر، بحسب اعتقادي، أنه كان يتصرف بواقعية تامة. لم يكن يرغب في إضاعة الوقت والجهد في الوصول إلى ما هو أبعد من الممكن. لم يكن يرغب في الحصول على ما هو أبعد من امتداد ذراعه، ويمكننا القول إن محمد كان يفتقر إلى الحافز. كان يبدو فقيراً من الناحية المادية، مع أن أحواله المادية لا تختلف عن أحوال أخيه علي الذي لم ينعته أحد بهذه الصفة قط. يبدو أن محمد كان يمتلك غريزة البقاء فقط، فقد كان راضياً بمتع الحياة البسيطة المتاحة لديه. كنتُ ومحمد متفقَين في الأمور السياسية، كلانا ملتزم قضية تحرير فلسطين، ولكن كنا مختلفين في الطباع. كان محمد متقوقعاً، بينما أنا كنت مفعمة بالحياة. كان شخصاً شديد التردد، بينما كنت شديدة التهور، وكان الناس يلحظون ذلك ويصفونني بالنمرة (وهي في الوقت نفسه كنيتي - النمر). كنتُ أشعر بأنني أقضي حياتي على حوافّ الخطر، فيما كان محمد يحافظ دوماً على مسافة أمان تفصله عن المشاكل ليعيش حياته بسلام وهدوء نسبيين. لا أذكر أنه تكلّم يوماً على الملأ أو أبدى موقفاً علنياً طوال فترة انتسابنا إلى الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين. كنتُ أنا وعلي نقوم بالتخطيط لجميع مناسبات الجبهة، بينما يجلس هو في الزاوية.

ما الذي جذبني في محمد؟ هو أمر واحد فقط: لقد كان وسيماً جداً. كان علي يملك قلب غيفارا، ولكن محمد كان يملك شكله. كان محمد ذكياً جداً وقارئاً جيداً وكاتباً ممتازاً. ولكنني لم أستطع التغاضي عن عدم كتابته ولو حرفاً واحداً عن قضيتنا في ذلك الوقت. كان موسوعة بالنسبة إلينا، ولكنه ليس من ذلك النوع الذي يمكن تكريس معلوماته لتحقيق هدف ملموس.

حركة الطلبة المصريين، ١٩٧٣

في فترة من حياتي انخرطتُ قليلاً بحركة الطلبة المصريين. في السادس من تشرين الأول من عام ١٩٧٣ اجتاز الجيش المصري في عهد الرئيس السادات، قناة السويس وانتشر في صحراء سيناء خلال حرب تشرين (أو حرب أكتوبر)، وقامت القوات الإسرائيلية بمحاصرته نحو ثلاثة أيام، وبدا كأنه وقع في مأزق، ليعاود التقدم ثانية في ما بعد، ولكن الأوان كان قد فات بالنسبة إلى السوريين على جبهة الجولان. بينما كانوا يحرزون تقدماً منقطع النظير، غيروا توجههم بسبب هجوم إسرائيلي معاكس. كنا نشعر بأنّ استمرار القتال على الجبهة المصرية في سيناء سيزيد من فرص السوريين على جبهة الجولان.

في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني شاركتُ في التظاهرات الاحتجاجية التي خرجت ضد الرئيس أنور السادات ومحادثاته السرّية التي أجراها مع الأميركيين، والتي قادت في نهاية المطاف إلى توقيع مصر معاهدة سلام مع إسرائيل عام ١٩٧٨.

كانت الروح الثورية التي تجتاحنا تملي علينا تحرير فلسطين وإسقاط السادات في آن واحد. في القاهرة حضرتُ اجتماعات وخرجتُ في التظاهرات، الأمر الذي أوقعني في مشاكل مع السلطات المصرية، حتى إنني اعتُقلتُ ذات مرة في مطار القاهرة، واضطررتُ حينها إلى الاتصال بابنة خالتي نبيلة (أم اللطف)، وهي زوجة القيادي الفلسطيني فاروق القدومي، وخرجتُ بمساعدتها بكفالة. قضيتُ وقتها ليلةً في الزنزانة، حيث قام أحد الضباط باستجوابي بلهجة قاسية دفعتني إلى الرّد عليه بأجوبة جعلته يفور غضباً،

وفي النهاية لوّح بكلتا يديه في الهواء، مخاطباً أم اللطف: «خذيها، وقولي لها بأن لا تعود مجدداً إلى مصر».

التقيتُ خلال فترة مكوثي في مصر بسامي أبو ياغي، وهو طالب طب في جامعة القاهرة، وكان يشاركه السكن زميله توفيق قباني ابن الشاعر السوري الأسطوري نزار قباني. ينحدر سامي من عائلة أردنية ثرية.

باختصار، كنتُ في تلك الفترة أتهادى على وترين مختلفين من رومانسيات الحب في حبي لمحمد الفقير في بيروت وسامي الثري في القاهرة. كانت العلاقة مع سامي تسير بي في اتجاه يفتقر إلى التحدي الذي كنت أسعى إليه في الحياة. كان سامي سليل عائلة عريقة جداً، ويشبه إلى حد كبير شريحة أفراد العائلة التي نشأت فيها والأصدقاء الذين جمعتني بهم أيام الدراسة في المدارس الخاصة الباهظة التكاليف. في القاهرة كان سامي يهوى حضور حفلات الأوبرا، وعندما زارني في بيروت كان حضور محاضرة في الجامعة الأميركية في بيروت، برأيه، من أمتع الأوقات، بينما كنتُ على النقيض تماماً، فقد كانت متعتي ولهفتي ترنو إلى قضاء الليل بأكمله في نقاشات سياسية في الحانات الفقيرة. في أحد الأيام كتب لي سامي رسالة قال فيها: «لقد أنهيتُ دراستي الجامعية في القاهرة، وأستعدّ حالياً للسفر إلى الولايات المتحدة لتلقي التدريب اللازم للحصول على الخبرة المطلوبة لاختصاصي. ولكن قبل ذلك أرغب في زيارة بيروت لطلب يدك للزواج».

لم أكلف نفسي عناء الرد على رسالته، ولا حتى بكلمة شكراً، بل تعمّدتُ قطع جميع سبل التواصل بيننا، الأمر الذي كسر قلب سامي وأوصله إلى حالة من الاكتئاب وإلغاء سفره إلى الولايات المتحدة أيضاً. ولكنه بعد ذلك

سافر إلى لندن لإنجاز التدريب اللازم للاختصاص وتزوج فتاةً من فنزويلا، وأسّس عمله الناجح واستقرا في بلدها منذ أربعين عاماً حتى اليوم.

كنتُ ومحمد لا نزال شابين يافعين، وكان قد مضى على لقاءاتنا نحو عام كامل. ومع خروج سامي من حياتي، وقعتُ في حب محمد. وأعترف اليوم بأنّ الشعور بالشهوة كان جزءاً من ذلك الحب، إلا أنّ الأكثر من ذلك هو شعوري بأنّ محمد سيمنحني حياة مليئة بالالتزام والاستقرار. كنتُ أريد لحياتي أن تكون مهمّة، وأن أشارك في صناعة التاريخ. نعم، كنتُ أبحث عن تلك الإثارة الموجودة في ركوب المخاطر. كنتُ أحب المغامرة. ويمكنني القول إنّ مشاعري تجاه محمد كانت مصبوغة بعلاقة العمل التي نشأت وتطورت بيني وبين أخيه علي. كان محمد يمتلك وجه الرجل الذي أحبّ، وعلي يمتلك روحه. لقد كان الجمال الثلاثي الذي كنّاه، يفوق بأشواط الجمال المنفرد لكل منا.

في شباط ١٩٧٤ قررتُ أنا ومحمد أن نتزوج. كانت عائلتي تنظر إلى محمد على أنه شاب فقير منحدر من أحياء بيروت الفقيرة، بالإضافة إلى افتقاره روح المبادرة، ويرون باختصار أنه ليس الشخص المناسب أبداً. ولكن للأمانة، يجب أن نذكّر بأنّ عائلة محمد كانت من العائلات المشرّفة في قرى الجنوب اللبناني الذي كان يعاني أحوالاً اقتصادية متعثرة. ولكن هذا الكلام لم يلقَ أذناً صاغية لدى عائلتي في ذلك الوقت. عندما أخبرت والدتي بقراري الجريء، جُنّ جنونها ورفضت الفكرة بشدة، حتى إنها قالت: «لن يوافق والدك أبداً».

وعلى الرغم من أنني فتاة شجاعة ومندفعة، إلا أنني أدركتُ مدى حاجتي لرسم استراتيجية ناجعة. كان لديّ همّ آخر أيضاً، هو العبء المادي الذي دفعني إلى وضع مدخّرات مالية جانباً تمكننا من تغطية نفقات معيشتنا لعام

أو عامين إذا احتاج الأمر. وبدلاً من التوجه بقراري مباشرةً إلى والدي، لجأتُ إلى مدير مكتبه وصديق العائلة المؤتمن أكرم إسطنبولي. ولكنّ هذا الأخير عاد ملوّحاً برفض والدي القاطع، الأمر الذي جعلني أكثر تعنّتاً، إذ قلت له حينها: «يجب أن أتزوج». لقد كان قرار الزواج قراراً مناسباً لشخصية ثائرة مثلي. ألا يتعين على الثائر الحقيقي أن يبتعد في حياته عن الاستقرار والامتيازات ليعيش مع رجل فقير ضمن المجموعات الفلسطينية السرّية؟ ومن هنا بدأت بالتخطيط لهذه الحياة وترتيب الأمور المالية، وكنت متيقظةً لكل التفاصيل من الألف إلى الياء.

بيروت آذار ١٩٧٤، هربتُ مع محمد

كما كان يحدث في الأفلام العربية القديمة التي كنتُ مسحورةً بها، خاصة ذلك المشهد الذي رأيتُه في أحدها، تركتُ رسالة قصيرة لأمي قلت فيها: «أمي، لقد قررتِ الوقوف في وجه سعادتي ورفضتِ زواجي بالرجل الذي أحب لأنه شخص فقير ولأنكم عائلة بورجوازية فقط. لقد قررتُ المضيَّ وراء سعادتي والزواج به دون موافقتكم».

هربتُ أنا ومحمد بعيداً عن عائلتي إلى ألمانيا الشرقية على وجه التحديد، لأنّ علاقات والدي في سورية والأردن ولبنان والعراق كانت قوية جداً، وكان بمقدوره هو أو أحد أصدقائه الإمساك بنا. كنا نريد الذهاب إلى أبعد مكان ممكن، واخترنا ألمانيا الشرقية لأن علاقاتها كانت قوية مع الفلسطينيين آنذاك. والأكثر من ذلك، أنّ محمد كان فلسطينياً ــ لبنانياً، ولم يكن مسموحاً له بالحصول على تأشيرة دخول أي بلد. إنّ سفر الفلسطينيين

من لبنان أو أي بلد آخر، كان ولا يزال كابوساً بالنسبة إلى الفلسطينيين، إذ يجب عليهم الانتظار شهوراً للحصول على تأشيرة غالباً ما تُرفض، كذلك يُعامَلون بكل قسوة في جميع مطارات العالم. بالنسبة إليّ لم تكن هناك أي مشكلة، ما دمتُ أحمل جواز سفر أردنياً.

كان لهروبي مع محمد أثره في إلحاق الأذى بسمعة والدي الذي عانى حرجاً كبيراً، خاصة أنه وجهٌ من وجوه المجتمع، ويُعَدُّ مثالاً للاستقامة والنزاهة، وهو المصرفي الصلب الذي لا يمكن ثنيه في مدينة تدير مصارفها ثروات المشيخات العربية. كان بعض أثرى الأثرياء في بيروت والمنطقة يقصدونه لمعالجة أصولهم المالية. كانت حكمته وتقديراته للأمور أسطورية. ما الذي قالوه؟ هل قالوا إنّ ابنته لا تُطيع أمره؟ وإنه لم يعد قادراً على ضبط فتاة في أسرته؟ فقد والدي قليلاً من مكانته التي عُرف بها في مجتمع بيروت وفي الأوساط المصرفيّة، كذلك كان لزواجي تداعياته على عائلة النمر المحافظة. علم عمي رشيد، وهو الأخ الأكبر لوالدي والشخص الذي ربّاه واعتنى به، بزواجي وأصيب بعد ذلك فجأة بجلطة وتوفي بعدها. وألقت العائلة بلومها عليّ. في تقاليد عائلة النمر، لم يحدث يوماً أن تزوج رجل فيها فتاةً من خارج طبقتهم الاجتماعية، فكيف لفتاة من هذه العائلة أن تقوم بذلك؟ وكيف لفتاة من هذه العائلة أن تهرب خطيفة؟ حسناً، المسألة هي أنّ هذا الأمر لم يحدث من قبل.

اختطاف محمد

بقيتُ مع محمد في برلين الشرقية بضعة أسابيع، وعندما شعرنا بأننا حققنا ما أردناه، عدنا إلى لبنان وسجلنا زواجنا بشكل قانوني، وعدنا لمتابعة مهمتنا.

كيف سنحرر فلسطين؟ بالنسبة إلينا، كنا نرى أن مشكلة فلسطين لم تكن فقط بسبب الوجود الإسرائيلي بقدر ما كانت بسبب التخلف والأنظمة الرجعية التي كانت تحكم الدول العربية والتي باعت إلى الأبد مصالح الفلسطينيين. توجّهت مع محمد إلى صور، وعلى بعد عشرة كيلومترات منها وصلنا إلى قانا قرية والدته، ونادراً ما غامرنا بالتوجه إلى بيروت. عشتُ مع محمد في منزل قروي قديم ذي فسحة سماوية واسعة. فرق شاسع بين ذلك المنزل ومنازل النمط الأوروبي التي عشت فيها مع عائلتي في رأس بيروت. كانت قانا على بعد ١٢ كلم من الحدود الشمالية مع فلسطين. وبرزت قانا لاحقاً على الصعيد الدولي حين ارتكبت إسرائيل مجازر بحق أهلها في عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٦، ولكنها في عام ١٩٧٤ لم تكن سوى مجموعة من البيوت الصغيرة، غالبية قاطنيها من كبار السنّ ممن يأوون إلى فراشهم في الساعة الثامنة مساءً. طبعاً، لا وجود للمقاهي أو النوادي الاجتماعية، ونادراً ما تمرّ سيارة في شوارعها.

قانا، لبنان، نيسان، ١٩٧٤

اتخذتُ ومحمد الخطوة، وعدنا من أوروبا، لكنّ القلق من سلطة عائلتي المتنفذة لم يفارقنا، والخوف كان يتملكنا ليل نهار من وقوعنا في قبضة والديّ. بعد فترة قصيرة من عودتنا من ألمانيا الشرقية، وتحديداً في شهر نيسان، اختُطف محمد في أحد شوارع قانا على أيدي القوات الخاصة الفلسطينية التابعة لحركة فتح.

تملكني الرعب وبدأت التقصّي عنه، ليتبين في النهاية أنه في قبضة أبو إياد، القيادي في حركة فتح وصديق والدي المقرّب. اتصلتُ بمكتب أبو إياد،

وأخذت موعداً للقائه. انطلقت فوراً إلى منطقة الفاكهاني في بيروت، واندفعتُ بقوة داخل مكتبه لأجده واقفاً بشموخ، ومحاطاً بثلة من رجاله، كان بينهم اثنان من كبار مساعديه ممن تعرفت إليهم عن قرب في ما بعد، هما عاطف بسيسو وأمين الهندي، الذي أصبح محافظ غزة في وقت لاحق. بعاطفته الأولى القديمة رحّب أبو إياد بي، منادياً (الصغيرة ريم) على اعتبار أنه كان يعرفني منذ نعومة أظفاري. وكانت ترتسم في خياله فتاة صغيرة بضفائر تركض باتجاهه ليأخذ بيدها ويحملها إلى أهلها. لكنه في الحقيقة رأى شابّة تقتحم مكتبه وتصرخ في وجهه قائلة: «ما الذي تفعله؟ أنت خطفت زوجي! أنت تعمل لمصلحة القوى الرجعية في المجتمع! ألست أنت من كنت تدّعي الثورية عم أبو إياد؟ لماذا إذاً تتخلى عن كل مبادئك اليوم وترتكب جريمة كهذه؟».

كنتُ أخاطب أحد مؤسسي حركة فتح وأحد أبطال معركة الكرامة، ذلك الرجل الذي أرّقت شجاعته القتالية ليالي موشيه ديّان ومناحيم بيغين، فيما هو يقف مصغياً إلى توبيخ صبيّة في الثالثة والعشرين من العمر، وربما كانت تبدو أصغر من ذلك أيضاً. توقعتُ أن يرمي بي خارج مكتبه، لكنه لم يفعل. استمع أبو إياد إلى خطابي الناري الغاضب بصبر بالغ من دون أن ينبس ببنت شفة. اندفعتُ خارج مكتبه بالطريقة الوقحة نفسها التي دخلتُ بها. اتصل بوالدي فور خروجي ليخبره بما حدث، وكان جواب رفعت النمر: «لجهنم هي ويّاه. طالعوه. أنا لا أريد سماع سيرتهم طوال حياتي». وبعد بضع ساعات، أُطلق سراح محمد ليعود إلى منزله في قانا.

ومع حصولنا على هدنة مع عائلتي، عدتُ مع محمد إلى بيروت، وإلى

التواصل مع أخيه علي ومتابعة مسيرتنا في المقاومة. كنتُ أنا ومحمد وعلي نعمل كفريق واحد بكل جدّ، على الرغم من أنّ محمد كان شريكاً صامتاً بيننا. من المؤكد أن انفصالي عن عائلتي كان أمراً صعباً، وربما كانت الحياة أفضل لو أن محمد وجد عملاً أيضاً، ولكن على الرغم من كل ذلك كنتُ أنا ومحمد وعلي معاً، وكانت مشاركة علي في النشاط السياسي مُجدية ومُرضية بالنسبة لي، وكانت حياتي الزوجية مع محمد على خير ما يرام. مع بداية عام ١٩٧٤ انتابنا نحن الثلاثة شعور بأنّ شيئاً ما سيحدث لنا من دون أن نعرف تماماً ما هو. كانت بيروت عاصمة الأموال في العالم العربي آنذاك، وكانت منطقة آمنة جداً، والكل بحاجة إليها، وبالتالي لن يجرؤ أحد على اختراقها. كنتُ أنا ومحمد سعيدين بحياتنا الزوجية، وكنا ننعم بالأمان والثقة إلى حدٍّ بعيد، وقررنا تكوين عائلة، وكان لنا ذلك عندما أنجبنا طفلنا الأول في شهر تموز من ذلك العام.

الفصل الثامن

سموات متلبدة

في صيف عام ١٩٧٤ كانت غيوم الشؤم تتكاثف في سماء لبنان، منبئةً باشتعال الحرب الأهلية فيه ربيع العام التالي.

أسباب الحرب الأهلية باختصار

يمكننا بكل بساطة أن نعزو أسباب الحرب الأهلية التي اندلعت في نيسان عام ١٩٧٥ في لبنان إلى فترة الانتداب الفرنسي في الشرق الأوسط. كان لبنان في ذلك الوقت يقبع تحت سلطة حكومة ترجح فيها كفة المسيحيين وفقاً لموازين القوى في هذا البلد. كان الفرنسيون قد عملوا خلال فترة الانتداب على تغيير التقسيمات الإدارية والحدودية القائمة في الدولة العثمانية، فضمّت إلى جبل لبنان وادي البقاع الخصيب مع قاطنيه من

المسلمين. لاحقاً أصبحت الغلبة للمسلمين في التعداد السكاني في لبنان. وزادت في اختلال ذلك التوازن التأثيرات المضاعفة لنكبة (١٩٤٨) الفلسطينية، التي أُرغم الفلسطينيون على مغادرة بيوتهم واللجوء إلى الدول المجاورة كالأردن على وجه التحديد.

بعد الحرب العالمية الأولى، مُنح الملك عبدالله وعشيرته الهاشمية الحكم على إمارة الأردن الحديثة العهد. بعد نصف قرن، قادت منظمة التحرير الفلسطينية قوات مسلحة جعلت من الأردن قاعدة لها ومنصة لشنّ عملياتها على إسرائيل. وبعد معركة الكرامة والبسالة التي أبدتها عناصر منظمة التحرير الفلسطينية فيها، امتلأت الأجواء السياسية بسؤال واحد: هل عرفات ومنظمته هما من يحكمان الأردن، أم الملك حسين وعشيرته الهاشمية؟ في أيلول عام ١٩٧٠ اشتعلت الحرب بين الملك حسين – حفيد الملك عبد الله – والفلسطينيين لدى شنّ الجيش الأردني هجماته على القوى الفلسطينية المتمركزة في عمّان ومواقع أخرى في كامل أنحاء البلاد.

السوريون قاموا بمؤازرة الفلسطينيين عبر اجتياح الأردن من جهة الشمال، ولكن من دون استخدام سلاح الطيران في تلك المعركة. وبعد عامين من انسحابهم شهدت سورية انقلاباً عسكرياً أوصل حافظ الأسد إلى الإمساك بزمام السلطة المطلقة. لم يكن حافظ الأسد ليسمح للمقاتلين الفلسطينيين بتخطي حدود بلاده. بعد الضربات الأردنية العسكرية للفلسطينيين والتردد السوري، طُرد الفلسطينيون إلى دولة الجوار الوحيدة الباقية التي كانت أضعف من أن تعارض دخولهم: لبنان. في أثناء ذلك، هلّلت بعض الفصائل الفلسطينية لسورية لتدخلها العسكري في الأردن، واستمرت في

وقوفها إلى جانب الأسد حتى النهاية، ولكن الفصائل الأخرى شعرت بأنّ القوات السورية لم تقم إلا برفع معنويات الفلسطينيين، لتتركهم في ما بعد لمصيرهم في الموت أو النفي إثر تأزم الأحداث.

في السابع والعشرين من شهر أيلول، اجتمع الحكّام العرب وأرغموا الملك حسين على الموافقة على وقف لإطلاق النار في حربه على الفلسطينيين. لكن في اليوم التالي جاء خبر وفاة الرئيس المصري عبد الناصر بنوبة قلبية، وخسر الفلسطينيون حاميهم، وبالتالي تابع الملك حسين عمليته العسكرية ولم يأتِ الحكام العرب بأي ردّ فعل إزاء ذلك. في تموز من عام ١٩٧١ تمكن الملك حسين من استعادة سيطرته على كامل البلاد، وطرد جميع المجموعات الفلسطينية المسلحة إلى لبنان. وخلال الأعوام الثلاثة التي تلت ذلك، سيطر الفلسطينيون المسلحون على منطقة جنوب لبنان، واستخدموها قاعدة لشنّ هجماتهم على إسرائيل، وقد كانت لهم أيضاً قواتهم المقاتلة في بيروت. كانت منظمة التحرير الفلسطينية تشعر بكل بساطة بأنها تقوم بعمليات مناهضة للاحتلال الإسرائيلي. التفّ المسلمون اللبنانيون والقوميون العرب وسياسيو اليسار تحت مظلة الحركة الوطنية اللبنانية، حول الفلسطينيين الذين قدموا لهم ثقلاً سياسيّاً وأصبحوا الآن فقط قادرين على الفوز على الكتلة المسيحية التي خلّفها الفرنسيون في سدّة الحكم. طبعاً، المسيحيون الموارنة الذين يسيطرون على كرسي الرئاسة والجيش الوطني في لبنان، اعتبروا القوات الفلسطينية قوات احتلال أو شبيهة بالاحتلال. وببساطة، أصبح من الصعوبة الدفاع عن الموقف المسيحي. وولدت الحاجة إلى توازن جديد، ولكن القادة الموارنة شعروا بأنّ تهديد مكانتهم السياسية هو في الحقيقة تهديد لوجودهم بأكمله. ماذا

بمقدورهم أن يفعلوا إذا نشب القتال؟ لقد كان لديهم إحساس داخلي بأنّ إسرائيل ستأتي لإغاثتهم.

أما سورية، فكانت من جانبها تسعى وراء مصالحها، والسوريون أنفسهم كانوا لا يزالون يعتقدون في أعماق مشاعرهم أن لبنان مجرد محافظة سورية، ولطالما اتخذوا من الحدود التي وضعتها الإمبراطورية العثمانية لتلك الأراضي دليلاً على سلطتهم عليها. كانت المخابرات السورية منتشرة في كل مكان في سورية، حيث كانت الطبقة النخبوية ممنوعة من إظهار بذخها، لأن انغماس ضباط البعث بنمط الحياة الرغيد من شأنه تشويه مُثل الاشتراكية التي ينادي بها حزب البعث.

أما في بيروت، «فكل شي بيصير»، حتى إن تلك الطبقة النخبوية السورية نفسها جنت أموالاً طائلة من خلال سيطرتها على ممرات التهريب إلى سورية، إضافة إلى أنّ الاقتصاد السوري كان يعتمد على بيروت، لأنها نقطة عبوره إلى العالم. كانت الحكومة السورية متضامنة رسمياً مع القضية الفلسطينية، ولكن سورية في النهاية لم تكن لتقف إلى جانب أي حزب أو حركة على وجه التحديد، ولكنها تتمسك بموقعها الفعلي كأخ كبير يفرض سلطته على الدولة اللبنانية المستقلة ظاهرياً. كان هدف السوريين من كل ذلك إبقاء لبنان ضمن إطار سيطرتهم.

المنظمة الشيوعية العربية، ١٩٧٤

بما أنني كنتُ حاملاً بطفلي الأول، حوّلتُ ومحمد جهودنا نحو نمط مختلف من المفاهيم على الصعيد السياسي. وفي شهر آب ١٩٧٤ غادرنا

الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين التي لم تعمّر طويلاً بالأساس وانتقلنا للمشاركة في تأسيس مجموعة أخرى، هي المنظمة الشيوعية العربية بلجنة أولية مؤلفة من ١٢ عضواً. في ذلك الوقت كانت العمليات التي تديرها منظمة التحرير الفلسطينية ضد إسرائيل في أدنى مستوياتها. وعلاوة على كل ذلك، كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد عقدت اتفاقيات مع سورية وباقي الأنظمة العربية تضمن بقاء هذه الأنظمة بعيداً عن شرك الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتداعياته. اختارت هذه الأنظمة النأي بنفسها بعيداً عن العمل العسكري بديلاً من التصدي ومجابهة إسرائيل، ولإرضاء الفلسطينيين سمحوا لمنظمة التحرير الفلسطينية بمناوشة قوات الدفاع الإسرائيلية من دون وجود أمل حقيقي في تحقيق أية انتصارات.

لذا أرادت المنظمة الشيوعية العربية معاقبة الدول العربية على رضوخها وإيصالها العمل العسكري ضدإسرائيل إلى طريق مسدود. كان هدفنا في المنظمة ضرب ما كنا نعتقد أنه أنظمة داعمة للغرب في السعودية ومصر ولبنان وسورية، لأن هذه الأنظمة وقفت موقفاً مؤيداً لدى قيام الملك حسين بخرق اتفاق وقف إطلاق النار، الذي اتُّفق عليه مسبقاً، وعاود إشعال حربه ضد القوى الفلسطينية، وتمكن على مدى عشرة أشهر من قتل أو طرد جميع عناصر منظمة التحرير الفلسطينية خارج الأردن. لولا خداع هذه الأنظمة ومكرها ونكرانها قضيتنا، لكانت فلسطين قد تحررت قبل ذلك بسنوات عدة. والحكومة السورية على وجه التحديد آثمة حتى الصميم.

خلافاً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ذات الطابع الانفعالي، وللجبهة

الشعبية الثورية لتحرير فلسطين ذات الطابع الشاعري، تميّزت المنظمة الشيوعية العربية بتركيزها على قضايا عدة، أهمها: شراء السلاح، تدريب المقاتلين، والحصول بالقوة على ما اعتبرنا أنه من حقنا تماماً. ترأس المنظمة علي الغضبان، شقيق زوجي محمد، وأنا كنتُ أحد مساعديه. وكان أول ترتيب نقوم به هو خلق خلايا سرّية لنا داخل البلدان المستهدفة، وكانت سورية نقطة البداية. وللحصول على التمويل اللازم لتغطية نشاطاتنا، اتبعنا نهج روبن هود، مع وجود اختلاف صغير، هو أننا قررنا أن نسرق الأغنياء من أجل تحرير الفقراء من الجور والطغيان، لا من أجل إطعامهم. كيف يمكننا تمويل أعمالنا؟ حسناً، بما أنّ والدي كان رجلاً مصرفيّاً، فنحن نعرف بالتأكيد أين توجد الأموال.

كانت مسألة خرق القانون تتناقض بشدة مع المبادئ التي نشأتُ عليها في طفولتي ضمن عائلة تعتمد في عيشها على العمل في مجال المصارف والبنوك، الأمر الذي يضعنا ضمن علْيَة القوم في المجتمع أو على الأقل في أعلى مرتبة اجتماعية قد يصل إليها الفلسطيني في لبنان. وكانت البنوك تحديداً من أكثر المؤسسات التي تقوم على أسس من القوانين الواجب اتباعها واحترامها. كانت عائلتنا أبعد ما يمكن عن عالم المجرمين. ولكن في تلك الفترة من حياتي، كنت عبدةً لتلك الشخصية الثورية التي اخترعتها لنفسي، ولم أجد وسيلة أخرى لجني المال ودعم مسيرة المقاومة، إلا بخرق القوانين. كان لدينا شعور بأننا قطعنا أشواطاً وابتعدنا عمّا كنا عليه أيام الجمعية الحوارية في الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين. كانت لدينا خطة، وعلينا البدء بتنفيذها.

ولادة طفلي الأول، ١٩٧٥

كانت الاعتداءات والاعتداءات المضادة في الحرب الأهلية في لبنان تتصدر أخبار المنطقة، ولكن أنا ومحمد كنا نكرّس كامل تفكيرنا على عملنا في المنظمة الشيوعية العربية وعلى عائلتنا التي كبرت في شهر نيسان من عام ١٩٧٥ حين وضعتُ طفلي الأول لؤي. خلال الأشهر التالية، تركتُ العناية بطفلي لأساعد علي في التخطيط لعمليتنا الأولى، أما محمد فكان كعادته لا يفعل شيئاً. رافقتُ علي في زيارات عدة لسورية، لتوسيع قاعدة المنتسبين إلى المنظمة، ولاختيار مواقع محتملة لتنفيذ هجماتنا. من بين الأمور التي لاحظناها في دمشق وجود شركات أميركية مشاركة في معرض دمشق الدولي. وكانت الخلية التي أنشأناها في دمشق تتخذ مقراً لها في بناء يسكن فيه فهمي اليوسفي الذي كان يشغل منصب رئيس البرلمان السوري آنذاك، وبالتالي لن يخطر للسلطات السورية أن تبحث عنّا في بناء يسكنه أحد مسؤولي النظام المرموقين والمؤتمن على تفاصيله السرّية. وفي النهاية قررنا تفجير وزارة الدفاع السورية الواقعة في ساحة الأمويين في قلب العاصمة السورية. كنا بحاجة إلى المال لشراء الديناميت اللازم للعملية، لذا سطونا على أحد البنوك في مدينة صيدا وعلى آخر في مدينة صور. واحتراماً لوالدي ومهنته، وقع اختيارنا على تلك البنوك التي لم يكن لوالدي أي صلة بها. كان علي في كل عملية سطو يضع قناعاً يغطي وجهه بالكامل إلا عينيه، ويقتحم البنك حاملاً سلاحه بيده، بينما أقف أنا عند البوابة بوجه مغطى ويد تحمل بندقية شبيهة بتلك التي تدرّبت على استخدامها في معسكرات فتح. وفور خروج علي من البنك مع المال المسروق، أنطلق به في السيارة

إلى مكان آمن، مثبتةً في كل مرة مهاراتي في القيادة الرعناء. وفي المساء كنت أعود إلى بيروت للعناية بطفلي الصغير.

عندما كنتُ موظفة إدارية لدى حركة فتح، ساعدتُ الحركة في الحصول على التبرعات، ولكن في المنظمة الشيوعية العربية كان جمع التبرعات لا يتطلب الكثير من ساعات العمل المكتبية أو مهارات المحاسبة. في نهاية المطاف، تمكنا من جمع ـ أو في الحقيقة ـ من سرقة مبلغ إجمالي، قدره ١٢٠,٠٠٠ ليرة لبنانية. كان هذا أحد الأسرار التي لم أفصح عنها لوالدي الذي توفي عام ٢٠٠٧ عن عمر يناهز ٨٩ عاماً، من دون أن يعرف أنّ ابنته الغالية كانت سارقة بنوك. إذا كان هروبي مع محمد قد سبّب الأذى والحرج لوالدي، فمن المؤكد أن انتشار صيت ابنته كخارجة عن القانون كان سيقضي عليه نهائياً.

دمشق، تموز ١٩٧٥ ضربات المنظمة الشيوعية العربية

زرع بعض من عناصر مجموعتنا المتفجرات عند بوابات وزارة الدفاع السورية في شهر تموز بينما كنتُ أنا ومحمد نحبس أنفاسنا في بيروت. وأخيراً، جاء نبأ التفجير الذي ألحق أضراراً بمبنى الوزارة وفق خطتنا المرسومة، ووصلت رسالتنا الى الحكومة السورية. لقد تذوقنا ثمرة انتصارنا، ولكن ما هي الرسالة التي تلقتها الحكومة السورية بالضبط؟ هل أحرزنا فعلاً تحولاً في السياسة السورية تجاه القضية الفلسطينية؟ في الوقت الذي كانت فيه الأجواء السياسية تحفل بهذه الأسئلة، بدأت السلطات السورية على الفور باصطياد عناصر المنظمة الشيوعية العربية واعتقال أي شخص يمتّ

بأدنى صلة إليها وفق مذكرات اعتقال مذيلة بتوقيع الرئيس السوري حافظ الأسد. وقد تحسسنا أنياب الأسد فعلاً في تلك اللحظة.

اختطف عملاء جهاز الاستخبارات السوري صديقي علي في لبنان، وأرسلوه إلى دمشق. في ليلة وصوله إلى دمشق، خضع علي لمحاكمة صورية، وفي اليوم التالي أُعدم مع رفاقه على مرأى من العامة بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٧٥. لقد تركهم حافظ الأسد يتأرجحون في الهواء في ساحة المرجة التي شهدت إعدامات لناشطين سياسيين نُفذت أيام الإمبراطورية العثمانية، ومن بعدها سلطات الانتداب الفرنسي. كان علي في الخامسة والعشرين من عمره فقط عندما فارق الحياة، تاركاً خلفه زوجته الشابّة وطفله الذي لم يكن قد رأى النور بعد. كان بين من شُنق معه من رفاقنا، حمد غياث شيخة الذي كان طالباً في كلية الهندسة بجامعة دمشق، ووليد عودان ومحمد خير نايف وعلي حوراني. واستطاع أبو إياد تخليص ثلاث فتيات من رفاقنا اللبنانيين من حبل المشنقة وانتزاعهم من فم الأسد، هنّ يمنى ولوسي وليلى (وهي أسماؤهنّ الحركية)، ومنحهنّ ملاذاً آمناً في مواقع سرية تقع تحت سيطرة حركة فتح. أما نحن، فنُشرت صورنا تحت عنوان «مطلوب للعدالة» في الصحف السورية اليومية. وهنا أصبحتُ أنا ومحمد شخصين غير مرغوب فيهما بالنسبة إلى أبو إياد (صلاح خلف)، فلم نتلقّ أيّ حماية أسوةً برفاقنا، وبالتالي كان علينا ترتيب مكان للاختباء فيه. وبالفعل، تمَ الأمر بمساعدة أحد حلفائنا في المنظمة الشيوعية العربية، وهو محامٍ لبناني قدّم لنا مفاتيح منزله في صيدا، وقال: «بإمكانكما المكوث فيه حتى يزول الخطر». ومن صيدا انتقلنا إلى مخبأ آخر وسط بيروت حيث مكثنا في بناية يعقوبيان المطلة على شاطئ البحر.

أنا التي عشتُ وكبرتُ في بيئة من الوفر والرفاهية واستمتعتُ بكل ترفها، تغيّرت أيامي وأضحت حياتي صعبة، خاصة أنني كنتُ مسؤولة عن طفل لم يتجاوز عمره أربعة أشهر. كنت خائفة على سلامتنا وأفكر دوماً في المستقبل الذي كنتُ أصنعه لولدي. كانت فكرة اللجوء إلى والدي تعصف بي وتعتصرني. نعم، لماذا لا أتصل بهذا الرجل القوي وأعتذر منه وأرمي بنفسي في كنفه؟ ولكن لا، لست أنا من يقبل الانكسار. على الرغم من حدة الصعوبات في حياتي، إلا أنني كنتُ أستمد قوتي على ما يبدو من مرارة تلك الأيام ذاتها. كان بإمكاني الارتباط بسامي والحصول على لقب زوجة طبيب بمباركة من العائلة وقضاء الأيام في النوادي المطلّة على البحر المتوسط، لكنني اخترتُ محمد بهدف عيش حياة واعدة بالمغامرة وذات معنى كبير. وظلّ محمد على هذا الوعد بكل وضوح، ولكن كان علينا الانتظار. هل كان محمد يقودني فعلاً إلى حياة صاخبة ومليئة بالمغامرة والالتزام؟ أم أنني أنا من كنت أقوده؟

كان خائفاً جداً، لدرجة أنه لم يخرج إطلاقاً من شقتنا الجديدة في بيروت، وكان طوال الوقت ممتعضاً من الوضع. لم يكن محمد من نوع الشباب المتشوق للانقلاب على مجريات حياته، ويعزو ذلك إلى أنه ينحدر من أسرة مستورة الحال، ولكن علي ــ خلافاً لأخيه ــ كان لديه شعور بأنّ الفقراء وحدهم من يخسرون لدى اندلاع الصراعات. كان محمد يعرف تماماً أنّ الأموال لا تنبت على أوراق الشجر، وكان يقدّر عالياً الحياة المستقرة والثابتة حيث يتنفس المرء الصعداء في الصباح من دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. كيف كان محمد ينظر إليّ في أعماق قلبه؟ لقد كنتُ سليلة عائلة غنية وفتاة مدللة لأب متساهل حاربته من أجل الحصول على الاستقلال في

حياتي. كنتُ أبحث عن جوهر الحياة وأرفض أي إغراء للتخلي عن فكري الملتهب بشأن تحرير فلسطين. واليوم، بعد أن نفّذتُ وعلي ما خططنا له من اعتداء على سورية، كان محمد هو من يدفع ثمن فعلتنا تلك. كانت دماء علي ومذكرات الاعتقال الصادرة بحقنا والطفل الذي أنجبناه هي الرابط بيني وبين محمد. لماذا يشعر الآباء الصغار دوماً برغبة في الهروب عندما تقع على عاتقهم مسؤولية طفل جديد يحتاج إليهم؟ نعم كان محمد مذعوراً. كان يعيش حياةً مرسومة في أحلامي، ولا بد أن نغفر له عندما كان يتساءل عمّا إذا كانت تلك الأحلام مجرد أوهام. لم يطلب ذلك في حياته قط.

كنتُ أقوم بأعمال التسوّق والعناية بالطفل وألتزم حضور ما بقي من الاجتماعات السرّية مع رفاقنا الفلسطينيين. في أحد الأيام رأيتُ مجموعة من الرجال يرتدون لباس القوات السورية العسكرية التابعة لفرق الصاعقة ويقفون عند زاوية شارعنا، وعرفتُ حينها أننا مراقبون. وعلى الفور هرعتُ لأحزم حقيبتي وحملتُ طفلي بين ذراعيّ وتسللتُ من الباب الخلفي للبناء وانطلقتُ بسيارة أجرة. محمد لحق بي مذعوراً هو الآخر.

على الرغم من من أننا كنا نسكن بعيداً عن أعين السلطات، إلا أننا لم نكن نشعر بأيّ حماسة في حياتنا المليئة بالالتزامات. كنا ملاحقين من المخابرات السورية والخلاف مع أهلي كان لا يزال قائماً أيضاً. كنا في كل لحظة نتوقع أن يأتي أحد لإلقاء القبض علينا بأوامر من والدي. وماذا سيحل بطفلي؟ بدلاً من أن يكبر في كنف حبّ جدّيه، كان عليه أن يعيش متنقلاً من مخبأ سيّئ إلى آخر. لم تكن حياته مريحة ومستقرّة كحياتي عندما كنتُ في مثل عمره. كانت الكآبة تملأ قلبينا وعالمنا ينهار. صديقي غيفارا رحل وتركني وحيدة

من دون رفيق أو أخ أو حتى إلهام يغذي الروح. لم يعد هناك أمل في إنجاح حياتنا معاً.

عدتُ ومحمد للعيش في قرية والدته حيث اقترح عليّ العيش مع عائلته في قانا، فيما يسافر هو إلى أفريقيا للعمل مع أخيه. يعني نستمر كزوجين، ولكن كل منّا في جهة أو من الممكن أن يكون لعائلته رأي في الموضوع وترفض هذا الاقتراح، وبالتالي ننفصل بوثيقة طلاق شرعية. وبدوري استمعتُ للاقتراح وخرجتُ باقتراح معاكس، وهو أن نهرب معاً باتجاه الشرق عبر دمشق. كنتُ أستند في اقتراحي إلى ما وعدني به أحد الأصدقاء من تدبير هويات لبنانية مزورة لي ولمحمد. من المؤكد أنّ الذهاب إلى المدينة التي لها ثأر علينا كان ضرباً من الجنون، ولكن لم يكن لدينا أي خيار آخر، لأنّ لبنان مفتوح على البحر من جهة وعلى سورية من جهة وعلى إسرائيل التي لا يمكننا الفرار عبرها. اليوم أتساءل في نفسي لماذا لم نذهب عبر قبرص، إذ من المؤكد أن العملية كانت أسهل وأقلّ خطورة من عبور دمشق. لكنّ دمشق في الوقت نفسه هي آخر مكان يخطر ببال المخابرات السورية أن تبحث عنّا فيه. تركنا طفلنا الصغير في منزل جدّه في قانا، وتمكنّا بفضل الهويات المزورة باحتراف من عبور النقاط الحدودية ودخول سورية، واتجهنا نحو جوبر، تلك المنطقة التي تقع شمال شرق العاصمة دمشق، وتحوي كنيساً يزيد عمره على ٢٠٠٠ عام، حيث قصده الحجيج من اليهود عبر العصور. وفي جوبر نزلنا في منزل شخص فلسطيني من بدو صحراء النقب. كان الرجل يرتدي لباساً شعبيّاً وفي فمه سنٌّ ذهبية تلمع مع كل ابتسامة. وكان في فناء المنزل دجاجات تمرح وديك يوقظنا كل صباح بصياحه. كنا ننام ببطانية مهترئة في ركن منفصل

عن باقي أقسام المنزل، وفي الليل كان أولاد الرجل يلتفّون حول البطانية ليراقبوا هذين الغريبين اللذين هبطا عليهم من كوكب آخر لمشاركتهم منزلهم وطعامهم وحيواناتهم. لم تكن الحياة في جوبر مريحة، ولكنها آمنة، وقد منحتني الوقت للتفكير في مسألة لم تخطر ببالي من قبل، هي أنني أنا ومحمد هربنا في أحد الأيام وتزوجنا من دون توافر أيّ عامل من عوامل الزواج الناجح بيننا. لم يكن لدينا منزل نسكنه، ولم يكن لدى محمد عمل. كنا غير متوافقين، لا عقلياً ولا اجتماعياً، على الرغم أننا كنا نؤمن بالأهداف السياسية ذاتها، إلا أنّنا كنا مختلفين تماماً في التعاطي في الشأن السياسي. كنتُ عنصراً ناشطاً في مجال السياسة، بينما كان هو عنصراً مراقباً فقط. وبالطبع أصبحنا اليوم نعاني عواقب ما أقدمنا عليه. صحيح أنني نجحت ورفاقي بفعل شيء ما، ونفّذنا عملاً عسكرياً، ولكننا رحنا ضحية النتائج غير المتوقّعة. وهي النتائج نفسها التي سادت بعد عقد من الزمن على سطح سفينة أكيلي لاورو. من السهل علينا أن نجلس ونتصور أنفسنا نقوم بعمل عسكري أو بأي عمل يحتاج مجهوداً بدنيّاً، ولكن تنفيذه على أرض الواقع صعب جداً. كم كنا ساذجين في وقت من الأوقات! لم نتوقع قطّ أن يكون الردّ السوري سريعاً ومميتاً إلى هذا الحد. كنا ماهرين جداً في الخوض في حوارات حتى ساعة متأخرة من الليل. لقد أثبتُّ القدرة على تضميد جراح المصابين في حركة فتح، واستطعتُ جمع تبرعات تكفي لتمويل مجموعة صغيرة أيضاً . بينما محمد كان قادراً على الإصغاء ودراسة الحوار وما يدور من أحداث حولنا، وعندما كان يتطلب الأمر التحليل، كان قادراً على تحليل كل ما سمع ورأى بكل ألمعية. ولكن من الواضح أننا كنا لا نعي شيئاً خارج دائرة هذه الأمور.

سوف آخذك إلى المزة!

وبعد شهر من مكوثنا لدى الفلسطيني البدوي قدّم لنا مضيفنا الجديد جوازات سفر فلسطينية-عراقية، وقال: «تفضلوا. هذه ستخرجكم من سورية». كانت الوثائق أصلية وممهورة بختم الحكومة العراقية، ولربما هي مسروقة من عراقيين مسافرين إلى سورية.

في ذلك الوقت كانت نظاما البعث في دمشق وبغداد على خلاف كبير في ما بينهما. كل منهما يعتبر نفسه حامل لواء القومية العربية. ومن المؤكد أنّ أحمد حسن البكر الرئيس العراقي آنذاك، سيفتح ذراعيه بشغف مرحّباً باثنين منشقّين ممن استهدفوا نظام الرئيس حافظ الأسد في الصميم. لا بد وأن خبر استهداف وزارة الدفاع السورية في وسط دمشق كان قد أطرب القيادة في العراق، وبالتالي سنحظى بالأمان هناك. كان العراق في تلك الفترة يعجّ بالمنشقين السوريين أمثال مؤسس حزب البعث، السوري ميشيل عفلق والرئيس السوري الأسبق أمين الحافظ، ومن المؤكد أنّ انضمامنا سيكون سهلاً جداً لهذا الحشد من الفارّين العرب.

حجز محمد لنا مقعدين في سيارة أجرة متجهة إلى بغداد، وخلال الرحلة تصرفنا وكأنّ أحدنا لا يعرف الآخر مطلقاً، وذلك كي لا نثير الشكوك من حولنا. جلستُ أنا في المقعد الخلفي إلى جانب راكب آخر، وهو جلس في المقعد الأمامي بجانب السائق. وعلى الرغم من الوقت الطويل الذي استغرقته تلك الرحلة من دمشق إلى العاصمة العراقية لم يلتفت أحد منا إلى الآخر للحظة واحدة. كان مسار الرحلة يمرّ في طريق ضيّق عبر الصحراء

السورية التي ينيرها ضوء القمر بدلاً من المصابيح. ولدى وصولنا إلى نقطة الوليد الحدودية في منطقة التنف، ختم الضابط المناوب جواز محمد المزور بكل هدوء، ثمَ نظر إلى جوازي وقال: «أريد أن أراها». كانت صورة السيدة الموجودة على الجواز تكبرني بعشر سنوات وتظهر عليها علامات البؤس بوضوح. كانت ملامح وجهي لا تمتّ بصلة إلى ملامح وجهها النحيل ذي العينين العابستين والشعر القاتم. أدرك الضابط على الفور أنّ الجواز إما مزوّر وإما مسروق، وبدأ يتساءل: «ما الذي تفعله امرأة وحدها هنا؟ ما الذي يدفعها إلى السفر وحدها عبر الصحراء السورية العراقية في أيام كهذه؟ وأين هم أبناؤها؟ أين أخوها أو عمها أو زوجها؟ هناك ريبة في الأمر».

نزلتُ أنا من السيارة بينما كان محمد يحاول جاهداً ضبط قلقه وإخفاء ملامح الرعب من وجهه. ارتديتُ وجهاً جديّاً ومشيتُ بهدوء داخل قمرة الضابط الذي بادرني بالسؤال: «أهذه أنتِ يا مريم؟» طبعاً، مريم هو اسم السيدة صاحبة جواز السفر. أومأتُ برأسي إيجاباً: «نعم يا سيدي». وهنا رمقني بنظرة من أعلى رأسي حتى قدميّ مع ابتسامة شريرة تعلو وجهه. كنت ما أزال أحتفظ ببقايا من مظاهر الرفاهية التي حملتها من منزل عائلتي. كنتُ أرتدي بنطال جينز من صيحات الموضة. ضرب الضابط الطاولة أمامه بقبضته وصرخ في وجهي: «أخبريني من أنتِ؟»، ومن دون أن يرمش لي جفن أجبته: «أنا مريم سيدي». كنتُ قد حفظتُ المعلومات المكتوبة في الجواز عن ظهر قلب وأخذتُ أسرد له تاريخ ميلاد مريم وكنيتها وتاريخ إصدار الجواز وتاريخ انتهاء صلاحيته. أخذ يقلّب صفحات الجواز وهو يقول: «لا يمكن أن تكوني أنتِ، هذه السيدة أكبر منك»، ولكنني بقيت

مصرّة على أقوالي، وهنا بدأ يكلمني بلهجة تهديدية قائلاً: «سوف آخذك إلى المزة يا بنت إذا لم تخبريني من أنتِ». طبعاً كان يقصد سجن المزة الشهير. من المعروف أنّ سجن المزة يضمّ بين قضبانه سجناء الرأي السياسي من جميع الأطياف والألوان. لم يشهد سجن المزة إقامة مؤقتة لأيٍّ من سجنائه، فمن يدخل هذا السجن يمضي بقية حياته خلف قضبانه. وتابع الضابط تهديداته قائلاً: «سوف يحلقون لك شعر رأسك هناك ويقطعون لسانك».

ولكنني استجمعتُ كل الشجاعة التي يمنحها الله للإنسان في لحظات الخطر المحيق، وبقيتُ مصرّة على أنني مريم. وهنا أطلق الضابط تنهيدة عميقة وفاجأني بقوله: «اسمعي. أنا لا أعرف من أنتِ، ولا أعرف ما الذي يجعلك تسافرين بجواز سفر ليس لك. ولكن لديَّ إحساس يخبرني بأنني يجب أن أسمح لك بالعبور». وفعلاً ختمَ الجواز وسمح لي بالعبور. عادت السيارة تنطلق بنا في عمق الليل، وعدتُ أنا للتفكير بهذا الضابط الذي لوّح بيديه يائساً هو الآخر، تماماً كما فعل الضابط المناوب في القاهرة عام ١٩٧٣. والآن، بعد أن أصبحتُ بعيدة بضعة أمتار من قبضة حافظ الأسد، شعرتُ بأنّ التاريخ يقف معي للمرة الثانية، وبقي هذا الشعور يخالجني طوال حياتي.

بغداد، أيلول، ١٩٧٥

كانت بغداد، تلك المدينة التي اعتبرناها أنا وأبو العباس وطننا الثاني، كبيرة وواسعة بشكل مخيف في أول مرة دخلتها. كانت تلك رحلتي الأولى إلى العاصمة العراقية. كان عمري يومها ٢٢ سنة فقط، وكنتُ بعيدة من

عائلتي ومن طفلي وحاملاً بطفلي الثاني ريف. كنتُ أعاني إفلاساً عاطفياً ومادّياً ومرهقة جسدياً من حياة البداوة التي كنتُ أعيشها. مكثنا في فندق رخيص في شارع الرشيد الواقع في منطقة تجارية شعبية في العاصمة العراقية. كنا محاطَين بالباعة الجوالين والمشرّدين. من المؤكد أنّ هذه البقعة لا تعكس صورة بغداد المشرّفة والمليئة بالثقافة والثروة التي قرأنا عنها في كتب التاريخ. كانت مدخراتنا ستنفد بعد أسبوعين على الأكثر. حاولتُ إقناع محمد بالذهاب إلى الحكومة العراقية وإخبارهم بأننا نحن من أسسنا المنظمة الشيوعية العربية المجيدة، وأننا نحن من نفّذنا الاعتداء البطولي على دمشق، ولا بد أنهم سيقدمون لنا تعويضاً ويرحبون بنا ضيفَي شرف لديهم. قلتُ له إنهم قد يعطوننا سيارة أو قد نحظى بمقابلة أحمد حسن البكر. طبعاً، محمد لم ينفذ حرفاً من كلماتي خوفاً من اكتشاف الحكومة العراقية هويتنا الأصلية وقيامها بترحيلنا إلى لبنان. وأنا كامرأة لا يمكنني القيام بذلك بنفسي. بالرغم من أنّ والدي عاش في بغداد في الأربعينيات من القرن العشرين، ومن المؤكد أنه لا يزال يحتفظ بعلاقات صداقة مع شخصيات قادرة على مساعدتي إن طلبتُ ذلك، إلا أنني رفضتُ إجراء أيّ اتصال.

قررتُ أنا ومحمد إيجاد عمل، لأننا كنا قد قررنا البقاء بشكل دائم في بغداد. وفعلاً عثرنا على عمل في فندق خمس نجوم يسمى القصر العباسي الذي كانت تديره عائلة عراقية ثرية. كان الفندق يقع مقابل ساحة كهرمانة. هل تذكرون ساحة الفردوس التي أُسقط فيها تمثال صدام عام ٢٠٠٣؟ إنّ ساحة كهرمانة تبعد مسافة خمس دقائق مشياً جنوب ساحة الفردوس. تقع هذه الساحة الشهيرة على تقاطع طرق يفصل بين منطقتي الكرّادة. في

الستينيات من القرن العشرين زُيِّنت النافورة المركزية بتمثال لامرأة تصبّ الماء في أباريق مفتوحة على بحرة تحتها. يعتبر التمثال منحوتة لكهرمانة أو قهرمانة، وهي شخصية تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، ويحكى أنها بذكائها وحنكتها استطاعت إلحاق الهزيمة بعصابة من اللصوص وقطاع الطرق لدى اعتراضهم طريق قافلة والدها التجارية. (في عام ٢٠٠٤ أُغلق فندق القصر العباسي بسبب نشوب أعمال العنف التي تلت الغزو الأميركي للعراق). ومنذ فترة قريبة قام اليابانيون بترميم التمثال والنافورة جرّاء ما لحق بهما من أضرار أيام الحرب. كان الفندق يعجّ بالسياح ورجال الأعمال. عُيِّن محمد موظفَ استقبال، نظراً إلى وسامته، أمّا أنا فحصلتُ على وظيفة في المقسَّم (السنترال). كان هذا أول عمل مأجور لي في حياتي كشابّة، على الرغم من أنني عملتُ مع حركة فتح، ولكن ذلك العمل كان للمصلحة العامة. داخل غرفة خالية من أيّ نافذة ومليئة بالموظفين، كنتُ أقضي ساعات العمل في تلبية طلبات نزلاء الفندق من اتصالات داخلية ودولية. كنتُ أعمل تحت اسمي الجديد «مريم» الذي كان الكل يناديني به، حتى محمد كان يناديني «مريم».

اللقاء بأبو العباس

في أحد الأيام، وبينما كنتُ أتابع عملي، اتصل بي محمد من الاستقبال وقال لي: «ريم، هناك وفد فلسطيني مرموق سينزل هنا في الفندق بضيافة الحكومة العراقية». وأضاف أنّ الوفد برئاسة محمد العبّاس، القيادي في منظمة التحرير الفلسطينية. كان اسم أبو العباس قد بدأ يتردد أمامي كثيراً منذ أواخر ستينيات القرن العشرين، وذلك أثناء عملي السرّي في

بيروت. كان علي يقصّ على مسامعي قصصاً كثيرة عن أبو العباس ويقول: «ستحبينه كثيراً يا ريم. إنه ليس كالباقين، فهو لا يتطلع إلى البريستيج أو المناصب الرفيعة المستوى، ولا حتى... مثل أبو إياد وأبو عمار (عرفات). أبو العباس هو التجسيد الصادق لثورتنا». كان أبو العباس عضواً فعالاً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة. حاول علي أكثر من مرة أن يجمعني بأبو العباس في مقرّه الرئيسي في بيروت، ولكن لم ننجح في ذلك. واليوم، بعد مرور أشهر على وفاة علي، جاءت الفرصة للقاء هذا الثائر الفلسطيني الرمز.

عندما أخبرني محمد بأنّ أبو العباس أصبح في الفندق، اتصلتُ فوراً على رقم غرفته ٢٠١، متجاوزة بذلك قوانين عملي كعاملة مقسّم في ذلك الفندق. عندما رُفعت السماعة تلعثمت بالسؤال عنه قائلة: «لو سمحت: أريد التكلم مع أبو العباس». سمعتُ صوتاً خشناً يردّ بكل تهذيب، قائلاً: «الرفيق في اجتماع الآن. من يريده؟»، حاولتُ التملص وعدم إعطائه اسمي، ولكنه أصرّ قائلاً: «لا يمكن أن يعاود أبو العباس الاتصال بك إن لم يكن لديه اسم المتصل بالكامل». وهنا قلتُ له: «ريم رفعت النمر». منذ أشهر لم استخدم اسمي الحقيقي، وكنتُ سعيدة لأنّ مجرّد ذكر هذا الاسم سيفي بالغرض. فأنا أعرف تماماً أنّ أبو العباس لا بد وأن يكون على معرفة بوالدي، أو أنه يتذكر دوري في المنظمة الشيوعية العربية. وتبيّن لاحقاً أن تخميناتي كانت في مكانها جميعاً، وفوق كل ذلك كان أبو العباس يتذكر بالطبع تلك المراهقة المجنونة التي كانت تجتاز شوارع بيروت بسيارتها الألفا روميو الخردلية اللون. كانت تلك الصورة مطبوعة في ذاكرته. وما هي إلا بضع دقائق، حتى

بدأت لوحة الأزرار تومض أمامي، منبئةً بمكالمة: كان المتصل أبو العباس! «ريم! ما الذي تفعلينه هنا؟»، قالها وكأنه يعرفني منذ عصور. قلت له إنني أعمل موظفة في المقسَّم في الفندق، وإنني لا أريد إضاعة وقته بسرد حكايتي المملة على الأقل على الهاتف. وهنا قال لي: «اصعدي إلى غرفتي فوراً».

عملت على ترتيب ثنيات هندامي وألقيتُ نظرة خاطفة في المرآة لأتأكد من تسريحتي، وانطلقتُ بكل ثقة إلى غرفة أبو العباس. كان أبو العباس في تلك الأيام في السابعة والعشرين من عمره فقط، ويمتلئ شباباً ووسامةً. كان أبو العباس يبتسم ونظرة المجاملة تطفو في عينيه وهو يقول لي: «لا أكاد أصدق أنّ هذه هي الفتاة التي كانت تقلق راحة بيروت والتي تحدّت آل النمر». فجأةً جال بنظره في المكان وتأكد أني جئت وحدي، وقال: «أين زوجك؟ أين أخ تشي غيفارا؟» واضحٌ أنّ أبو العباس يعرف تماماً من نحن، ولماذا كنا في بغداد والحكاية بأكملها. لحق بي محمد إلى الغرفة وهناك عانقنا أبو العباس كلينا بشغف. وعندما قصصنا عليه حكاية هروبنا المفاجئ من لبنان، انفجر ضاحكاً. كان أبو العباس في ذلك اللقاء اللطافة بحدّ ذاتها. كان يعاملني كأب تماماً، ولا يمكن بأيّ شكل من الأشكال القول إنّ ما كان بيننا في ما بعد هو حب من النظرة الأولى. سألَنا إذا ما كنا بحاجة لأيّ مساعدة، مالية كانت أم سياسية. لم يكن بمقدوري الاستمرار بارتداء قناع الشجاعة، فأومأتُ برأسي إيجاباً وأنا أحاول منع دموعي من الانهيار. أعطانا أبو العباس مالاً وسألنا إذا ما كنا نرغب في البقاء في هذ الفندق أو الانتقال إلى مكان آخر في بغداد. ولكن كنا قد قررنا أنّ الو حان للخروج من العراق، وسألناه إذا كان بمقدوره مساعدتنا في ! ر

إلى حيث شقيق محمد في أبيدجان. أومأ أبو العباس برأسه بالإيجاب. وبفضل علاقاته القوية مع نظام البكر، تمكن أبو العباس من استصدار جوازات سفر عراقية أصلية. لم تدم فترة إقامتنا في بغداد سوى شهرين. وها نحن أحرار من جديد.

الفصل التاسع

أيامنا في غرب أفريقيا

بعد لقائي الأول بأبو العباس، سافر محمد مباشرة إلى غرب أفريقيا، أما أنا فعدتُ إلى لبنان بجواز السفر العراقي الجديد، وذلك لأضع طفلي الثاني ومن ثمّ ننضم إلى زوجي في مدينة أبيدجان في ساحل العاج. أبيدجان هي ثاني أكبر مدينة بعد باريس في عدد الناطقين باللغة الفرنسية.

كانت النخبة من سكان البلد والأجانب الأغنياء يسكنون في أحياء حصرية في أبيدجان. أما نحن، فقد استأجرنا منزلاً متواضعاً في إحدى مناطق المدينة حيث يسكن الأوروبيون والعرب. كان معظم الجيران من اللبنانيين. لم يصدف مرةً أن ذهبتُ للتسوق أو أن جلس محمد في مقهى من دون أن نلتقي بأشخاص لبنانيين ليطلعونا بدورهم على آخر المستجدات في وطننا الأم. استغرق الانتقال إلى أبيدجان شهراً لترتيب أمورنا، وبدأنا بعدها في عملية البحث عن وسيلة نعيل بها أنفسنا.

العثور على عمل في مدينة جديدة، ١٩٧٦

كان شقيق محمد يملك سلسلة محلات تجارية (سوبرماركت)، وكان عمله جيداً. لكنّ الأمور لم تكن سهلة، لأنّ العمل الذي كان محمد يطمح إلى الحصول عليه ضمن مشروع أخيه لم يقدم لنا دخلاً مادّياً ثابتاً. كان شقيق زوجي يدير السلسلة، ولم يكن بحاجة لتعيين مدير آخر بدوام كامل، خاصة أنّ أخاه لا يفقه شيئاً في عالم الأعمال عموماً أو عالم المواد الغذائية تحديداً. كان محمد رجلاً ذا فكر، ولكنّ إدارة المحال التجارية تتطلب شخصاً ترعرع في أوساط العمل الدؤوب، وبالرغم من ذلك رضي محمد بفرصة العمل المتوافرة، وكان أخوه يساعدنا مالياً كلما استطاع ذلك، إلا أنّ الدخل كان ضئيلاً. أما أنا فلم أكن أفضل من محمد، إذ لم أكمل تحصيلي الجامعي أيضاً، ومع وجود طفلين بحاجة لعنايتي ومن دون قريب أو صديق بجانبي في هذه المدينة يساعدني على إنشاء علاقات فيها، ولم يكن بمقدوري إيجاد فرصة عمل لي.

كانت السنوات في تلك المدينة مملة وروتينية، خاصة إذا قورنت بالسنوات التي قضيتها في لبنان أو سورية أو العراق. كانت حياتي في هذه المدينة مقتصرة على الاهتمام بشؤون المنزل، وخالية من أي مهنة أو نشاط سياسي. في مكان آخر من العالم بعيداً عن أهلي ووسط صراع للاهتمام بعائلتي الصغيرة، بدأت تجربتي الأولى في المطبخ، وبذلتُ جهوداً متتابعة فيها عبر السنوات اللاحقة. حاولتُ في كثير من المرات خلط المطبخ العربي بالمطبخ الأفريقي الذي أذكر تماماً كيف كانوا يستخدمون الفول السوداني لتكثيف الصلصات لديهم. بدأت أرى في الطبخ وسيلة في استخلاص الثقافات وترسيخها. كنتُ أرى في المأكولات العربية

الأفريقية التي اخترعتُها في بداية تجربتي في الطبخ نوعاً من الاندماج اللذيذ الذي يشبه إلى حدٍّ بعيد اندماج الثقافات والشعوب الذي كنت أراه في كل مرة أمشي في شوارع ذلك البلد. كانت أبيدجان مدينة صنع فيها التجار المتقاطرون من جميع أنحاء المتوسط وأوروبا ميناءً قبل قرون من الزمن، وخلّفوا وراءهم مجتمعات تجارية. في تلك المدينة المليئة بالمغتربين ترى الفرنسيين إلى جانب العرب والوافدين من شمال أفريقيا وغربيّها، بالإضافة إلى أقليات من جميع الجنسيات. ويمكنني القول إنني كنتُ أصنع نوعاً آخر من الاندماج في حياتي. في لبنان كان انخراطي في العمل السياسي لافتاً ونابعاً من القلب ومليئاً بالجموح أيضاً. أما اليوم، فقد انحسر كل هذا ليتحول إلى حيزٍ امتزجت فيه الاهتمامات المنزلية بانجذاب عميق إلى الأمومة.

في تلك الأيام خلت جدران منزلي من أي شيء. كانت عارية تماماً من صور الرموز الثورية أو حتى الديكورات العادية. كنتُ قد فقدتُ ولعي بأبطال السياسة. ولكنّ هذا الخواء كله كان يخفي المزيد من الأمور. كانت تلك الجدران العارية تذكّرني دوماً بأنّ ذلك ليس سوى إقامة عابرة، فأنا لم أرغب في مدّ جذور هناك. كانت فلسطين لا تزال وطن الروح، وبيروت وطني الأم. لطالما ذكّرتني تلك الجدران العارية بهويتي وأصلي وجنسيتي ولوّحت بحتميّة العودة.

طفلي الثاني

أبيدجان، ساحل العاج، حزيران ١٩٧٦

كنتُ في الرابعة والعشرين من العمر عندما وضعتُ طفلنا الثاني ريف. لم يكن هناك وقت للراحة، فخلال بضعة أيام وقفتُ مجدداً وعاودتُ نشاطي المنزلي من دون أن يكون لديّ أيّ خيار آخر أمام الأعمال التي تنتظرني. بالرغم من أنني كنتُ أقضي الوقت بين تغيير حفّاضات الطفل وتنظيف المنزل وتقطيع الخضار لإعداد الطعام للعائلة، إلا أنّ التفكير في حياتي لم يبارح ذهني لحظة واحدة.

خلال سنوات مراهقتي في بيروت التي قضيتها في ركوب سيارات السباق، كنتُ أمتلك وعياً سياسياً، وإن كان في حينها سطحياً، إلا أنه تعمّق وترسخ تدريجاً. ففي عام ١٩٧٠ كنتُ في التاسعة عشرة من عمري فقط عندما أصبح النشاط السياسي أمراً جديّاً عندي. في تلك الفترة، كانت الروح الثورية تشتعل بداخلي وتدفعني إلى تحقيق هدفي في تحرير فلسطين من الإسرائيليين وتحرير العالم العربي من الطغيان، وقررتُ الانضمام إلى حركة فتح. وخلال السنوات الخمس التي تلت ذلك، ازدادت جذوة الثورية لتحرير فلسطين، ولكن إلى جانب ذلك، كانت سذاجتي تتناقص شيئاً فشيئاً. فقد تابعتُ عن قرب الخلافات الداخلية الناشبة بين مختلف فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وشهدتُ بعيني صدامات مليئة بالشخصانية وتحقيق الذات على حساب الأهداف الرئيسية في مساعدة أولئك الذين يعانون المأساة وإنصاف المجرّدين من حقوقهم. وبدأتُ ألمس صراع أجيال بين تلك الفصائل. فالجيل الذي كان في العشرينيات لدى

وقوع النكبة وشهد تشريد الفلسطينيين بأمّ عينيه، لديه توجه مختلف عن توجه الناشطين أمثال أبو العباس الذي وُلد في مخيمات اللاجئين.

كنتُ أصغر من أبو العباس بأربع سنوات فقط، ولكنّ التطور السياسي جاء في مرحلة متأخرة من حياتي، وذلك بسبب المدينة التي عشتُ وكبرتُ فيها. كانت مدينتي بيروت تضجّ بالنشاطات الدولية، وأكثر انفتاحاً على عالم الإعلام وعالم الثقافة من دمشق التي كانت في تلك الأيام تأسرها العادات الشرقية الكئيبة، حتى إنك تشعر بأنّ عقداً كاملاً من الزمن يفصل محمد وعلي وباقي رفاقنا في بيروت عن أبو العباس. خلال الحقبة التي نشأنا فيها، كانت أفكار اليسار الجديد في المساواة آخر صيحات الفكر الرائجة بين الشباب. أنا شخصياً كنتُ في السادسة عشرة من عمري في عام ١٩٦٨ عندما أجبر المحتجون ومتاريسهم باريس على الخضوع، إذ أظهر عشرة ملايين عامل أنّ المذهب المثالي قادر على الوقوف في وجه حكومة. لكن ذلك أظهر في الوقت نفسه أمراً نقيضاً: قسوة الدولة هي التي تسود في النهاية. وبعد عامين جاء أيلول الأسود في الأردن ووجّه صفعة قوية إلى «مثاليتي» وأصبحت أكثر قسوة بفعل طيف الحكومة الأردنية وهي تطرد حاملي لواء تحرير فلسطين خارج حدودها أمام صمت الحكومات العربية الأخرى. وكما أشرتُ من قبل، كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة قد انشقت عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٦٨، وازداد تأييدها لدمشق بعد أيلول الأسود أيضاً. كان ظاهر الأمور يشير إلى أنّ سورية حظيت بتمجيد الفلسطينيين، نظراً إلى التزامها إرسال مقاتلين لمؤازرة الفلسطينيين المقاتلين في أيلول الأسود الأردني. ولكن كان لديّ إحساس بوجود شرّ مضمر وراء احتضان سورية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة. ثمّ شُنق

صديقي تشي بأمر من حافظ الأسد الذي كان على الدوام يزعم تأييد قضيتنا في خطاباته العلنية. وبعدها اضطررنا إلى الهرب. وها نحن اليوم نعيش في عالم آخر تماماً.

أبيدجان، ساحل العاج، آب ١٩٧٧، أخبار من بيروت

كنت ومحمد نعيش على بعد ٣٠٠٠ ميل من بيروت، ولكن مع ذلك كانت أخبار الوطن تصلنا، وكنا نناقش الأحداث الجارية في فلسطين. في عام ١٩٧٦ بلغنا أنّ أحمد جبريل (أبو جهاد) رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة، سار في درب أسياده السوريين، وشنّ اعتداءات على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. كنا نتابع أخبار صديقنا أبو العباس الذي أعاد تأسيس جبهة التحرير الفلسطينية في نيسان ١٩٧٧، مع أن هذه الجبهة تعود بالأصل إلى جماعة جبريل، ولكنّ الأخبار التي وصلتنا أفادت بتوتر العلاقات بين الرجلين. لم نُفاجأ كثيراً عندما سمعنا بما أقدمت عليه قوات أحمد جبريل من ضرب مقرّ جبهة التحرير الفلسطينية في منطقة الفاكهاني. قُتل نحو ٢٠٠ شخص في تلك العملية وانهار المبنى. هل كان أبو العباس بين القتلى؟ وماذا عن زوجته وابنه؟ علمنا في ما بعد أنهم نجوا جميعاً.

خلال إقامتي في أبيدجان، أدركتُ أنّ كل ما اختبرناه سيبقى حيّاً بداخلنا إلى الأبد. لا يزال حب فلسطين يعيش في قلبي، ولكنه كان وقتها حباً قاسياً. كان لانكشاف الشخصيات والأمم على حقيقتها دور في القسوة التي أصبحتُ عليها، حتى إنّني تحولتُ مرّات إلى السخرية والتهكم.

كنتُ بحاجة لفترة نقاهة أبتعد فيها عن كامل المشهد. كنتُ بحاجة للحصول على حياة لنفسي بعيداً عن عالم السياسة، وقد منحتني أبيدجان ما كنت أحتاجه.

هدية من خالي

أبيدجان، ساحل العاج. ١٩٧٨ جاءت أمي ربيحة المصري لزيارتنا

خلال السنوات التي قضيتُها في المنفى في أفريقيا، تحولتُ إلى ربة منزل تقليدية، أو بالأصحّ تحولتُ إلى أمٍّ تصارع لتربية أطفالها ضمن ظروف من شظف العيش والفقر. ويعود السبب في هذا التحول نوعاً ما إلى الحكمة التي اكتسبتُها بحكم العمر وما عانيته من ألم بسبب قسوة الحياة. ما زالت ذكريات تلك السنوات وظروف الفقر التي حاقت بنا حتى الثمالة عالقة في ذهني، ولكن لا يمكن أن أنسى أبداً أهمّ ما حدث فيها، وهو عودة الحياة إلى علاقتي مع أهلي، أو على الأقل مع والدتي وعائلتها. أخيراً جاءت والدتي لزيارتي في منزلي في أبيدجان للقاء حفيديها لؤي وريف. في تلك اللحظة طبعاً، فضلاً عن العناق المليء بالألم والدموع، كانت أمي تحمل لي مساعدة مالية من أخيها صبيح المصري رجل المصارف ذائع الصيت، الذي يشغل منصب المدير التنفيذي للبنك العربي. كان المبلغ المرسل ١٠,٠٠٠ دولار أميركي (أي ما يعادل ٣٨,٠٠٠ دولار حسب قيمة الدولار في عام ٢٠١٤)، وهو أكثر بكثير مما كنا نحلم به أنا ومحمد. في تلك اللحظة كانت المرأة المتمردة بداخلي حاضرةً، ولكنها فضّلت التنحي قليلاً لتحلّ تلك الفقيرة بدلاً منها وتتناول النقود بفرحة عارمة.

تمكنّا بفضل ذلك المبلغ من الانتقال إلى منزل أفضل في أبيدجان وتغطية نفقاتنا للعامين القادمين. كان لدينا شعور بأنّ هناك قوى عليا ترعانا بالرغم من العقلانية التي كانت تحكم سلوكياتنا. كان ذلك المال هدية من السماء. في عام ١٩٧٨ قررنا الانتقال للعيش في المغرب في شمال أفريقيا، وبعدها إلى جزيرة لاس بالماس القريبة من شواطئ المغرب والتابعة إدارياً لإسبانيا.

واشنطن، أيلول ١٩٧٨، توقيع اتفاقية كامب ديفيد

في ذلك العام وُقِّعَت اتفاقية كامب ديفيد بين الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغين. وبموجب تلك الاتفاقية انتقلت الدولتان من حالة حرب إلى حالة السلام البارد. طبعاً حصلت مصر مقابل تلك الاتفاقية على تنازلات من إسرائيل، ولكنّ الفلسطينيين شعروا بطعنة غدر من السادات. وعلى أثر توقيع الاتفاقية، تابعت «فتح» شنّ هجماتها عبر الحدود اللبنانية بزخم متجدد الشراسة. كنت أتابع تلك الأحداث وأناقشها مع محمد، كنت مهتمة بما يجري، ولكني لم أعد شريكة فيه، كنتُ في مكان بعيد جداً أكافح لتحسين مستقبل عائلتي. انتقلنا من لاس بالماس إلى اليونان.

بحلول عام ١٩٨٠ كان قد مضى على ترحالنا أو منفانا خمس سنوات. كنا منهكين، والحرب الأهلية التي اشتعلت في لبنان في نيسان ١٩٧٥ كانت في ذروتها. وبالرغم من كل ذلك، كنا نتوق للرجوع إلى الوطن. كنا ندرك أن بقاءنا خارج لبنان ضرب من الجنون، بما أن السبب الرئيسي في فرارنا هو الهرب بعيداً عن غضب عائلتي، وطبعاً من المخابرات والميليشيات السورية

التي تريد اعتقالنا وسوقنا إلى دمشق لتزجّ بنا داخل سجونها. أتراها الحرب الأهلية صرفت انتباه حافظ الأسد عنّا؟

العودة إلى بيروت، ١٩٨٠

في نهاية عام ١٩٧٥ غادرنا بغداد إلى أبيدجان، وبحلول ١٩٨٠ تحولتُ إلى شخص آخر. ما الذي يغيّر الإنسان على نحو فجائي وعميق إلى هذا الحد؟ ربما سمعتُ بمتلازمة استوكهولم التي يُعالج فيها الأسرى بدفعهم إلى الشعور بالخوف على حياتهم. هؤلاء الأشخاص يتحولون فجأةً عن معتقداتهم السياسية ويعتنقون معتقدات جلاديهم. حسناً، ماذا تسمي قيام امرأة وزوجها بحمل طفلها والهرب خوفاً على حياتهم، وعبور نقاط التفتيش الحدودية بوثائق مزورة وتسليم مصيرهما لأهواء الضابط المسؤول عن النقطة الحدودية التالية من دون أن يكون في مخيلتهما سوى صورة رجل مشنوق يتأرجح في الهواء؟ ماذا تسمي حياة أم مرمية مع طفليها من دون مال في منفى يبعد أكثر من ٣٢٠٠ ميل عن وطنها الذي تجوبه مذكرة بحث لاعتقالها؟ كل هذه الأمور مجتمعة وضعتني ضمن إطار وعي تلاشت فيه ملامح بنيتي العنيدة البارزة وشخصيتي المفعمة بالثورية. لا بد أنّ ظروف الحياة القاسية التي مررتُ بها خلقت أرضية لهذا التحول في نظرتي المستقبلية إلى الحياة، ولكن من المؤكد أنّ الأمومة هي التي جعلتني أتغيّر جذريّاً.

عندما يكون لديك طفل، تدرك على الفور أنّ هذا الطفل هو أهمّ ما في حياتك. الأطفال يصرخون لدى إحساسهم بالجوع أو البرد أو المرض، أو عندما يلمسون أثراً لمجهول يتربص بآبائهم. الأولاد يستحوذون على

انتباهك ويسيطرون عليه بقوة، وهذا يعود إلى دافع غريزة لديهم. في بعض الأوقات كان أولادي هم التحدي المستحيل بالنسبة إليّ. فكيف لي أن أُنشئهم في بيت مليء بالاستقرار كذاك البيت الذي نشأتنا أمي فيه؟ لم يكن لي أقارب يساعدونني في تربية الأطفال، وحتى الجهود التي حاول زوجي بذلها في تحمّل هذا العبء معي كانت غير كافية على ما يبدو. تربية الأطفال تتطلب اهتماماً بالغاً. عندما غادرتُ بيروت عام ١٩٧٥ كنتُ ثائرة، وعندما عدتُ إليها عام ١٩٨٠ كنتُ أماً.

لدى عودتي إلى بيروت، ذهبتُ فوراً إلى منزل أهلي، ودخلتُ إلى غرفة والدي وانفجرتُ بالبكاء. قبّلتُ يده واعتذرتُ له من أعماق قلبي. كنتُ أقول له: «سامحني بابا بترجاك»، وأُجهش بالبكاء. كنتُ طفله الأول والمحظية لديه، ولكن وإنْ يكن! كان هو الآخر يبكي، ولكنه أخفى دموعه كي لا يظهر ضعفه.

كانت مذكّرة الاعتقال الصادرة بتوقيع حافظ الأسد لا تزال جارية، وخشي والدي أن تلاحقني السلطات السورية التي كانت تسيطر آنذاك على معظم أنحاء البلد. كانت عودتي إلى لبنان ضرباً من المجازفة، ومع ذلك مرّت بسلام. أليس لدى الجيش السوري مهمات أعمق يقوم بها في لبنان مثل محاربة إسرائيل وعرفات؟ هل فعلاً سيكلف نفسه عناء اللحاق بسيدة شابة تنتمي إلى منظمة شيوعية انحلّت وانتهت، أو امرأة هي اليوم مجرد أم لطفلين صغيرين؟

لدى عودتنا إلى بيروت عام ١٩٨٠، كان الفتور قد سيطر تماماً على علاقة زواجنا. كنتُ أعرف أنه كان يخرج برفقة أخريات عندما كنا في اليونان،

وشعرتُ حينها بإهانة لكرامتي، ولكنني أدركتُ أنّ تلك كانت طريقته ليطلب مجدداً الانفصال عني. في الواقع، لم أعد أنا تلك المراهقة التي تلهث وراء بطل يشبه تشي غيفارا وعلى استعداد لترك كل شيء وقطع كل علاقاتها من أجله، كما لم يعد هو أيضاً ذلك المحارب المندفع في دهاليز الحركة الفلسطينية السرّية. لقد أضعتُ أنا ومحمد الدروب التي مشينا فيها. وبعد فترة أقدمت على خطوة الطلاق برضى عائلتي وموافقتها. خلال اغترابنا الذي طال خمس سنوات عن الوطن، استطعتُ أنا ومحمد تدبير أمورنا على الرغم من المنفى والفقر، ولكن كان محمد قد اقترح مسألة الطلاق قبل مغادرتنا لبنان، لأنه كان يعلم تماماً أنّ أخاه علياً هو من كان يربط بيننا.

في الوقت الذي التقيتُ فيه بمحمد، كنتُ أرى في علاقتنا بياناً سياسيّاً يعبّر عن الشخص المتمرّد الذي صنعتُ نفسي عليه. كنت أفرض هويتي كامرأة وكشخص سياسي بمعزل عن عائلتي. كانت تثور داخلي مشاعر التمرّد على التقاليد العربية أيضاً. أليس من حقي كامرأة أن اختار الرجل الذي سيكون زوجي؟ أم أنّ والدي وعائلتي هم من يجب أن يختاروا لي هذا الرجل؟ هذه المسألة التي بدأت تسبّب انشقاق الفتيات عن آبائهم في جميع المجتمعات العربية، لم تكن بالنسبة إلى عائلتي المنفتحة على العالم والتي تعيش في مدينة عصريّة كبيروت مسألة جديّة كما هي بالنسبة إلى تلك العائلات التي تعيش في القرى أو المناطق النائية. لم يخطر ببالي قطّ أنّ والدي مثلاً قد يدفع أخي إلى قتلي من أجل غسل شرف العائلة. ومع ذلك، كانت الاستقلالية التي تمتعتُ بها كامرأة بعيدة تماماً عن كل الأعراف. لم أحظَ بدعم المجتمع ومثل كل الذين يحطون الرحال على أرض جديدة كنت أشعر بالتوتر، ولكنني شعرت أيضاً بأنني أعبّر عن نفسي. ما المثل

الذي سأعطيه لو تراجعت وتركت زوجي وسمحت لنفسي بأن أعود أدراجي وأحتمي تحت جناح والدي.

هناك أمرٌ لم يكن واضحاً جداً، ولكنه أقرب تفسير لما حدث: في عام ١٩٧٥ كان قلبي لا يزال ينفطر حزناً على علي. كان زواجي بمحمد آخر ما يربطني بالغالي تشي. علي هو الوحيد الذي نظر إليّ وفهمني كشخص سياسي. لم أستطع إيقاف زواجي بمحمد، ولم أستطع إيقاف سيل الذكريات مع علي لأنني لم أستطع إيقاف نفسي أولاً وأخيراً.

رأس بيروت ١٩٨٠، حياتي الجديدة

في بيروت استأجرت منزلاً لي ولأطفالي في حيّ الحمرا بالقرب من منزل أهلي في بناء عائلة النمر ذي الطبقات السبع التي بناه والدي على رأس شارعي السادات والحمرا. تقع منطقة رأس بيروت على منحدر يطل على البحر، ولا تفصلنا إلا بضع خطوات عن الكورنيش حيث يتغازل العشّاق، ويلعب الأولاد كرة القدم وتدفع الجدات أحفادهن في عربات ويمارس الطلاب رياضة الركض الصباحية. أما الدراويش، فينشرون قصباتهم في البحر ليوفروا قوتهم من اصطياد السمك، ويغادرون الصخور للسباحة وسط تلاطم أمواج البحر التي تمتد بهدوء لتسرق قبلة من حواف الشاطئ. لم يكن منزلنا بعيداً عن مبنى الجامعة الأميركية في بيروت الذي يمتد على سفح تلة شديدة الانحدار فوق الكورنيش، وتطل على المتوسط وكأنها تسبر التاريخ بأكمله. نشأت الجامعة في بيروت من رحم الثورة والوعد بثقافة عربيّة مستقلّة في ظلّ الحكم العثماني. في أوائل القرن التاسع عشر، حطّت المطابع البروتستانتيّة رحالها في بيروت

آتية من فرنسا وسرعان ما بدأت تضخّ الأدب الثقافي والسياسي الملهم. وبرز عدد من المدارس الدينية، وفي ستينيات القرن التاسع عشر، أصبحت الجامعة الأميركية في بيروت إحدى هذه الكليّات.

تُعَدّ الجامعة الأميركية المصنع الذي صيغ فيه المكون الفكري للمقاومة الفلسطينية على أيدي مجموعة من الطلبة الرياديين فيها، أمثال وديع حداد وجورج حبش، إلى جانب مجموعة من الأساتذة مثل قسطنطين زريق. كان العديد من طلاب هذه الجامعة، وهم من جنسيات مختلفة، يقصدون مطاعم صغيرة متواضعة مقابل الجامعة ليتناولوا فيها الشيش طاووق والشاورما والفلافل. وكان شارع الحمرا يبعد بضع خطوات عنهم بمطاعمه الراقية وأبنية المصارف ذات اللوحات المذهّبة ومحالّ التسوق الرفيعة المستوى.

في عام ١٩٨٠، بعد حصولي على الطلاق، عدتُ للانضمام إلى الجامعة اللبنانية الأميركية لمتابعة دراستي. كانت هذه الجامعة في محلة رأس بيروت، ولا تبعد عن منزل عائلتي سوى دقيقتين سيراً على الأقدام. وعندما تخرجتُ حصلتُ على وظيفة في بنك بيروت التجاري، حيث كان والدي يشغل منصب المدير العام فيه. ومع اشتداد الحرب الأهلية ترك البنك مقرّه الرئيسي في شارع المصارف لينتقل إلى شارع الحمرا حيث شغل الطابق الأرضي من بناء عائلة النمر الذي يسكن فيه والدي. وهكذا كنتُ أجد سهولة في الصعود لزيارة أهلي بعد انتهاء ساعات العمل وقبل الذهاب إلى شقتي في الحيّ المجاور.

لم أكن في عملي في البنك محظيّة، فقد كان والدي يعاملني مثل غيري من الموظفين. فإذا أردتُ لقاءه في العمل، كان عليّ الحصول على موعد من

مساعدته، وكان حريصاً جداً على أن أخاطبه بشكل رسمي في العمل «السيد رفعت». وأنا تحديداً كنتُ حريصة على الوصول إلى مكان العمل في الوقت المحدد، لأنّ رفعت بيك كان متشدداً جداً في نظام العمل. وعلى الأغلب، كان رفعت يبذل أقصى جهده ليكون عادلاً ومنصفاً، لكنه كان في أغلب الأحيان أكثر قسوة في تعامله معي من باقي الموظفين.

جبهة التحرير الفلسطينية تخترق إسرائيل جواً

بيروت، ٧ آذار ١٩٨١ ـ أبو العباس يُطلق اثنتين من الهجمات الجوية

تحت قيادة أبو العباس، الذي كان مكتبه الرئيسي في منطقة الفاكهاني في بيروت، دربت جبهة التحرير الفلسطينية مئات المقاتلين في سورية، ومن ثمّ أرسلتهم لشنّ عمليات ضد أهداف إسرائيلية. اتسمت تلك العمليات بنوعية أفكارها الخلّاقة، على الرغم من أنها لم تكن ناجعة دوماً. فعلى سبيل المثال، في شهر آذار عام ١٩٨١ حلّقت طائرات شراعية تابعة للجبهة فوق الحدود الإسرائيلية بهدف إلقاء قنابل يدوية فوق مقارّ تابعة لقوات الدفاع الإسرائيلية بالقرب من حيفا، ولكن العملية فشلت بسبب عدم وجود التيارات الحرارية المناسبة. وفي ١٦ نيسان حلّق مقاتلو الجبهة في منطاد بالوني فوق إسرائيل للهبوط فيها بهدف اختطاف مسؤولي استخبارات إسرائيلية. كادت العملية أن تنجح لكن البالون كان هدفاً سهلاً للبنادق الإسرائيلية التي أطلقت عليه نيرانها وأسقطته سريعاً.

بعد عودتي إلى بيروت جددتُ معرفتي بأبو العباس. كان متزوجاً الأستاذة الجامعية سامية قسطندي، ولديه صبيّان: خالد (٤ سنوات) وعمر

(سنة واحدة)، ولكن حياته الزوجية تلك كانت مضطربة. تذكرني أبو العباس وتذكر لقاءنا في بغداد قبل سنوات. كان يزور عائلة النمر من وقت لآخر، واعتقدتُ أنه كان يأتي ليراني، ولكن يبدو أنه كان مهتماً أكثر برؤية والدي. كان المصرفيّ العتيق الذي وضع حياته السياسية جانباً، يرى جانباً من شخصيته في ذلك الشاب الذي تخلى عن عمله في مجال التدريس ليصبح قائداً عسكرياً. أعتقد أنّ والدي كان إلى حدٍّ ما يشعر بأنه ربما كان سيسير في الطريق نفسها. ولِمَ لا؟ إنّ رفعت أكبر سنّاً، ومهنة القيادة العسكرية بالنسبة إلى الفلسطينيين لم تكن في أيامه ناضجة ولا ممولة. كذلك، كانت لرفعت دوماً التزامات تجاه عائلته المنتشرة في نابلس ومناطق إقليمية أخرى. كان هو المسؤول، وعليه التزام عمل يستغرق يومه من التاسعة صباحاً وحتى الخامسة مساءً، بالإضافة إلى أنه رجل متزوج ولديه أسرة، وعليه الحفاظ على وجاهة الفلسطيني في المجتمع العربي المحلي والارتقاء إلى منصب يمكّنه من حماية القضية الفلسطينية وهويته معاً.

كان الحكم العثماني قد ولّى منذ زمن بعيد، ولكن لا تزال تشعر بشيء من «السيطرة» في طريقة رسم رفعت لحياته ومسؤولياته.كان أحد ركائز المجتمع، غير أنه في طبعه وغريزته لم يكن بعيداً أبداً عن محمد العباس.

كانت سامية سيدة أكنّ لها الاحترام والمحبة، خاصة أننا نمتلك النشأة التعليمية ذاتها. عندما أخبرني أبو العباس بأنّه يريد الطلاق، لم أشجعه على ذلك، بل على العكس، نصحته بمنح زواجه فرصة أخرى. كنتُ أعلم أنّ مشاعره بدأت تتجه نحوي، وأنا لم أرغب في أن أكون سبباً في تشتيت أسرته. ولهذا السبب لعبتُ مرات عديدة دور الوسيط، ولكن من دون جدوى.

لدى انفصال أبو العباس عن زوجته سامية، لاحظتُ أنه أصبح يتردد كثيراً على منزل أهلي. كنتُ أنا وأبو العباس قبل ذلك بكثير نتواعد. لقد جمعنا ولاؤنا للقضية الفلسطينية وإعجابي الواضح بشخصه ومحبته لوالدي، وفي الحقيقة كانت مسألة أنّ كلاً منا قد اختبر علاقة زواج فاشلة قد خلقت رابطاً غريباً بيننا. كان أبو العباس يحترم روحي المتمردة على المجتمع والتضحيات التي قدمتها. كان الخروج عن المسار التقليدي لشخص نشأ في مخيم للاجئين كما فعل أبو العباس أمراً يختلف تماماً عن التخلي عن حياة مليئة بالامتيازات.

كنت معجبة بشخصية أبو العباس. كيف استطاع هذا الولد الفقير القادم من وسط صقيع مخيم النيرب بحلب ومن زواريب مخيم اليرموك المقفرة في دمشق أن يكتسب كل هذه المعرفة والحكمة والثقة بالنفس؟ ومع كل هذه الميزات بدا أبو العباس غير آبه بتوظيف صراعاته للظهور. لم يكن غاضباً أو عدوانيّاً أو حتى متغطرساً. كان يثق بقدراته ويتمتع بعقلية منفتحة وقلبٍ كبير. لقد أظهر أيّ شخصية يصنعها الفلسطيني المنفيّ من ذاته عندما يُعطى بصيصاً خافتاً من نور الشمس فقط. كنت فخورة به.

الفصل العاشر

الحرب الأهلية اللبنانية

١٩٧٥ - ١٩٨٢

كان النزاع المتعدد الأوجه المعروف بما يسمى الحرب الأهلية اللبنانية كابوساً بالنسبة لي ولأبو العباس ولكل من عاشوا أيامه التي بدأت في نيسان ١٩٧٥ واستمرت خمسة عشر عاماً. في عام ١٩٧٥ وحده قُتل نحو ١٨,٠٠٠ شخص، وقبل أن تضع هذه الحرب أوزارها كانت قد قضت على أكثر من ١٢٠,٠٠٠ شخص. كانت حصة إسرائيل من هذه الضحايا ٦٧٥ شخصاً فقط، أي نصف بالمئة من العدد الإجمالي.

في أعقاب النكبة الفلسطينية ١٩٤٨ أصبح لبنان وطناً لـ ١١٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني شكّلوا في أواخر الستينيات من الحقبة ذاتها القاعدة الشعبية

الداعمة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وازدادت شعبية المنظمة والملتفّين حولها بنحو دراماتيكي إثر طرد القيادات الفلسطينية من الأردن في أيلول ١٩٧٠. وفي السنوات الخمس التالية، كان لوجود ٣٠٠,٠٠٠ فلسطيني (معظمهم من المسلمين) في لبنان أثره على التوازن الطائفي فيه، وفي ترجيح كفة المسلمين على كفة المسيحيين الموارنة. كانت منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك الوقت أشبه بدولة داخل دولة، خاصة في منطقة جنوب لبنان التي أرست فيها قواعدها ونصبت منصاتها لشنّ عمليات عسكرية على إسرائيل. وينطبق الأمر نفسه على بيروت، ولكن بنحو أخفّ، حيث كانت منظمة التحرير الفلسطينية تسيطر بنحو شبه كامل على المدينة مع وجود مقارّها السياسية والعسكرية في منطقة الفاكهاني. كل ذلك قد أثار تذمّر المسيحيين اللبنانيين الذين عبّروا جهاراً عن أنّ القضية الفلسطينية ليست قضيتهم ليقاتلوا في سبيلها، خلافاً للمسلمين أمثال الرئيس رشيد كرامي والرئيس صائب سلام ورئيس حركة أمل نبيه برّي والزعيم كمال جنبلاط الذين التفّوا جميعاً لتأييد الفدائيين الفلسطينيين.

ومن القصص الطريفة التي رُويت أنّ عرفات كان يعقد اجتماعاته مع القادة اللبنانيين وغيرهم في منتصف الليل. طبعاً أبو العباس كان متعوداً على ذلك، وكان يواظب على حضور تلك الاجتماعات التي تدور فيها حوارات تستمر حتى الثالثة صباحاً. كانوا خلال الاجتماع يشربون القهوة ليبقوا متيقظين لحديث رئيس منظمة التحرير، ولكن كمال جنبلاط كان يمقت الاجتماعات الليلية، لأنه يعيش نمط حياة شبيه بنمط حياة غاندي، فضلاً عن أنّ هذا القيادي الدرزي كان يخلد للنوم باكراً في المساء ويستيقظ قبل بزوغ أول

خيوط الشمس. لم يكثر يوماً من الطعام، وهو لا يتناول الأغذية التي تحتوي على مركبات كيميائية، ولم يكن يحبذ أيضاً القهوة كمشروب يعينه على السهر. كان يتذمر على الدوام من استدعائه في منتصف الليل لحضور اجتماعات منظمة التحرير الفلسطينية، ليس لأنهم أشخاص مزعجون بالنسبة إليه فحسب، بل لأنهم بعيدون كل البعد عن الحياة الصحيّة. وكان لحظة دخوله مكتب عرفات وهو يفرك عينيه في محاولة للاستيقاظ، يبدأ يسخر قائلاً: «أبو عمار، هل ندير هنا ثورة أم كباريه؟!».

كانت كتائب بيار الجميّل لا تتلاءم مع حركات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وعاداته. كانوا يمقتونه لدرجة كبيرة ويتوقون إلى يوم يسمعون فيه خبره مقتله، أو على الأقل طرده من بيروت. وبالطبع كان لديهم الشعور ذاته تجاه أبو العباس وجميع رفاقه من القادة الفلسطينيين: أبو إياد، أبو جهاد، وأبو حسن سلامة (الذي ارتبط اسمه بعملية ميونيخ عام ١٩٧٢). في عام ١٩٧٥ اصطدمت الميليشيات المسيحية بالميليشيات الفلسطينية في أنحاء من لبنان، في محاولة منها لطرد الفلسطينيين من البلاد التي أضحوا يعدّونها بلدهم، وبلدهم وحدهم فقط. كان الجميّل يعدّ نفسه لبنانياً أصيلاً وليس له أي صلة بالعروبة بأي شكل من الأشكال، حتى إنه كان طليق اللسان بالفرنسية أكثر مما بالعربية. لم يكن الجميّل ليتردد لحظة واحدة في النوم في حضن الأميركي والإسرائيلي إذا كان ذلك يساعد في إنهاء النفوذ الفلسطيني في لبنان.

شهد لبنان خلال فترة الحرب الأهلية اجتياح إسرائيل أراضيه مرتين: الأولى عام ١٩٧٨، والثانية عام ١٩٨٢، وكان كلا الاجتياحين تحت عنوان الردّ على العمليات الفلسطينية.

في عملية أطلقت عليها إسرائيل في ما بعد مجزرة الساحل، أرسى أحد عشر عنصراً فلسطينياً تابعون لأحمد جبريل قوارب مطاطية على الشاطئ الشمالي لتل أبيب. وتمكنوا بعد يوم كامل من الاشتباكات ورمي القنابل اليدوية من قتل أكثر من ثلاثين شخصاً، معظمهم من المدنيين، وكان بينهم مصور أميركي مختص بتصوير المناظر الطبيعية. وبالطبع، اتخذت إسرائيل من عملية الحادي عشر من آذار لعام ١٩٧٨ حجةً لها لاجتياح جنوب لبنان حتى حدود نهر الليطاني، وانسحبت بعد سبعة أيام. في تلك الأثناء تراجعت قوات منظمة التحرير الفلسطينية باتجاه الشمال، نحو الجزء الذي لم يشهد أي اشتباك مع إسرائيل. لقي نحو ألف أو ألفي لبناني وفلسطيني حتفهم في تلك العملية، وتشرد نحو ١٠٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠ داخل لبنان. أما قتلى إسرائيل، فلم يتجاوزوا عشرين شخصاً، إضافة إلى أنها نجحت في إقامة منطقة أمنية على طول الشريط الحدودي، وسلّمت إدارتها للمسيحيين ممن التحقوا بجيش لبنان الجنوبي تحت قيادة الجنرال ذي السمعة السيئة سعد حداد. وفي التاسع عشر من شهر آذار لعام ١٩٧٨ نشرت الأمم المتحدة قوات حفظ سلام في لبنان. قبل ذلك كان الإسرائيليون يسرحون ويمرحون، واليوم أصبحت قوات الأمم المتحدة هي الضابط لتلك الحدود. أبرزت تلك الترتيبات الإسرائيليين على أنهم خلقوا جواً من الاستقرار الذي يشكل أساساً لصنع السلام، لكن الأمر لم يكن كذلك. وفي وقت لاحق من ذلك العام، صرّح رئيس الوزراء الإسرائيلي من حزب الليكود مناحيم بيغن بأنّ تل أبيب لن تسمح بارتكاب «جرائم تطهير عرقي» بحق المسيحيين في لبنان على أيدي «الإرهابيين الفلسطينيين»، وكان يقصد القوات الفلسطينية في لبنان.

كان بيغن قبل هذا التصريح قد استمع إلى كلام وزير الخارجية الأميركي ألكسندر هيغ الذي أخبره أنه لا يمكن إسرائيل اجتياح لبنان مجدداً إلا إذا كانت لديها «الحجة» للقيام بذلك. بعد مرور أربع سنوات عثرت إسرائيل على حجّتها الموعودة إثر محاولة اغتيال سفيرها في لندن شلومو أرغوف الذي تعرّض لمحاولة اغتيال على يد أحد أعضاء المجلس الثوري لحركة فتح، الذي كان حينها برئاسة صبري البنّا، المعروف باسمه الحركي أبو نضال.

لم يكن أبو نضال من رجال عرفات ولا على وفاق مع أبو العباس، ومع ذلك كانا يدفعان ثمن جنونه منذ عام ١٩٨٢ وكل ما تلاه. كان الناس لسنوات عديدة يعتقدون خطأً بوجود ارتباطات بين زوجي وأبو نضال، الأمر الذي كان يحزّ كثيراً في نفسه ويؤلمه. كان أبو نضال قاتلاً متسلسلاً، وكان يظهر كمجرم على الملأ، واستخدمته بعض الحكومات العربية ضد أعدائها. كان إرهابياً تقليدياً ينطبق عليه تماماً وصف باتريك سيل له: «بندقية للإيجار». كان يقدم خدماته لمن يدفع أجراً أعلى، أيّاً يكن، سورياً أو ليبياً أو عراقياً أو حتى إسرائيلياً. كانت يداه ملوثتين بدماء الفلسطينيين كأيدي إسرائيل على حد سواء، لأنه نفّذ عمليات اغتيال طاولت شخصيات قيادية في منظمة التحرير الفلسطينية بين الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين. كان أبو نضال يرتكب جرائم القتل بحق أشخاص من دون أي اعتبارات، لا فرق لديه إن كانوا مدنيين أو أطفالاً في سبيل هدف لم يكن يوماً بالتأكيد تحرير فلسطين. كانت إصبعه أسرع في الضغط على الزناد من بصره لرؤية الهدف، خلافاً لأبو العباس الذي كان يجول ببصره في مجال هدفه ليتأكد من عدم وجود أيّ امرأة أو طفل.

كان أبو العباس إنساناً مخلصاً في تنفيذ ما يؤمن بأنه ضروري لتقويض إسرائيل ودحرها عن أرض فلسطين. وبالرغم من إيمانه العميق بأنّ كل إسرائيلي هو عدو له، وكل بقعة على الأرض هي ساحة حرب للفلسطينيين، إلا أن سياسته الراسخة لم تتضمن يوماً استهداف المدنيين، ومن ضمنهم الإسرائيليين ولم يتعرّض لأي مناضل عربي أو فلسطيني. ولكنّ حقيقة حصول كل من أبو العباس وأبو نضال على رعاية من صدام حسين في مراحل مختلفة من حياتهما العملية خلقت فكرة وجود علاقة بين الرجلين في أذهان العامة. وفي ما بعد ظهرت فكرة موت كليهما في العراق عام ٢٠٠٤ لتثير من جديد وترسّخ لدى الناس تلك العلاقة، متجاهلين ــ وربما عن عمد ــ أنّ أبو نضال قد صدر بحقه حكم إعدام عن محكمة منظمة التحرير الفلسطينية بعد إدانتها له بتهمة خيانة القضية الفلسطينية، وأنه على إثر ذلك أصبح العدو اللدود لكل من عرفات وزوجي أبو العباس.

كتب أرييل شارون في مذكراته أنّ اعتداء أبو نضال على السفير الإسرائيلي أرغوف كان «الشرارة التي أشعلت الفتيل فقط». كذلك فإنّ الحكومة الإسرائيلية خلال اجتماعات قياداتها العليا في تل أبيب للتشاور بشأن الاجتياح، أوضحت في مذكّرةً بأنّ أبو نضال هو من كان وراء اغتيال أرغوف، وليس عرفات. وكان رافائيل إيتان، قائد الجيش الإسرائيلي، قد قال جملته المشهورة: «أبو نضال... أبو شميدال... كلهم متل بعض»، وأردف بأنهم سيستغلون محاولة الاغتيال لـ «الضغط» على منظمة التحرير الفلسطينية. في الواقع، لم تكن معرفة الطرف المسؤول عن محاولة الاغتيال مسألةً مهمّة بالنسبة إلى الإسرائيليين، بل استُخدمت تلك المحاولة على

نحو سيئ جداً لتبرير الحرب على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى لبنان، تلك الحرب التي راح ضحيتها آلاف المدنيين.

أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية على الفور أن لا علاقة لها باعتداء لندن، وعمدت إلى ما هو أكثر من ذلك، إذ أعرب عرفات، الذي كان في تلك الأثناء في زيارة للمملكة العربية السعودية، عن استعداده لتعليق عمليات إطلاق القذائف عبر الحدود إذا أوقفت إسرائيل اجتياحها. كان الخوف يستولي على كل من أبو العباس وعرفات مما سيحمله هذا الاجتياح الكبير من موت وقتل ودمار. وقد كانا يدركان تماماً مدى تأثير ذلك على الرأي العام اللبناني الذي سينقلب ضدهم ليصبّ في مصلحة أشخاص مثل بيار الجميّل وسعد حداد. ولكنّ إسرائيل لم تصغِ إلى أيّ تصريحات.

أصدرت إسرائيل أوامرها بتنفيذ اجتياح واسع بقيادة وزير الدفاع الإسرائيلي شارون، وقد حشدت ٧٨,٠٠٠ جندي و١,٢٠٠ دبابة لتلك الحرب. واكتشفنا في ما بعد أنّ شارون كان قد تلقى معلومات حساسة ومساعدات لوجستية من القيادي اللبناني الكتائبي الشاب بشير الجميّل، على وجه التحديد، وهو في الواقع من أوصل شارون إلى داخل بيروت. وكان الجيش الإسرائيلي قد صرّح علانيّة بأنّ هدفه الوحيد من تلك الحرب هو دحر قوات منظمة التحرير الفلسطينية ٤٠ كلم باتجاه الشمال. ولكنهم في الواقع ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، وانخرطوا في معارك شرسة مع الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين في قلعة الشقيف في النبطيّة وفي جزّين، وعمدوا بعدها إلى التقدم باتجاه هدفهم المبتغى: بيروت.

الحياة في بيروت تحت نيران الإسرائيليين

١٣ حزيران ١٩٨٢. الإسرائيليون يطوّقون بيروت

أطلق الإسرائيليون على حرب عام ١٩٨٢ اسم عملية سلامة الجليل، أما نحن فأطلقنا عليها اسم «اجتياح واحتلال بيروت». وبعد مرور سبعة أيام على اختراق الجنود الإسرائيليين الحدود الجنوبية اللبنانية، تمكنوا من السيطرة على المرتفعات المحيطة ببيروت وبدأوا بإطلاق قذائفهم على المدينة. قضيتُ أنا وأبو العباس تلك الفترة بأكملها في الأقبية تحت الأرض من دون أن نعلم حتى ما تخبئه الأيام القادمة لنا. لم تكن أيام صيف ١٩٨٢ تشبه أيّاً من الأيام في حياتنا، حيث كانت مقاتلات الطيران تهاجم وتضرب المناطق المأهولة بالسكان، وقذائف المدفعية تتساقط على أهدافها العشوائية ملحقةً الدمار بكل شيء تأتي عليه وتملأ الطرقات بركام الأبنية المتساقطة والأشلاء البشرية والدماء. لقد كان لحصار بيروت ذاك تأثيره المشوّه على نفوس من خرج منه حيّاً، سواء من الفلسطينيين أو اللبنانيين، وكان له تأثير عميق على حياتي وحياة أبو العباس. ما زلتُ إلى اليوم أستيقظ في منتصف الليل على صور من تلك الأيام العصيبة. واليوم تدور تلك الصور في مخيلتي من جديد وأنا أرى مذابح العصر تشتعل في ليبيا والعراق وسورية. بعد عام ١٩٨٢ تغيّرت حياتنا كليّاً.

صراخ وغبار

لم يكن الوقوع في حب قيادي فلسطيني مطلوب من قبل الجيش الإسرائيلي في زمن الحرب الأهلية في لبنان أمراً مستحبّاً. عندما كان أبو العباس يخرج

من المنزل، لم نكن نعلم إذا ما كان سيعود سالماً أم لا، فضلاً عن أنه لم يكن هو نفسه يأبه لذلك، فقد كانت بالنسبة إليه أحلى سهرة عندما يجول في مدينة بيروت التي قطّعت الحرب أوصالها، مرتدياً نظارات الرؤية الليلية وسط سواد الليل وانقطاع التيار الكهربائي. اجتاح الإسرائيليون المدينة وكانوا يريدون أبو العباس حيّاً أو ميتاً. ولدى استهداف الطائرات الإسرائيلية مكتب أبو العباس في منطقة الفاكهاني غربيّ بيروت، ركبتُ سيارة أجرة وانطلقت كالمجنونة باتجاه المكان، وهناك أخذتُ أردّ الركام والأنقاض وأصرخ بأعلى صوتي باسمه: «محمد... محمد»، وأنا شبه متأكدة أنه قتل لا محالة. ثم في بقعة مجاورة لم يطاولها الدمار لمحتُه واقفاً وغبار التفجير يغطيه. كان يجري مقابلة مع الصحافي البريطاني فارس غلوب ابن البريطاني الشهير باغوت غلوب. (كان معروفاً باسم غلوب باشا لدى قيامه بتدريب الجيش الأردني بين عامي ١٩٣٩ و١٩٥٦). ابتداءً من تلك اللحظة، تعلّمت الصبر والتحمّل والإيمان بالقضاء والقدر من أبو العباس، وكان هذا أول درس في علاقتنا.

إلى حمص ذهاباً وإياباً

خلال عام ١٩٨٠ وحتى خريف ١٩٨٢ عشتُ أنا وأبو العباس في بيروت. في تلك الفترة انشغل بإصلاح المكاتب الإدارية لجبهة التحرير الفلسطينية في منطقة الفاكهاني في بناء يضم أيضاً مكاتب لحركة فتح. ولكن أين سيجري تدريب مقاتلي الجبهة؟ كانوا بحاجة لميدان بعيد عن محيط الحرب، وهنا وافق أبو العباس على ضيافة حافظ الأسد له في الجوار السوري.

لم تكن سورية بالطبع مجرد دولة مجاورة للبنان، بل كان لها دور رئيسي فيه، فقد لعب السوريون دوراً رئيسياً خلال الحرب الأهلية في لبنان. كان الجنود السوريون والعناصر المسلحون الداعمون لهم واقعاً في حياتنا، وكانت المخابرات السورية موجودة في كل مكان. بالنسبة إلى الفلسطينيين في لبنان وخصوصاً القيادات الفلسطينية في منطقة الفاكهاني، كانت الحياة اليومية تشمل عرضاً جانبياً مستمراً: سورية؛ فالقادة الذين كان هدفهم الأول والأخير محاربة إسرائيل، أمثال ياسر عرفات وأبو العباس، وجدوا أنفسهم متورطين مع سورية أكثر من أي وقت، وكان أبو العباس ورفاقه من القياديين يتحادثون مع السوريين على الهاتف أو يقررون عدم الرد على تلك المكالمات. كانوا تارة يعقدون لقاءات معهم، وتارة يتجنبونهم، إما يزايدون في التعاطي مع سورية أو يقاطعونها.

في عام ١٩٨٠ دعا حافظ الأسد أبو العباس إلى فتح مراكز لجبهة التحرير الفلسطينية في حمص، وبالتالي ترتب على أبو العباس قطع مسافة ٧٠ كلم من بيروت إلى حمص عبر الجبال على نحو دائم. في ذلك الوقت، كان والداه قد توفيا وبقي له إخوانه الشباب وأخته في سورية، حيث كانوا لا يزالون يقيمون في الجزء الأفقر والأقدم من مخيم اليرموك، ولكن في شقّة تعود ملكيتها لهم. في دمشق، وتحديداً في منطقة ركن الدين الواقعة في الجزء الشمالي للمدينة، استأجر أبو العباس شقة في بناء من الإسمنت المسلح تبرز فوق سطحه قضبان حديدة تنبئ بنيّة المالك بإلحاق البناء بطبقة أخرى. واتخذ أيضاً شقتين مجاورتين، لتكونا مكاتب عمل يمارس فيها فريقه في دمشق أعماله اليومية. كان أبو العباس يعقد لقاءات مع مسؤولين سوريين في دمشق ويتشاور مع عشرات الشخصيات من داعمي الجبهة ممن يقيمون

في دمشق، وبعدها يقفل عائداً إلى بيروت. وفي كثير من الأحيان، كان يسافر إلى مدينة حمص ليتابع عن كثب سير العمل في معسكرات التدريب التي تضم ٢٠٠ عنصر. وكان أحياناً يمكث في حمص ليشرف بنفسه على عمليات التدريب.

كانت حمص المدينة التي تعرّف فيها أبو العباس إلى اللواء السوري غازي كنعان، الذي حارب على جبهة الجولان. كان اللواء كنعان شخصاً متنفّذاً ومثيراً للجدل، وهو من وصفته الروائية السورية كوليت خوري بالرجل «الوسيم والشبيه إلى حد كبير بجاك شيراك». كان كنعان بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٢ يشغل منصب رئيس الاستخبارات في المنطقة الوسطى، ومقرّه في مدينة حمص. لم يكن حافظ الأسد ذلك الرجل الذي يرحب بوجود جيش غريب على أراضيه، حيث عمد في نهاية أيلول الأسود عام ١٩٧٠ إلى إغلاق أبوابه في وجه معظم القيادات الفلسطينية التي فرّت من الأردن، ولكنه على مدى عامين متواصلين وافق على استضافة مراكز تدريب لجبهة التحرير الفلسطينية في حمص حيث يبقى المقاتلون الفلسطينيون تحت نظر غازي كنعان ورجاله.

كان أبو العباس يحبّ اللواء كنعان، وعملا معاً على نحو جيد. كذلك أسدى كنعان لي شخصياً معروفاً عندما أوقف مذكرة الاعتقال الصادرة بحقي بطلب من أبو العباس، وذلك عام ١٩٨١. إنها لفترة طويلة أن تكون ملاحقاً لمدة ستّ سنوات. ولكنني ارتحتُ بعد ذلك العام، وأصبحتُ قادرة على السفر إلى سورية إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وبعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، تسلّم غازي كنعان قيادة القوات السورية

وجميع الميليشيات الحليفة لسورية في لبنان. وبعد شهرين ولوجود الخطر من حولنا، طلب أبو العباس من كنعان إنقاذ حياتنا.

إسداء معروف لحافظ الأسد

بعد خروجنا من لبنان في عام ١٩٨٢ كانت مقارّ الجبهة الموجودة في حمص كل ما بقي لديها قبل تأسيسها مكاتب لها في تونس بالقرب من مكاتب فتح. لكنّ تونس لم تسمح بتواجد عسكري على أراضيها إلا لمجموعة صغيرة من القوات الخاصّة الفلسطينية التي جرت مرافقتها إلى الصحراء وتحت حراسة مسلّحة. لو لم تكن جبهة التحرير الفلسطينية تملك معسكرات تدريب في سورية، لكان من الصعب عليها تلقي التدريب لتنفيذ العمليات العسكرية، وبالتالي عندما طلب الرئيس السوري معروفاً صغيراً من أبو العباس، لم يتوانَ هذا الأخير لحظةً واحدة عن تلبية الطلب.

في أحد الأيام استدعى الرئيس الأسد أبو العباس إلى مكتبه الواقع على سفح قاسيون المطلّ على مدينة دمشق. كان حافظ الأسد يجلس على كرسي كبير من الخشب المطعّم بقطع الأرابيسك الدمشقي بتصميم عربي تقليدي. قال الأسد: «ابني الأكبر باسل التحق بالتدريب ليصبح ضابطاً في الجيش، وأنا أريدك أن تساعدني كي أصنع منه رجلاً. أريده أن يخضع للتدريب ذاته الذي خضعتُ أنا له عندما كنتُ شاباً. ولكن هذا صعب في سورية، لأنّ الجميع يعامله كملك. أنا أريد منك أنت أن تقوم بتدريبه على المظلات مع العناصر لديك». وأضاف الأسد أنه يجب ألا يحصل

باسل على أية امتيازات، بل يجب أن يتلقى جميع التدريبات مثله مثل باقي المقاتلين الفلسطينيين. وأردف أيضاً: «في حال ارتكابه أيَّ خطأ، لديك مطلق الحرية بتوجيهه. وإذا رفض الإذعان لأية أوامر، لديك مطلق الحرية في معاقبته أيضاً».

كان باسل في ذلك الحين لا يزال شاباً صغيراً في العقد الثاني من عمره، ولم يكن بعد قد أصبح ذلك الضابط الوسيم الذي بقيت صورته تملأ شوارع سورية بأكملها خلال الثلاثين عاماً التالية، حيث ظهر فيها شاباً واثقاً وهو يرتدي نظارة الطيّار ويمشي مزهواً بزيّه العسكري وينظر مباشرة إلى الكاميرا.

في تلك الفترة، كان باسل هو المرشح الأول لخلافة والده في كرسي الرئاسة، وكان الأسد بحاجة إلى شخص من خارج محيطه المعتاد يكون قادراً على زرع تلك القسوة التي شعر الأسد بأنها مطلوبة ليصير ابنه في منصبه رئيساً للدولة السورية. وبالفعل، أخذ أبو العبّاس باسل تحت جناحه في ذلك الصيف. كان يرى في ذلك الشاب رجلاً واعداً، وكان يصفه «بالجريء والمقدام». لكن أكثر ما أثار إعجاب أبو العباس هو رغبة حافظ الأسد في صنع رجل من ابنه الأكبر بإرساله لتلقي التدريب في المعسكرات الفلسطينية ذات الطبيعة القاسية، بدلاً من إرساله إلى المعاهد العسكرية النخبوية كما فعل الملك حسين عندما أرسل ابنه عبد الله إلى كلية ساندهارت الحربية الملكية في بريطانيا، أو إلى الجامعة لنيل إجازة في إدارة الأعمال من جامعة القاهرة، كما فعل حسني مبارك مع ابنه جمال. (خاض الأسد هذه التجربة مع ابنه بشار الذي أرسله للتخصص في طب العيون في بريطانيا).

أعطى أبو العباس تعليماته الصارمة لأرفع القيادات لديه في جبهة التحرير

الفلسطينية، وقال لهم: «لا تدعوه يغيب عن نظركم لحظة واحدة. هذا ابن حافظ الأسد. سنموت جميعاً لو حدث له أي مكروه». في مساء يوم من الأيام، وبعد ساعات طويلة من العمل الشاق، غادر أبو العباس إلى دمشق، تاركاً باسل في معسكر التدريب ليتناول كالمعتاد عشاءه مع زملائه من الجنود ويخلد للنوم باكراً استعداداً لتلقي تدريب قاسٍ في صباح اليوم التالي. لكن لم يكد أبو العباس يصل إلى منزله في دمشق، حتى بدأ جهاز التواصل مع المعسكر يومض بالضوء الأحمر منبئاً بطلب قائد المعسكر لنجدة عاجلة من خطر محيق. رد أبو العباس بنبرة حادة: «ما الخطب؟». أجاب الضابط متلعثماً: «باسل... باسل...»، وهنا صرخ أبو العباس: «ماذا أصابه؟»، وردّ الضابط: «لا شيء سيدي. إنه بخير. ولكنه تسلل في منتصف الليل وغافلنا، ومن دون حتى أن نراه ركب الطائرة وأقلع بها وحده».

اندفع أبو العباس والشرر يتطاير من عينيه عائداً إلى المعسكر في حمص، وتأكد بنفسه أنّ باسل هبط بالطائرة بخير وسلامة، واعتقل أبو العباس جميع الضباط الفلسطينيين المناوبين في تلك الليلة. طبعاً، أبو العباس لم يخبر حافظ الأسد بما حدث، ولا نعلم إذا ما كان باسل أخبر والده. كان باسل شاباً شجاعاً يهوى ركوب المخاطر، وكان الكثيرون يعتقدون أنّ لديه من الصفات المميزة ما يؤهله تماماً لخلافة والده في قيادة سورية. وفي العقد التالي، شعر الأب بتدهور في صحته بعض الشيء، ولكنه مع ذلك لم يتخلَّ عن كرسيّه في السلطة. بالنسبة إليه، كان باسل الوريث المنتظر لتولي السلطة. ولكنه توفي في كانون الثاني عام ١٩٩٤ في حادث سيارة كان يقودها بنفسه متوجهاً إلى مطار دمشق الدولي.

محاولة اغتيال

في الوقت الذي كان فيه أبو العباس يتنقل جيئة وذهاباً بين دمشق وحمص وبيروت، كنتُ أقضي وقتي في بيتي في رأس بيروت. كنتُ أعمل مع والدي وأزور أمي بين الحين والآخر وأقوم بتربية أولادي. وفي صيف عام ١٩٨٢، وبعد أن فرضت إسرائيل حصاراً على بيروت، كنتُ بحاجة لأخذ استراحة، وكان مطار بيروت لا يزال مفتوحاً، لذا ذهبتُ في زيارة إلى قبرص مع إحدى صديقاتي، وهي أخت سمير صباغ الذي كان يعمل نائباً لدى إبراهيم قليلات قائد الميليشيات السنيّة الذي كان ناصريّاً في أعماقه وحليفاً لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان أبو العباس قد عاد إلى بيروت ويداوم في مكتب الجبهة في منطقة الفاكهاني. وفي أحد الأيام، وبينما كان أبو العباس يهمّ بتناول الغداء، وقع أمر قطع عليه وجبته قبل أن يتناول منها لقمة واحدة.

كان أحد الوشاة قد أبلغ الإسرائيليين بمكان أبو العباس، وبالتالي قامت طائرة إسرائيلية بضرب مبنى جبهة التحرير الفلسطينية في منطقة الفاكهاني بقذيفة صاروخية أدت إلى انشطار المبنى إلى نصفين. ولحسن الحظ أنّ أبو العباس كان لحظة سقوط القذيفة في الطبقة العاشرة من المبنى، في الجزء الذي لم يتهاوَ. عندما استعاد وعيه، نظر من خلال الركام والغبار المتصاعد نحو الجزء الداخلي من المبنى، حيث كان يفترض وجود المكاتب الداخلية وشقق الجبهة، رأى الشارع المقابل للبناء، مكشوفاً تماماً على علو ٣٠ متراً عن الأرض. ركض أبو العباس ورفاقه باتجاه الدرج الداخلي ليجدوه حطاماً، فلم يبق لديهم أمل سوى الانزلاق عليه،

وهكذا قفزوا وبنادقهم تتدلى عشوائياً على أكتافهم، وأخذوا ينزلقون واحداً تلو الآخر وسط القطع الإسمنتية المعلقة بقضبان فولاذها الداعم، واستطاعوا اجتياز عشر طبقات بالانزلاق فوق الحطام المتراكم. وفي النهاية نجحوا في الخروج من ذلك المبنى، ولكنهم أُصيبوا برضوض وجروح مختلفة راوحت بين البسيطة والحرجة جداً، ولكن المعجزة كانت في نجاتهم جميعاً. عندما وصل أبو العباس إلى الأرض، بدأ يركض إلى الأمام وإلى الخلف كالمجنون طلباً للمساعدة.

كانت القاعدة الأولى خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان تقول: إن رأيت شخصاً ينزف، فعليك المضي في الطريق المعاكس والفرار من تلك المنطقة بسرعة. والسبب هو أن الطائرات ستضرب بالتأكيد المكان مرة ثانية وترديك وإياه. بمعنى آخر، عندما كان الإسرائيليون يقصفون منطقة من الجو، فإنهم يعودون إلى ضرب المنطقة نفسها بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة على الأكثر، كي يجهزوا على من نجوا من الضربة الأولى وهم يحاولون الخروج من تحت الركام إلى جانب من يقوم بإنقاذهم. كانت الإجراءات الإسرائيلية مضبوطة وفق معايير تقضي بتدمير شامل للمكان وحصد أكبر عدد ممكن من الأرواح.

حاول أبو العباس التلويح للسيارات وللمارّة، ولكنهم جميعاً اندفعوا مبتعدين والذعر يعتريهم لدى رؤية هذا الرجل الضخم المضرّج بالدماء والمغطى بالغبار ويحمل بندقية على كتفه. وفجأة سمع أبو العباس أنيناً يصدر من تحت الأشلاء المتناثرة. كانت امرأة إثيوبية عالقة وسط الركام تبذل جهداً في مناداة من يساعدها. عاد أبو العباس إلى وسط الركام

وبدأ بسحب السيدة منه عندما عاودت الطائرات الإسرائيلية ضرباتها التي أتت هذه المرة على كامل المبنى وأحدثت إحدى شظاياها جرحاً في رأس زوجي. في هذه المرة استخدم أبو العباس القوة، وأجبر إحدى السيارات على الوقوف، وطلب من سائقها أن ينقله إلى مستشفى الجامعة الأميركية. كانت قدماه تكادان لا تحملانه لدى وصوله إلى بهو المشفى، وعلى الفور طلب طبيبه فؤاد حداد وغاب عن الوعي قبل إدخاله غرفة العمليات.

في قبرص تابعتُ مجريات تلك الأحداث عن بعد، حيث جلستُ أبكي وحيدة من دون أن يكون لديّ أي طريقة لأعرف إذا ما كان حبيبي حيّاً أو ميتاً. ولم يمضِ وقت طويل حتى سمع أخو صديقتي، سمير صباغ، بخبر تلك الضربات، فاتصل بشقيقته وأخبرها أن الهجوم كان محاولة لاغتيال أبو العباس. وهنا حجزتُ على أول رحلة عائدة إلى بيروت، وتوجهتُ فوراً إلى مستشفى الجامعة الأميركية لرؤيته. كانت السيارة تنطلق بي في وسط مدينة بيروت التي مزّقتها الحرب عندما شعرت بأنني تغيرتُ كثيراً وأدركتُ في تلك اللحظة تحديداً أنّ الرجل الذي أريد أن أكمل معه باقي حياتي هو أبو العباس.

بعد فترة قصيرة جرى التوصل إلى اتفاقية هدنة، وذلك بوساطة مبعوث الرئيس ريغان إلى الشرق الأوسط فيليب حبيب. وتضمنت شروط تلك الاتفاقية انسحاب ١٤,٠٠٠ مقاتل فلسطيني (٦,٥٠٠ منهم من حركة فتح) إلى سورية والسودان وتونس التي كانت حصتها هي الأكبر، وذلك بين شهري آب وأيلول من عام ١٩٨٢. وأُقرَّت عملية الإخلاء بإشراف

القوى المتعددة الجنسية في لبنان وقوات حفظ سلام دولية من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

قضت الخطة بسفر أبو العباس، وكذلك عرفات إلى تونس. كان من الصعب على أبو العباس اتخاذ مثل هذا القرار، فقد كان يخشى ألّا يتمكن من العودة إلى بيروت أبداً، وبالفعل لم يعد بعدها إلى بيروت. وافق أبو العباس على اللحاق برئيس منظمة التحرير الفلسطينية، رغم الاختلاف الهائل بينهما، الذي استمر كذلك حتى وفاتها عام ٢٠٠٤. كان أبو العباس عندما يتحدث عن عرفات يطلق عليه لقب «الختيار» تقديراً له. ما زلت أذكر كيف كان دوماً يقول لمقاتليه: «استمعوا لما يقولوه الختيار. وإذا حصل خلاف بينه وبين شخص آخر عليكم باتباع عرفات».

في تلك الأيام قبل الرحيل إلى تونس كانت الأوضاع الأمنية في شوارع بيروت لا تطاق. وكان أبو العباس قد نقل مكاتبه إلى بناء مجاور لذلك الذي دُمّر في منطقة الفاكهاني. كان الرهان أنّ الإسرائيليين سيعاودون محاولة اغتيال أبو العباس ثانية، ومع ذلك كنتُ أزوره يومياً في مكتبه، وكان خائفاً على سلامتي.

كان أبو العباس وعرفات يستشعران حدوث موجة من الانتقامات فور مغادرة القيادات الفلسطينية إلى تونس عبر البحر، وقد توصل الكثيرون إلى الاستنتاج ذاته، فقد كان الطريق العام الرئيسي المتجه شرقاً إلى سورية يعجّ بالفلسطينيين واللبنانيين المسلمين، وهناك كان من السهولة إحكام قبضة الأعداء عليهم. ترى كم عدد الذين قُتلوا على نقاط التفتيش التابعة للكتائب؟ لا توجد أي سجلات لذلك.

الهرب إلى سورية

أيها أكثر أماناً لنا؟ أن نختبئ داخل رأس بيروت، أم أن نحاول الوصول إلى سورية؟ فكّر أبو العباس مليّاً بالأمر، ثم حزم أمره: سنعبر الحدود.

خلال الحرب الأهلية في لبنان كان السير في أي شارع وأيّ مكان مخاطرة كبرى، وهذا ينطبق على المناصرين من كلا الطرفين. كانت كل قوة مسلحة في حيّ من أحياء بيروت، أو حتى ضاحية صغيرة فيها، تشعر بأنّ لها الحق في إرساء نقطة تفتيش وتقرر تلقائياً، فضلاً، عن نقاط التفتيش التي كان قادتهم يأمرونهم بإقامتها. عندما تقف على تلك النقاط ويدقّق في أوراقك الثبوتية رجال مسلحون، تشعر بالعجز تماماً. ولا يمكنك التنقل أبداً من دون تلك الأوراق. وليس لديك أي سبيل لتعرف مسبقاً مَن القائم على أيّ نقطة تفتيش أو ما يدور في رأسه من اعتبارات.

في بداية الحرب الأهلية في شهر كانون الأول عام ١٩٧٥ وقعت مجزرة السبت الأسود بعدما عثر أحد قادة الكتائب على جثة ولده مرميةً مع جثث ثلاثة من أصدقائه قرب شركة الكهرباء في المنطقة المسيحية من بيروت الشرقية. قام الأب المنكوب بنشر نقاط تفتيش على الطرق الرئيسية المجاورة ليقوم مقاتلو الكتائب فيها بالتدقيق في أوراق المارّة الذين إذا صودف أنهم من المسلمين، سواء أكانوا فلسطينيين أم لبنانيين، يوقَفون ويُنزَلون من سياراتهم ويُقتَلون في مكانهم.

اصطحبتُ أمي وولديّ وأخي رامي الذي كان قد عاد للتو من دراسته في الولايات المتحدة، وسلكنا طريق الخروج من البلد. كنا بأمان ما دامت

يد غازي كنعان هي التي تمسك بيدنا على ذلك الطريق. لم يكن بمقدور أحد أن يُقلّنا بأمان أكثر منه، هو الذي كان لديه من الحنكة ما يكفي لتجنب الطريق الرئيسي المتجه شرقاً من بيروت. لقد قادنا غازي باتجاه الشمال على الطريق الساحلي المؤدي إلى جبيل، حيث توقفنا لتناول غدائنا في الهواء الطلق على الشاطئ تحت شمس آب الجميلة، ولنتابع بعدها مسيرنا في سيارتين باتجاه الحدود السورية. دخلنا دمشق، حيث كان أبو العباس قد أعطاني مفاتيح شقته في ركن الدين، وشعرت بالأمان. وفي الوقت الذي كنتُ أنتظر فيه انتهاء الأحداث في بيروت، كنتُ كثيراً ما أفكر في سخرية الوضع الذي أعيشه. فخلال شبابي كانت الحكومة السورية بالنسبة إلينا تُعَدُّ مجرمة لاستخدامها الفلسطينيين كبيادق في مناوراتها مع إسرائيل. كانت هذه المرة الثانية خلال سبع سنوات التي نجوت فيها بحياتي عبر اللجوء إلى سورية. كان غازي كنعان بالنسبة لي رمز الرجل الشهم الذي وعد ونفّذ وعده وأسدى إليّ معروفاً لا يُنسى عام ١٩٨٢.

كان لوقف إطلاق النار الذي بدأ في شهر آب ١٩٨٢ دوره في إنقاذ حياة قيادات منظمة التحرير الفلسطينية ومقاتليها، كان عرفات وقياداته قلقين، فقد شكلت قيادة الصراع من تونس البعيدة بداية مسيرة طويلة سيحرمون خلالها من الولوج إلى أرض العدو والحصول على السلاح سيستغرق وقتاً طويلاً، ولا وجود لساحات يشعلون فوقها حربهم. وكان آخر ما يخيفهم أن يتحولوا إلى مجرد ثوار مقاعد، يجلسون أمام شاشات التلفاز ويتابعون من شمال أفريقيا ما يجري فوق أرضهم فلسطين: يا لها من نهاية حلوة مرّة لصراع شجاع كان واعداً في يوم من الأيام!

الرقص على رصيف الميناء

بيروت، ٣٠ آب ١٩٨٢. رحيل عرفات ورفاقه من لبنان

بعد أسبوعين من فراري إلى سورية، باشرت القيادات الفلسطينية رحلاتها إلى المنفى في السودان وتونس وسورية. كتب توماس فريدمان الصحافي المعروف في صحيفة **نيويورك تايمز** الأميركية، واصفاً ذلك الحدث بقوله: «حتى إنّ منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن هي ذاتها بعد خروجها من لبنان، ولا حتى العالم العربي كان آبهاً لذلك. في الثلاثين من آب ١٩٨٢ مات شيء في العالم العربي».

آلاف الرجال والنساء احتشدوا في ميناء بيروت مرتدين الكوفية الفلسطينية وقلوبهم تعتصر حرقة وعيونهم تطفح بالدموع وهم يقولون: «الله معك». كانت تلك المرة الأولى منذ عام ١٩٤٨ التي يخرج فيها الفلسطينيون من حلقة الدول المحيطة بفلسطين مثل سورية والأردن ولبنان. لدى صعوده على الدرج المتحرك، وفي محاولة منه لرفع معنويات رجالاته، قام عرفات بحركة شجاعة، حيث سأله أحد الصحافيين عن وجهته، فأجاب بحماسة: «إلى فلسطين... إلى القدس». ولكن يا للحسرة! ليس من طريق بحري يقودهم إلى القدس، وعرفات كان يعلم ذلك تماماً.

لدى مغادرة ميناء بيروت، وقبل توجهها نحو الجنوب الغربي إلى تونس، كانت السفينة التي تُقل أبو العباس وأبو جهاد تتجه شمالاً نحو ميناء طرطوس على الشاطئ السوري. لذا أخذتُ سيارة من دمشق وانطلقتُ إلى مدينة طرطوس مع الفلسطينيين القاطنين هناك في مخيمات اللاجئين

للترحيب بقيادات منظمة التحرير الفلسطينية. وقفتُ وسط جموع المحتشدين من أولاد ورجال ونساء ومسنين يحملون صور عرفات ويلوّحون بالعلم الفلسطيني. عندما وقف أبو العباس على الدرج المتحرك بدأوا بالغناء والرقص احتفالاً، وأنا رقصتُ معهم أيضاً، ولكنّ سؤالاً ملحّاً كان يدور في ذهني، هو: «ما الذي حدث لنحتفل هكذا؟ الهزيمة؟ المنفى الجديد؟».

انتظرتُ دقيقةً ثمّ خطرت لي فكرة. «نحن نحتفل بصمودنا، وقدرتنا على الاستمرار والتقدم إلى الأمام». لم يكن باستطاعتي معانقة أبو العباس لكثرة الجماهير التي كانت تغمره، ولكني لاحظتُ كم كان شاحباً ومرهقاً، حتى إنّ نظرات عينيه كانت مشتّتة من وطأة الحصار الإسرائيلي الذي كان على وشك الإجهاز عليه. كانت كلماتي تتطاير فوق رؤوس المحتشدين حوله وأنا أسأله: «محمد، كيف حالك؟» كلماته التي وقعت في قلبي كانت تقول: «أنا متعب... متعب جداً... جداً».

غادرنا مدينة طرطوس واتجهنا إلى دمشق. تزوجنا في التاسع من شهر أيلول ١٩٨٢، الذي كان يصادف عيد ميلادي الثلاثين، ذهبنا إلى الشيخ وملأنا الاستمارات القانونية للزواج وعدنا إلى شقتنا في ركن الدين. لم يكن أبو العباس يشعر بأنه على ما يرام، لذا خلا احتفالنا من الأهل والورد والشمبانيا. كان زوجي لا يزال يعاني من شظية ذلك الصاروخ الإسرائيلي التي أصابته في رأسه في منطقة الفاكهاني. وبعد فترة قصيرة سافرنا إلى الاتحاد السوفياتي على نفقة الحكومة السوفياتية كي يتلقى أبو العباس العلاج المناسب ويتعافى من إصابته.

مع مغادرة القوات الفلسطينية المسلحة بيروت، من تراه سيحمي المدنيين الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين هناك؟ كان عرفات قد طلب من القوات المتعددة الجنسية الإيطالية والفرنسية والأميركية التي رافقت رجاله خلال خروجهم من بيروت حماية المدنيين في العاصمة اللبنانية، ولكن للأسف لم يلقَ طلبه أذناً صاغية. لم يثق عرفات وأبو العباس يوماً بالإسرائيليين أو بالكتائب المسيحية الذين كانوا يمسكون حينها بزمام الأمور. كانا يشعران بأن خطباً مرعباً سيحدث قريباً.

بيروت، ١٤ أيلول ١٩٨٢، اغتيال بشير الجميّل

بعد أسبوعين على مغادرة القوات الفلسطينية لمدينة بيروت، جرى اغتيال الرئيس المسيحي الشاب بشير الجميّل (الذي لم يمضِ على وجوده في السلطة سوى ثلاثة أسابيع). كان بشير الجميّل جسر العبور الذي مكّن أرييل شارون من غزو لبنان، وربما هذا هو سبب استهدافه على يد حبيب الشرتوني، وهو عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان آنذاك حليفاً للسوريين والفلسطينيين. وجاء ردّ الميليشيات المسيحية سريعاً على ذلك، إذ احتلّت كامل بيروت الغربية. وبدأت على الفور في اليوم التالي عمليات ملاحقة جنونية، حيث شنّت حملة اعتقالات عشوائية لكل من هو فلسطيني أو سوري أو لبناني ذي انتماء عربي في بيروت الغربية، دون أن يكون لهم ذنب سوى أنهم كانوا في المكان والزمان الخطأ. وخلال تلك العملية دهموا مكتب والدي وحاولوا اعتقاله.

في يوم الأربعاء توغل عناصر الجيش الإسرائيلي داخل أحياء بيروت

الغربية، في خطوة وصفتها صحيفة النيويورك تايمز الأميركية بأنها «خرق لاتفاقية وقف إطلاق النار التي أُبرمت برعاية الولايات المتحدة». وكان مخيَّما صبرا وشاتيلا من ضمن تلك الأحياء، حيث قامت قوات الدفاع الإسرائيلية بمحاصرتها، وأغلقت جميع منافذها ووضعت نقاط تفتيش لضبط حركة الدخول إليها، ونشرت قناصيها على الأسطح المجاورة. كانت مخيمات صبرا وشاتيلا مكشوفة تماماً أمام العناصر الإسرائيلية التي تمركزت تحديداً على سطح السفارة الكويتية، وصبّت الدبابات الإسرائيلية بعد ذلك نيرانها على المخيمات.

ووفقاً لما ذكرته ليندا مالون من جمعية صندوق القدس، فقد التقى أرييل شارون مع ميليشيات الكتائب، ووجّه إليها «دعوة» لدخول مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا، زاعماً أنّ منظمة التحرير الفلسطينية هي المسؤولة عن اغتيال الجميّل. وبعد ذلك بفترة قصيرة، نُفِّذت العملية بقيادة أحد قائدة حزب الكتائب إيلي حبيقة الذي أدخل ١٥٠ رجلاً إلى مخيَّمي صبرا وشاتيلا من عناصر الميليشيا الشرسة. وكانت حجة الكتائب المزعومة هي وجود ألفي إرهابي تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية خلّفهم عرفات وراءه على حد قولهم.

شهدت الحرب الأهلية اللبنانية العديد من الأحداث الاستفزازية، حيث غرقت الميليشيات بصراع في ما بينها، ولكن هذا الصراع طاول المدنيين أيضاً فُرادى أو في مجازر جماعية دامية. كانت تلك الحرب ببساطة بين طرفين، الكتائب المسيحية مدعومة بأصدقائها الإسرائيليين ضد الجناح اليساري من المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين، مدعوماً بأصدقائه السوريين. ومن

مفارقات تاريخ تلك الحقبة وأكثرها سخرية، أن إيلي حبيقة الذي كان أبرز قياديي الكتائب المسيحية، أصبح في ما بعد حليفاً لسورية.

مجزرة صبرا وشاتيلا

بيروت، ١٥ أيلول الحادية عشرة ليلاً

قبل منتصف الليل أعلنت المقارّ الإسرائيلية المتمركزة في بيروت الشرقية مقتل أكثر من ٣٠٠ شخص، بينهم مدنيون في صبرا وشاتيلا. وأُرسل تقرير بذلك إلى المقارّ الرئيسية في تل أبيب والقدس، حيث اطّلع عليه أكثر من عشرين ضابطاً إسرائيلياً من ضباط الرتب العليا. في مكان ما من تلك المخيمات، رفع أحد رجالات الميليشيا جهاز اللاسلكي وتحدث إلى القائد حبيقة مستفسراً: «ماذا نفعل بالنساء والأطفال الموجودين في مخيم اللاجئين؟». كان أحد الضباط الإسرائيليين يسمع بوضوح ضحكات عناصر الكتائب الساخرة من السؤال، وسمع بوضوح أيضاً ردّ حبيقة الذي قال: «هذه آخر مرّة توجه أسئلة كهذه. أنت تعلم بالضبط ما يجب أن تفعله».

استمرّت سكاكين القتل في جزّ رقاب قاطني صبرا وشاتيلا لمدة ٣٨ ساعة حصدت خلالها أرواح ٨٠٠ شخص. ولكن التقديرات الحقيقية تشير الى حصيلة راوحت ما بين ١٨٠٠ و٣٥٠٠ ضحية. وكانت هذه الأرقام الأخيرة قد وردت في صحيفة لوموند ديبلوماتيك بقلم الصحافي الإسرائيلي آمنون كابيليوك، وانتشرت انتشاراً واسعاً في كتب المؤرخين الفلسطينيين.

في الوقت الذي كانت فيه مخيمات صبرا وشاتيلا لا تزال مطوّقة، تمكن

بضعة من المراقبين الحياديين من دخولها. وكان بين هؤلاء المراقبين الصحافي والديبلوماسي النرويجي غانر فلاكستاد، الذي رأى بأمّ عينه قوات الكتائب وهي تنظّف مسرح جريمتها عبر انتشال الجثث من تحت أنقاض المنازل المهدمة. كانت الجثث بأغلبيتها مشوهة بشكل وحشيّ، حتى الأولاد لم يسلموا من سكين الجزّار التي أخصتهم وسلخت فروات رؤوسهم لتنتقل إلى صدور بعضهم وتحفر عليها شارة الصليب المسيحية.

وكتبت الصحافية الأميركية جانيت لي ستيفين التي دخلت المخيمات بعد المجزرة في رسالة بعثت بها إلى زوجها: «لقد رأيتُ جثث النساء ممددة داخل بيوتهن. كانت التنانير التي يرتدينها مرفوعة إلى الخصر لتكشف عن ساقين متباعدتين. عشرات الشبان صُوِّبَت الرصاصات إلى رؤوسهم المستندة إلى جدار بصف واحد. شاهدتُ أطفالاً ذُبحوا من الوريد إلى الوريد. لكنْ ثمّة امرأة حامل كانت تتمدد ببطنها المبقور الذي خرجت منه أحشاؤها. كانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، ووجهها يصرخ رعباً بصمت. لا يمكنك إحصاء عدد الأطفال الرضع ومن هم دون السنة الذين قُتلوا طعناً وقُطِّعوا أشلاءً، وأُلقوا في أكوام القمامة».

في ١٦ كانون الأول ١٩٨٢، أي بعد شهرين من تلك المذبحة التي على ما يبدو لم تكن كافية، قام المجتمع الدولي بزيادة الطين بلّة في الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة، حيث صرّح السفير الكندي قائلاً: «إن مصطلح الإبادة الجماعية لا ينطبق من وجهة نظرنا على هذا العمل اللاإنساني بالذات». وأضاف ممثل سنغافورة: «إن الوفد يشعر بالأسف لاستخدام مصطلح أعمال الإبادة الجماعية، بما أنّ هذا المصطلح يستخدم للإشارة إلى

أعمال تُرتكب بهدف تدمير مجموعات قومية أو عرقية أو إثنيّة أو دينية، سواء بنحو جزئي أو كلي». أما الولايات المتحدة، فعلّقت قائلةً: «إن تصنيف هذه المجزرة كعمل إجرامي أمر لا جدال فيه، ولكن هناك سوء استخدام خطير ومتهور للغة في إدراج هذه المأساة تحت عنوان الإبادة الجماعية».

لم يكن قد مضى على زواجنا سوى عشرة أيام فقط حين سمعنا بخبر مجزرة صبرا وشاتيلا. كنا عاجزين عن فعل أي شيء. لسنوات عديدة تلت، كان أبو العباس يذكر تلك الأحداث ويتساءل: «إن لم تكن تلك إبادة جماعية، فما هي إذاً؟!»، وهو يهزّ رأسه غير مصدِّق ما حدث. نزل خبر مجزرة صبرا وشاتيلا كالصاعقة على الفلسطينيين في سائر أنحاء العالم، وتركهم مذهولين غير مصدقين. وأعتقد أنّ أكثر من تأثر بذلك كانوا أربعة شبّان فلسطينيين يافعين فقدوا عائلاتهم وأصدقاءهم في تلك المجزرة، وبعد ثلاث سنوات شقوا طريقهم إلى حيفا على متن سفينة إيطالية اسمها أكيلي لاورو.

حظيت العناصر العسكرية الفلسطينية التي غادرت بيروت في آب ١٩٨٢ بترحيب في دول عربية عدة، من بينها السودان وتونس، لكنّ هذه الأخيرة نقلت ١,١٠٠ منهم في شاحنات إلى قلب الصحراء، حيث مكثوا في براكيات محاطة بالأسوار وتحت حراسة دائمة. وبرر وزراء الحكومة هذا التصرف بقولهم إنّ من المسموح لمنظمة التحرير الفلسطينية اتخاذ مكاتب سياسية فقط وسط العاصمة، وليس مقارّ تدريب أيّاً كان نوعها. كذلك يُمنع على عناصرها العسكريين حتى أولئك القاطنين بعيداً في مخيمات وسط الصحراء القيام بأي تدريبات عسكرية: لا فرق مدفعية، ولا دورات حواجز ولا تمارين تكتيكية. وهنا طرح السؤال نفسه: لماذا؟ ليأتي جواب الحكومة التونسية بأن

الوجود العلني لجيش فلسطيني في تونس سينعكس سلباً على السياحة فيها.

بقي في لبنان ٩,٠٠٠ مقاتل كانوا يمكثون بالقرب من طرابلس. وفي دمشق رُحِّب ببعض القادة الفلسطينيين أيضاً، بالإضافة إلى أن معسكرات التدريب الموجودة في حمص كانت لا تزال موجودة وفاعلة كما من قبل. كانت الشريحة الأكبر من عناصر الفلسطينيين العسكريين الموجودين في سهل البقاع تخضع للمراقبة السورية التي أزعجها وجود عسكريين غير سوريين بالقرب من دمشق.

هناك ما بعد المتوسط في ذلك المكان الذي يبعد ٢,٣٠٠ كلم غرباً من بيروت، افتتح ياسر عرفات مكاتب فتح في تونس، وافتتح أبو العباس مكتب جبهة التحرير الفلسطينية بجواره. ثم لحقتُ به أنا والأولاد للعيش هناك. لكنّ أبو العباس وعرفات كانا يسافران باستمرار. تُرى ما الذي كان يخطط له عرفات بعد تسعة أشهر على مجزرة صبرا وشاتيلا؟ كان عرفات في ذلك الوقت يتعرض لنقد لاذع لرضوخه لأوامر الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل في الخروج من بيروت تحت نيران العدو الإسرائيلي، تاركاً وراءه أهله من الفلسطينيين العزَّل دون أي ضمانات بالحماية سوى بعض الوعود الأميركية التي تحولت إلى ضمانات موت لنحو ٣,٥٠٠ منهم.

دمشق، ٢٥ نيسان ١٩٨٣، لقاء عرفات بالرئيس حافظ الأسد

مع أواخر شهر نيسان التقى عرفات بالرئيس حافظ الأسد وانتهى الاجتماع باحتدام حاد بين الطرفين. كانت هناك مشكلة ضمن مجموعات حركة فتح التابعة لعرفات، حيث اعتبرت مجموعة من قيادات الصف الثاني في فتح

أنّ عرفات مسؤول عن الدماء التي سُفكت، وبالتالي انشقوا عن الحركة وغادروا إلى سورية. وفي شهر أيار اندلعت حركة التمرّد، حيث شعر المنشقون بأنّ تلك المفاوضات التي جرت لإخراج عرفات من بيروت هي وراء مذبحة صبرا وشاتيلا. كان عرفات بالنسبة إليهم رجلاً مطواعاً وعلى استعداد للموافقة على خطة السلام التي كانت تدعمها إدارة ريغان. ووجّه المنشقون إلى عرفات اتهامات بتعيين شخصيات فاسدة من الموالين للحركة في مراكز النفوذ، بدلاً من تنصيب شخصيات هدفها الأول والأخير العمل على تحرير فلسطين. في شهر أيار، وبدعم من مدفعية الجيش السوري، بدأت إحدى المجموعات بقيادة العقيد سعيد أبو موسى بشنّ هجوم على مخيمات البداوي ونهر البارد قرب طرابلس.

في شهر حزيران التقى عرفات مع مسؤولين في دمشق للمرة الثانية. وبعد هذا اللقاء أمهله حافظ الأسد ٢٤ ساعة لمغادرة البلاد. وبالفعل، غادر عرفات دمشق مع ستة من مرافقيه. وتشير مصادر إلى أنّ سورية حاولت اغتياله في تلك الزيارة، لكنها أخفقت في ذلك. وفي ٢٧ حزيران اغتيل سعد صايل، وهو من أشدّ الموالين لعرفات وقائد المجموعات المسلحة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي بقيت في لبنان، ومن المحتمل أن يكون عملاء سوريون وراء تلك العملية.

بعد شهرين من مغادرته دمشق، عاد عرفات إلى قبرص، وهناك حلق ذقنه وغيّر من هيئته ليدخل متنكراً وتحت اسم مستعار إلى طرابلس، لينضم إلى قواته المحاصرة في مخيمات البداوي ونهر البارد. وفي خريف ذلك العام،

تمكن المنشقون الفلسطينيون من إرغام العناصر المسلحة الموالية لعرفات على الخروج من سهل البقاع والتوجه إلى المخيمات القريبة من طرابلس. وفي ٢١ كانون الأول غادر عرفات طرابلس مع ٤,٠٠٠ عنصر من مقاتليه على متن خمس سفن يونانية إلى وجهات مختلفة، كاليمن والسودان ودول عربية أخرى.

في شهر أيار لعام ١٩٨٣، تلك الفترة التي شهدت ذروة القطيعة بين عرفات وحافظ الأسد، كان أبو العباس لا يزال مستقرّاً في شقته في ركن الدين بدمشق، وعلى رأس عمله إدارة كادره الذي كان لا يزال يعمل في شقة مجاورة، ويمكنني القول إنّ معسكرات التدريب التابعة لجبهة التحرير الفلسطينية كانت لا تزال هي الأخرى قائمة وفاعلة في مقرّها في حمص. في تلك الفترة، كان من الواضح لأبو العباس أنه ليس لديه أي بديل عن سورية، خاصة أنه لا يمكن للجبهةَ أن تستمر في عملياتها من دون تلك المعسكرات.

وفي أحد الأيام استُدعي أبو العباس إلى مكتب صديقه العماد علي دوبا الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس الاستخبارات العسكرية في سورية. أما الأوضاع في مخيمات البداوي ونهر البارد، فكانت تتأزم ورائحة وقود الدبابات السورية تملأ الهواء من حولهم. كانت سورية توفّر ملاذاً وسيولة مالية لأيّ مجموعة ترغب في الانشقاق عن فتح والوقوف ضد سلطة عرفات. بالنسبة إلى أبو العباس، كان يحاول الوقوف على مسافة واحدة من كل من دمشق وعرفات. كان علي دوبا رجلاً قاسياً لا يرحم، وكان السوريون يرتجفون لمجرد سماع اسمه. في زنزاناته مات مئات الفلسطينيين ومن جماعة الإخوان المسلمين السوريين، في السنوات العشر السابقة. لكن

عندما دخل أبو العباس إلى مكتب علي دوبا، استقبله بابتسامة وطلب منه التفضل بالجلوس، وبدأ بعدها بتقليب بعض الأوراق من دون أن ينبس بكلمة واحدة. أما أبو العباس، فقد جلس دون أن يرف له جفن، بالرغم من أنه كان يعلم تماماً أنّ دوبا كان يمارس إحدى تقنيّات الاستجواب الاستخباراتي الذي عُرف به عناصر الاستخبارات السورية، فقد كانوا يتركون المشتبه به ينتظر طويلاً، ثمّ يعذبونه حتى يعترف من تلقاء نفسه. وبعد انتظار، توجه علي دوبا إلى أبو العباس وقال له بهدوء: «لدينا تقارير تشير إلى أنك لا تزال على علاقة مع أبو عمار. هل هذا الكلام صحيح؟».

أومأ أبو العباس برأسه، وقال: «طبعاً صحيح. أبو عمار قائد ثورتنا!»، وهنا ضرب دوبا الطاولة بقبضته قائلاً: «هذا غير مقبول»، وأضاف مزمجراً: «لا يمكنك العمل في سورية، في وقت تتواصل فيه مع عرفات. إما أن تكون معنا أو معه! عليك أن تختار!». شرح أبو العباس موقفه بلطافة قائلاً: «أكره أن أكون أمام خيارات صعبة، ولكن لا يمكنني أن أختار سوى البقاء مع عرفات».

بعد اللقاء استُدعي أبو العباس إلى مكتب نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام الواقع مقابل حديقة السبكي في دمشق، وفي هذا الاجتماع أيضاً خضع لاستجواب قاسٍ بشأن ارتباطه بعرفات. كان عبد الحليم خدام ضمن حلقة أخلص الموالين للرئيس الأسد في ذلك الوقت. قال خدام: «عرفات رجل كاذب وقذر ورخيص أيضاً. ليس من مصلحتك الاستمرار في العمل مع شخص محتال كهذا. إنه شخصية خسيسة بكوفيته المثيرة للشفقة ومظهره التعيس».

وقف أبو العباس وأشار بإصبعه إلى صورة معلقة على الحائط في مكتب خدام يظهر فيها حافظ الأسد مرتدياً القبعة الروسية المعروفة (الأوزهانكا)، وقال: «اسمح لي يا أبو جمال أن أقول لك إنّ كوفيّة عرفات ليست مثيرة للشفقة أكثر من الأوزهانكا التي يرتديها صديقك».

كانت تلك المرة الأخيرة التي رأى فيها أبو العباس دوبا أو خدام. وكانت أيضاً المرة الأخيرة التي يرى فيها حافظ الأسد بعد علاقة دامت ثلاث سنوات. وفهم أبو العباس أنه أصبح شخصية غير مرغوب فيها، وبالتالي غادر سورية بعد بضعة أيام وأغلق الباب وراءه بإحكام.

الفصل الحادي عشر

الحياة في بغداد

في أيلول ١٩٨٢ نجحت إسرائيل في إرغام أبو العباس ومنظمة التحرير الفلسطينية على الخروج من بيروت. وفي التاسع من أيلول تزوجنا أنا وأبو العباس في دمشق، وبعد ذلك بقليل سافرنا إلى الاتحاد السوفياتي ليتعافى من الجرح الذي في رأسه. ومن ثمّ في الشهر الأول من عام ١٩٨٣ نقلنا إقامتنا من دمشق إلى تونس التي اعتقدنا أنها ستكون المنفى المؤقت قبل عودتنا إلى بيروت. وبعد مرور عامين، أي في عام ١٩٨٥ الذي شهد تبادلاً مكثفاً للضربات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وقعت حادثة أكيلي لاورو، وتمكن زوجي من الهرب إلى إيطاليا بفضل مساعي رئيس الوزراء الإيطالي كراكسي، وسافر بعدها إلى يوغوسلافيا. لم يكن بإمكان أبو العباس العودة إلى منزلنا في تونس بسبب ما سببته أكيلي لاورو من حرج

للحكومة التونسية التي صرّحت بأنّ أبو العباس شخص غير مرغوب فيه على أراضيها. وبدلاً من ذلك، سافر أبو العباس إلى بغداد بعدما رحّب به صدام حسين ضيفاً في بلاده. وهناك بدأ بتجهيز مكان إقامة لنا، وبعد أقل من شهر على حادثة أكيلي لاورو لحقنا به إلى العراق الذي كان وطناً لنا خلال الأعوام السبعة عشر التالية.

في شهر أيلول من عام ١٩٨٠ ضرب العراق عشرة مطارات إيرانية، وفي اليوم التالي أرسل مدرعاته وقوات مشاته لتنتشر على جبهة طولها ٤٠٠ ميل شرقي البصرة. واستمر سفك الدماء في تلك الحرب حتى عام ١٩٨٨. كانت الوحشية المطلقة تسيطر طوال تلك السنوات على كل من صدام ورجاله ونظرائهم من الإيرانيين، حيث قضى نحو مليون شخص ما بين عسكريين ومدنيين نحبهم في تلك الحرب. لكنّ الحياة استمرت طبيعية بالنسبة إلينا وإلى مَن هم مثلنا ممن يعيشون في بغداد، وأولئك غير الملزمين بالالتحاق بالخدمة العسكرية.

في الفيلا خاصتنا بالقرب من شارع أبو نواس، ١٩٨٥

قدم لنا صدام فيلا مطلية باللون الأبيض مع حديقة صغيرة تنمو فيها أنواع عدة من الأشجار المثمرة في وسط منطقة الكرادة المعروفة في العاصمة. كانت الفيلا تتألف من طبقة رئيسية للمعيشة وطبقة علوية لغرف النوم، ويعود تاريخ بنائها إلى الخمسينيات من القرن العشرين، وكان يسكنها في ما سبق أعضاء من حزب الدعوة الإيراني، وهو حزب ديني يدير العراق اليوم. في عام ١٩٦٨ تسلّم البعثيون السلطة في العراق، وصادروا المنزل

وأخلوه من ساكنيه. واليوم أصبح لنا وبإمكاننا السكن فيه. في تلك الفيلا نعمنا بالاستقرار كعائلة. وكانت تحتوي على ميكروفونات مخفيّة، كان وجودها أشبه بضيف يمكث بيننا صامتاً متردداً، فهو يصغي إلى كل ما نقول، ولكن لم يكن لديه يوماً أي دافع ليتكلم.وإلى جانب الفيلا كان يوجد محل حلويات رائع لصاحبه أبو عفيف الذي كان يبيع البقلاوة والمنّ والسلوى والبصمة، وغيرها من الحلويات التقليدية الشرق أوسطية اللذيذة. ويمكنك اليوم متابعة الموقع الإلكتروني لمحل أبو عفيف الذي كبر وازدهر منذ ذلك الوقت وحتى اليوم لتتعرف بنفسك إلى ما كان يجذبنا فور خروجنا من بوابة منزلنا.

كان منزلنا يبعد مسافة عشر دقائق مشياً عن شارع أبو نواس الذي سُمِّي على اسم الشاعر العربي العظيم من القرن الثامن، والذي تطور في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، ليتحول إلى كورنيش ضخم على طول نهر دجلة. من أجمل الأوقات التي قضيناها هناك، هي تلك التي تسكعنا فيها في شارع أبو نواس حيث كان أبو العباس يعشق رائحة الخشب الذي كان يوضع عليه السمك المسكوف بعد شكّه بعيدان خشبية، ثمّ يشوى ببطء حتى تسود قشرته الخارجية فوق حرارة نار الجمر ويتشرب رائحة دخان الفحم. كنا أحياناً ننهي جولتنا بتناول الطعام في مطعمنا المفضل «كان زمان» الذي كان يقدّم أطباقاً عراقية تقليدية، أحب منها أبو العباس أصناف اللحوم ومحشي ورق العنب، وكلانا كان مغرماً بالمسخن، ذلك الطبق الفلسطيني الذي اعتدت تناوله منذ أن كنت طفلة صغيرة.

في غرب أفريقيا كانت تجربتي الأولى في الطبخ وفنّ دمج ثقافات الطعام،

وفي بغداد كان لديّ المزيد من الوقت لاكتشاف المزيد من اهتماماتي. في أبيدجان تعلّمت استخدام الفول السوداني لتكثيف الصلصات، وفي المغرب تعلّمت وصفات الطبخ الشرقي، وفي تونس سنحت لي فرصة التعرف إلى مطبخ شمال أفريقيا، وخلال رحلاتنا إلى ليبيا والجزائر قصدتُ المطاعم التي تقدم الأطباق التقليدية المحليّة، وذلك بهدف تعلّم تلك الفروقات البسيطة التي تتميّز بها عن أطباق شمال إفريقيا.

أما في بغداد، فقد اكتشفتُ أنّ الأطباق التقليدية كانت خليطاً لوصفات تركية وإيرانية وهندية. وهذا ما دفعني إلى ابتداع وصفاتي الخاصة. كنتُ أطبخ الأرز على الطريقة الإيرانية التي يُنقَع فيها الأرزّ ليومين أو ثلاثة أيام، ومن ثمّ يُسلق بالماء المغلي لمدة دقيقتين أو ثلاث، ويضاف الكثير من الملح ويغسل بعدها بالماء ليعاد ثانية إلى إناء الطهو المحكم الإغلاق ويترك على نار هادئة جداً، من دون إضافة ماء لمدة ساعتين أو ثلاث. يُقدَّم هذا الطبق على حاله، أو يُجلَّل بقطع اللحم والمكسرات والبهارات، لكني كنتُ أزيد عليه المزيد من المكوّنات مثل الصنوبر واللحم المفروم وجوزة الطيب وحبّ الهال، إذ تمنحه نكهة البهارات الهندية.

في عام ١٩٨٦ وضعت طفلي علي في بغداد، وعدتُ إلى عالم الأمومة بشعور غامر من السعادة وتجدد الحياة. كنت أنا وأبو العباس والأولاد علي وريف ولؤي نعيش معاً كعائلة واحدة مترابطة في بغداد. كنا أشخاصاً عاديين نحترم الدين السائد، ولكن لسنا من معتنقيه المتعصبين، فقد كان أبو العباس يشرب كأساً من النبيذ مع العشاء، ولكن لم يحدث أن شرب وحده أو أثناء ساعات العمل، أما أنا فلم أكن لأضع الحجاب عند خروجي من

المنزل. كان حب فلسطين لا يزال في قلوبنا، وفي الوقت ذاته كنا نكرّس أنفسنا لتربية أبنائنا. كانت حياتنا تسير جيداً، والمولود الجديد يتمتع بصحة جيدة، لكنّ المفاجآت والآلام والحزن لا بد أن تأخذ حيّزاً من تجربتنا.

ظافر المصري: ١٩٨٦

في شهر آذار وصلنا نبأ وفاة خالي العزيز ظافر المصري، ذلك الرجل الرائع الذي كان يعمل للسلطة المحلية في نابلس، ولم يكن قد أتمّ الخامسة والأربعين من عمره عندما قضى برصاص قاتل. تبنّت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المدعومة من سورية عملية الاغتيال.

كان مقتل ظافر المصري أشنع عمل إرهابي. كان لذلك الحدث أثر جعل من مشاعر الحزن دافعاً للتقصي ومعرفة المزيد عن موته. هذا النوع من الإرهاب موجود عموماً ضمن سياق الحياة، ولكنّ التفاصيل مهمة جداً. كان خالي ضحية أمور كثيرة، وعلى رأسها التدخل السوري في الشؤون الفلسطينية.

كان ظافر المصري أحد وجهاء مدينة نابلس، وترشّح لانتخابات البلدية فيها بمباركة من عرفات في عام ١٩٧٦. لكنّ السوريين لم يرقهم ترؤس أحد رجالات عرفات لبلدية نابلس، لذا حاولوا منذ اليوم الأول إسقاطه. تسلّم رئاسة البلدية بسام الشكعة، وتسلّم خالي ظافر منصب نائب رئيس البلدية. كان الشكعة مقرّباً من دمشق، بينما كان ظافر مقرّباً من عرفات. واستمرّ عمل الرجلين بتوازن لمدة ست سنوات، إلى أن أقدمت إسرائيل على إلغاء بلدية نابلس كلياً عام ١٩٨٢. وخضعت نابلس لحكم القانون

العسكري لمدة ثلاث سنوات ونصف، حيث تسلّم بلديتها محافظ إسرائيلي عسكري. وفي عام ١٩٨٥ سعت منظمة التحرير الفلسطينية إلى استعادة رئاسة بلدية المدينة وفقاً للقانون الأردني الذي يقول إنه في حال عدم وجود بلدية، تُمنح السلطة للجهة الانتخابية الأكبر، وذلك إلى أن تُجرى انتخابات نظامية. وهنا كانت غرفة تجارة نابلس هي تلك الجهة التي كان خالي يترأسها، وما هي إلا عدة أسابيع حتى اخترقت رصاصات الاغتيال جسده أثناء ذهابه إلى عمله.

وكتبت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» في مقالة: «لقد وجد ذلك المحافظ الهادئ الراقي نفسه في وضع شائك إلى حدّ المستحيل، حيث كان كرجل براغماتي فاعل على أرض الواقع، يحاول ما بوسعه لتوجيه عمل الحكومة لمصلحة أصدقائه وجيرانه. كان رجل السياسة السائدة، أي إنه كان يدين بولائه لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان عالقاً بين سطوة السلطات الإسرائيلية ورغبة الملك حسين في إزاحة منظمة التحرير وإصرار سورية على استدعاء الحرب في فلسطين، وبين طموحات الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة».

وختمت الصحيفة مقالتها بالقول: «سواء اغتيل ظافر المصري على أيدي الفصائل الفلسطينية المعارضة التي تبنت عملية اغتياله، أو على يد أحد سفاحي المدينة، النتيجة واحدة. فالشر يجد طريقه عندما يترك الأشخاص الطيبون العادلون الباب موارباً».

كان خالي شخصاً محبوباً جداً، فقد خرج في تشييع جنازته التي أقيمت في نابلس ٢٠٠,٠٠٠ شخص، ولا تزال ذكراه حيّة على موقعه الإلكتروني. لقد أوقع موته حزناً وألماً لا يزالان إلى اليوم يعتصران قلوبنا.

مقابلة مع قناة الـ«إن بي سي» الإخبارية

نيويورك، ٥ أيار ١٩٨٦. قناة «إن بي سي» الإخبارية في لقاء مع أبو العباس

في الربيع التالي لعملية أكيلي لاورو، رتبت قناة «إن بي سي» الإخبارية لإجراء لقاء مع أبو العباس، من دون الإفصاح عن مكان تصويره. وفي شهر أيار بثّت القناة في نشرتها الإخبارية المسائية لقطات من اللقاء الذي بُثَّ كاملاً في ١٧ حزيران ضمن توثيق كامل ولمدة ساعة لحادثة أكيلي لاورو. وفي وقت لاحق كتبت صحيفة «لوس أنجليس تايمز» أن وزارة الخارجية وجهت اتهاماً إلى قناة «إن بي سي» بتشجيع الإرهاب، ووصفت اللقاء بأنه «يستحق التوبيخ». وفي ردّ له أشار رئيس قناة «إن بي سي» لورنس ك غروسمان، إلى قيام كل من رويترز وأيريش تايمز بإجراء لقاءات بعد بثّ «إن بي سي» اللقاء المذكور. ونقلت «لوس أنجليس تايمز» عن غروسمان قوله إن قناة «إن بي سي» «لم تقدم لأبو العباس منصة لحملة دعائية».

الجزائر، ٢٠-٢٥ نيسان ١٩٨٧ عضوية «مؤقتة»

كان للضغط الدولي الذي مورس في أعقاب حادثة أكيلي لاورو، بالإضافة إلى تلك التلفيقات الصادرة عن طلعت يعقوب الذي انشقّ عن جبهة التحرير الفلسطينية وفصائل فلسطينية أخرى، دور في إشاعة القول إن أبو العباس خسر مكانه في اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني الفلسطيني. ولكنّ تطوراً مفاجئاً حدث خلال اجتماع «الوحدة» للمجلس الذي عُقد في الجزائر ما بين ٢٠-٢٥ نيسان ١٩٨٧، حيث مُنح أبو العباس بالإجماع عضوية مؤقتة في اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني الفلسطيني، بدلاً

من إزاحته. وبالإضافة إلى ذلك، جرت مصالحة ما بين فصيل طلعت يعقوب وفصيل أبو العباس، وتولى يعقوب منصب القيادة، وأبو العباس نائباً له، ولكن يعقوب استمر موالياً لدمشق، بينما أبو العباس في بغداد يدعمه العراق.

جبهة التحرير الفلسطينية في بغداد

كان فريق عمل جبهة التحرير يتكوّن من نحو ٢٠٠ شخص يعملون في عدة مكاتب موزعة في أبنية مختلفة في الحي الذي نسكن فيه، حيّ الكرادة البغدادي.ولم يكن هناك أي إشارات على وجودها. كان صدام يستضيف الجبهة ، ولكنه لم يكن ليصرّح بوجودها علانية.

كانت مكاتب الجبهة مجرد مساحات متواضعة للعمل، مرفقة بغرف للمعيشة. كانت التقنيات تقتصر في ذلك الوقت على بعض الأساسيات، مثل الهاتف الأرضي والفاكس والتلفاز. وكانت ملكية تلك المكاتب إلى جانب الفيلا التي كنا نسكنها وعدد من السيارات الممنوحة لموظفي الجبهة تعود إلى الحكومة العراقية التي منحتنا سكناً مجانياً ومكاتب وسيارات وجوازات سفر، ولكن من دون تأمينات أو تعويضات أو رواتب. فالرواتب والنفقات كانت تقع على عاتق الرئيس عرفات. لو أرادت جبهة التحرير الفلسطينية أن تقوم بعملية ضخمة، فإن ذلك يتطلب معسكرات وتدريباً وأموالاً لتغطية النفقات. وإذا كان أبو العباس والجبهة سيستعيدان ثانية مكانتهما كقوة عسكرية، فلا بد أنهما بحاجة لتنفيذ عملية كبيرة، وبحاجة أيضاً لدولة تدعمهما في تحقيق ذلك.

الانتفاضة الأولى

غزة، ٩ كانون الأول ١٩٨٧ - اندلاع الانتفاضة الأولى

أشعلت الاضطرابات التي سادت شمال غزة بالقرب من مخيم جباليا الشرارة الأولى للانتفاضة الفلسطينية التي تمثلت بتدفق كبير للمحتجين، خاصة من المراهقين العُزَّل من كل شيء سوى الحجارة التي انهالوا بها على الجنود الإسرائيليين ومدرّعاتهم المسلحة. وما كان من إسرائيل إلا أن نشرت نحو ٨٠,٠٠٠ جندي لإخماد تلك الانتفاضة. وفقاً لما ذكرته بعض المصادر، أُصيب ٧ في المئة من الشباب الفلسطينيين ممن هم دون الثامنة عشرة. وبلغت الانتفاضة الأولى ذروتها أثناء انعقاد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، وأدت إلى اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣.

نهاية عداء

سورية، دمشق، ٢٦ نيسان ١٩٨٨ - لقاء عرفات مع حافظ الأسد

على الصعيد السياسي، سافر عرفات في شهر نيسان إلى دمشق للقاء حافظ الأسد بعد خمس سنوات من حالة العداء التي سادت بين الطرفين منذ حزيران عام ١٩٨٣. كانت الانتفاضة في أوجها في ذلك الوقت، الأمر الذي أرغم هذين القائدين على وضع الخلافات بينهما جانباً وسط عالم يشهد مواجهة الشباب الفلسطينيين للدبابات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. كنتُ آنذاك أقول لنفسي: «لو أنّ هذا العداء انتهى منذ عامين، فهل كان خالي ظافر بيننا اليوم؟».

الفصل الثاني عشر

عملية القدس البحرية

الجزائر، تشرين الثاني ١٩٨٨ الاجتماع السنوي للمجلس الوطني الفلسطيني

بقي أبو العباس ثلاث سنوات بعد عملية الأكيلي لاورو بعيداً عن المعترك السياسي. ولكن في عام ١٩٨٨ وبترحيب من الرئيس عرفات سافرت أنا وأبو العباس إلى العاصمة الجزائرية لحضور الاجتماع السنوي للمجلس الوطني الفلسطيني.

سافرنا بالطائرة من بغداد إلى الجزائر حيث أقلّتنا سيارة رسمية من المطار إلى قاعة المجلس. في تلك الرحلة اصطحبنا ابننا علي الذي كان لا يزال طفلاً صغيراً. لم يكن لدينا أية توقعات لما كان ينتظرنا في ذلك الاجتماع.

لدى انعطاف السيارة باتجاه قاعة المجلس احتشدت جموع كبيرة من الناس حولنا، لدرجة أنّ عرفات شقّ طريقه بصعوبة بينهم للوصول إلينا. عندما نزل أبو العباس من السيارة عانقه عرفات وغمره قائلاً: «قدومك ضاعف أعداد الصحافيين. لقد تقاطروا جميعاً اليوم لالتقاط صور للرجل المدبر لعملية أكيلي لاورو!».

مع نزول أبو العباس من السيارة، اندفع المصورون نحوه وبدأوا بالتقاط صور له. زحف علي من حضني خارج السيارة وتعلق بركبة والده الذي رفعه وغمره وانحنى ليجلسه بجانبي في المقعد الخلفي للسيارة، وعدسات الكاميرات لا تزال تومض ملتقطة الصور لكل حركة يقوم بها أبو العباس. وتصدرت تلك الصور الصفحات الأولى لجميع الصحف الإسرائيلية اليومية. كان أبو العباس يظهر في إحدى الصور منحنياً لحمل صغيره علي، وأخرى كان فيها يعانقه، أما الثالثة فقد كان يضعه بجانبي.

كانت تلك اللحظة لحظة ارتقاء إنْ لم تكن انتصاراً. كان لعملية أكيلي لاورو أثرها على أبو العباس وعلينا بما أثارته من شكوك حولنا وتثبيط للهمم. ولكن اليوم وبالرغم من الأخطاء المرتكبة في تلك العملية، وجد أبو العباس أنّ تلك الجهود التي بذلها في تحدي الظلم الذي يتعرض له الفلسطينيون لا تزال تضرب عميقاً في نفوس عامة الفلسطينيين.

هناك أمر آخر حدث في ذلك الشهر بالذات، وهو وفاة طلعت يعقوب إثر إصابته بنوبة قلبية في الجزائر، ذلك الذي وضع يده بيد أبو العباس لتأسيس جبهة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٧.

أيام الوئام بين عرفات والولايات المتحدة، ١٩٨٨

مع افتتاح جلسة المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في الجزائر في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٨٨، دخل عرفات إلى قاعة المؤتمر مرتدياً زيّه المعروف وحاملاً مسدسه على جنبه كقائد عسكري خرج للتو منتصراً من ساحة المعركة. في تلك الجلسة، وبموافقة أبو العباس وباقي الرفاق، أعلن إنشاء دولة فلسطين وعاصمتها القدس، وأقرّ بصفته رئيساً للدولة، بموافقته على قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي. كان هذا التصريح الجريء طريق عرفات لإعلان موافقته للمرة الأولى طوال ٢٣ عاماً من مسيرته كمقاوم على مطلب رئيسي لإسرائيل والولايات المتحدة في الاعتراف علناً بحق إسرائيل في الوجود.

بالطبع، استُشير أبو العباس مسبقاً بشأن هذه المبادرة وغيرها من المبادرات لمنظمة التحرير الفلسطينية، وذلك بصفته أحد الأعضاء المقربين من عرفات. بالرغم من أن أبو العباس كان في الغرفة المجاورة قبل إلقاء عرفات خطابه عام ١٩٨٨ في الجزائر، إلا أنه كان في منزله في بغداد يتابع الاجتماعات التي عقدها عرفات والتي أخذته في شهر عسل مع الولايات المتحدة. خلال السنوات التي أمضاها عرفات في امتهان دور صانع السلام، كان كعادته يخفي تواصله مع أبو العباس أمام جمهوره من الناطقين باللغة الإنكليزية أو الفرنسية، بينما يجاهر به علناً أمام جمهوره العربي. كان أبو العباس قائداً عسكرياً، وبالتالي كان هو «الضامن» لعرفات أمام سواد الشعب الفلسطيني. كان عرفات يلتقي أبو العباس كلما زار بغداد، وكانا يتواصلان باستمرار على الهاتف. كان أبو العباس يتمتع بحق الفيتو، نظراً

إلى كونه عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وشخصية ذات شعبية كبيرة وسط أبناء الشعب الفلسطيني، ولكنه نادراً ما استخدم هذا الحق لأنه كان يفضّل تأييد عرفات في قراراته من دون الإفصاح علناً عن تحفظاته عليها، ولكن عندما كان يدلي بما لديه من مخاوف أو اهتمامات، كان عرفات بدوره يستمع إلى وجهة نظر رفيقه ويأخذ كلامه في الاعتبار. ومع ذلك لم يعتذر عرفات يوماً على استئثاره بصنع القرار.

خلال دعوته لعقد مؤتمر شامل لإرساء السلام في الشرق الأوسط، وجّه عرفات نداء للرئيس الأميركي ريغان وللمرشح للانتخابات الرئاسية الأميركية جورج بوش الأب لدعم الفكرة، ظنّاً منه أنّ الأميركيين لن يستطيعوا رفض مثل هذا الطرح. ولكن لم تلقَ تلك الفكرة حظوتها لدى الأميركيين الذين برروا ذلك بقولهم إن تلك الفكرة تبدو ذات «جوانب إيجابية»، ولكنها لا ترتقي إلى مستوى الطرح الجدّي الذي يستحق دعم الولايات المتحدة والتزامها على نحو كامل.

لم يكن ذلك الموقف سوى استمرار لرفض الأميركيين الاعتراف بمفهوم دولة فلسطين، كذلك اشترطوا على عرفات الإدلاء بتصريح واضح يدين فيه كل أشكال «الإرهاب».

كان لخطاب عرفات الذي ألقاه في الجزائر أثره في تلقيه دعوة لحضور جلسة الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة في نيويورك في كانون الأول عام ١٩٨٨. ولكن الولايات المتحدة وإسرائيل اعترضتا على حضوره، وبالتالي رفضت وزارة الخارجية الأميركية منحه تأشيرة دخول. جورج شولتز وصفه بأنه «ملحقات إرهاب» (مكمل للإرهاب). احتجّت الأمم

المتحدة على تحكيم الولايات المتحدة، واقترحت ١٥٤ دولة عقد الاجتماع في جنيف بدلاً من نيويورك، ليتمكن عرفات من الحضور. وفعلاً سافر عرفات إلى جنيف من طريق استوكهولم، حيث التقى صديقه الوزير سفين أندرسون الذي أطلعه على رسالة تلقّاها من شولتز. كانت الرسالة تقول بأنّ على منظمة التحرير الفلسطينية إصدار بيان تنبذ فيه الإرهاب. وتحت وطأة الضغوط، قال عرفات إنه سيفعل ذلك في اجتماع الأمم المتحدة، ولكن كان يدور في خلده أن يلعب وأبو العباس دوراً مزدوجاً. على الصعيد السياسي ستتمكن منظمة التحرير الفلسطينية من أن تبلي حسناً مع الأميركيين من خلال عرفات، بينما تتابع على الصعيد العسكري حربها ضد إسرائيل من خلال أبو العباس. لقد كتب شولتز بالحرف الكلمات التي يرغب في أن يقولها عرفات. كتب شولتز في مذكراته أنّ الرسالة المكتوبة تقول: «إنّ اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تدين جميع الأفراد والمجموعات والدول الإرهابية بكافة أشكالها، وإنها لن تعود إليه». وأضاف: «لقد تلقيتُ وعداً بأنّ عرفات سيلقي خطاباً في جنيف يقول فيه تلك الكلمات بالضبط». وفي ذلك الوقت قلت إننا سنتواصل مباشرةً معهم إن قال فعلاً تلك الكلمات.

طلب عرفات من صديقنا الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش أن يكتب له الخطاب الذي سيلقيه في الأمم المتحدة. وعَمدَ عرفات إلى إدراج الكلمات التي يرغب شولتز في سماعها بكل عناية وسط صياغات شعرية تتغنى ببطولات الشعب الفلسطيني. كان عرفات لا يزال حتى ليلة انعقاد الجلسة غير قادرٍ على هضم تلك الكلمات، لذا عاد لإضفاء تعديلات بسيطة عليها، حيث أعاد ترتيب الكلمات من دون أن يشطب أي منها ليجعل

التصريح ملغوماً. وهكذا توجه عرفات بخطابه أمام الأمم المتحدة في ١٤ كانون الأول حيث صرح بتخليه عن الإرهاب، مستخدماً النص الذي كتبه هو وصديقه درويش. لكنّ شولتز لم يكن راضياً، فقد أغضبته في الحقيقة تلك التعديلات التي أضافها عرفات، وكتب يقول: «لقد أخبرتُ الرئيس ريغان بأنه كان في مكان ما من خطابه يقول نصف الكلمة ليعود ويضع نصفها الآخر في مكان آخر... كان يجب عليه أن يقولها كاملة وبصوت عالٍ».

وبعد انتهاء اجتماع الأمم المتحدة، جاء الوزير السويدي سفين أندرسون للقاء عرفات، وأخبره بأنّ الولايات المتحدة لا تزال غير راضية، وأنه يجب على عرفات انتهاز مناسبة ثانية ليردد حرفيّاً الكلمات التي كان شولتز مصرّاً عليها. لكنّ عرفات استنفر غاضباً وأعرب عن رفضه لذلك الطلب. وبعد ذلك انطلق عرفات لتناول العشاء في منزل عمرو موسى الذي كان آنذاك سفير مصر لدى سويسرا. وخلال العشاء، تمكّن عمرو موسى من إقناع عرفات بالعودة إلى الفندق لعقد مؤتمر صحافي والتصريح بالكلمات التي يريد شولتز سماعها. وافق عرفات على الاقتراح، وفي الساعة الثانية صباحاً دعا إلى عقد مؤتمر صحافي حضره أكثر من ٨٠٠ وكالة إخبارية. كان الانفعال واضحاً على الرئيس عرفات الذي كان يقلّب الأوراق بين يديه وهو ينتظر أن يسود الصمت في القاعة ليبدأ بقراءة بضعة أسطر من تلك القصاصة الورقية التي يمسك بها، قائلاً: «إنّ اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تدين جميع أفراد ومجموعات الدولة السياحية (tourism)»، ثمّ نظر ثانية وقال: «عفواً، أقصد الدولة الإرهابية (terrorism)». لدى انتهائه من تلك الكلمات، جال عرفات بنظره في القاعة وأومأ إلى موسى قائلاً: «ماذا يريدون مني أن أفعل أيضاً؟ أنّ أتعرّى؟».

وما هي إلا أربع ساعات مرّت، حتى أعلنت الولايات المتحدة استعدادها لبدء المحادثات مع ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من خلال صدور اثنين من البيانات الرسمية المرحّبة بتصريح عرفات، أولهما عن الرئيس ريغان، والثاني عن شولتز. وفي الخامس عشر من كانون الأول، انعقد أول اجتماع فلسطيني أميركي جلس فيه السفير الأميركي في تونس مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية. وفي الثالث والعشرين من الشهر ذاته وقعت حادثة لوكربي التي جرى فيها تفجير طائرة بان اي إم ١٠٣ فوق مدينة لوكربي في اسكوتلندا. سارع عرفات إلى تقديم الدعم الاستخباراتي الفلسطيني للولايات المتحدة لحلّ رموز الجريمة، وذلك في خطوة منه لتوطيد العلاقات مع البيت الأبيض. في تلك الفترة كانت منظمة التحرير الفلسطينية على وئام تام مع الولايات المتحدة.

القذافي يباشر التواصل

في الوقت الذي بدأ فيه عرفات يرسي قنوات الانفتاح على الولايات المتحدة الأميركية في مؤتمر المجلس الفلسطيني الوطني في الجزائر، كان أبو العباس، بمعرفة وترحيب من عرفات، يشق طريقه في الاتجاه المعاكس تماماً، حيث كان خلال فترة انعقاد المؤتمر منهمكاً بإجراء ترتيبات لتنفيذ عملية عسكرية ضد إسرائيل وتحقيق أمله في توجيه ضربة عسكرية أكثر نجاحاً من عملية أكيلي لاورو.

في الأول من شهر تشرين الثاني سافر القذافي إلى الجزائر للمشاركة في احتفالات العيد السنوي لثورة الجزائر. ومع وصول أبو العباس لحضور

مؤتمر المجلس الفلسطيني الوطني، أرسل القذافي رسالة يُعرب فيها عن رغبته في لقاء شخصي مع أبو العباس الذي لم يكن يرغب من جهته في تجاوز صدام حسين عبر التواطؤ مع رئيس دولة «ندّ»، بالإضافة إلى عدم يقينه من مباركة عرفات للقاء كهذا، وبالتالي تجاهل تلك الدعوة. في ما بعد وقبل اختتام أعمال المؤتمر، أرسل القذافي مبعوثاً يطلب لقاء أحد مساعدي أبو العباس. وبعيداً من قاعات المؤتمر، وتحديداً في منتجع نادي الصنوبر الفخم، التقى مبعوث القذافي مع زياد العمر، وهو أحد رجالات أبو العباس الموثوقين.

وجه المبعوث المذكور دعوة إلى زوجي لزيارة القذافي في العاصمة الليبية طرابلس، وذلك لبحث مواضيع تتعلق بالمصالح المشتركة بين الطرفين. لكنّ أبو العباس أرسل رداً بعدم الموافقة عبر زياد العمر، مبرراً أنّ مثل هذه الخطوة قد تزعج مضيفه وحاميه، حيث قال: «لا يمكننا الذهاب من دون تنسيق مسبق بين صدام حسين وأبو عمار».

كان القذافي شخصاً متقلّباً، ومن المستحيل اتخاذه شريكاً يمكن الاعتماد عليه، حيث لا يمكنك التنبؤ باللحظة التي ينقلب فيها هذا الرجل ويتراجع عن تلك الدعوة أو حتى يقوم بسحب الغطاء السياسي، أو في حال تخطي أبو العباس الخطوط المبهمة المتقلبة التي اعتاد الديكتاتور الليبي رسمها وتبنّيها في معرفة أصدقائه من أعدائه. وفي النهاية، أرسل أبو العباس كلمة للسلطات العراقية يعلمها فيها بمحاولة معمر القذافي جذبه. وجاء رد صدام حسين على لسان نائبه طارق عزيز بأن «لا مانع من عقد ذلك اللقاء، يمكنك المضيّ قدماً».

كان صدام حسين وفق تفكير أبو العباس هو الرجل الأصعب، وبالتالي سيكون إقناع عرفات أسهل بكثير، وبالفعل اتصل أحد رجال أبو العباس مع أبو إياد بهدف طلب مباركة عرفات لعقد اللقاء المزمع مع القذافي في ليبيا، وردّ أبو إياد بكل ثقة: «عليك الذهاب. ما دامت الفرصة موجودة، انتهزها فوراً واذهب بسرعة ولا تفكر حتى في الأمر. وأنا أؤكد لك أنّ الختيار لن يمانع في ذلك».

لماذا أراد القذافي توجيه ضربة لإسرائيل

إذا أردنا أن نفهم الدوافع وراء رغبة القذافي في ضرب إسرائيل، فعلينا الرجوع بالتاريخ عشر سنوات إلى الوراء. في عام ١٩٧٩، أي بعد مضيّ عشر سنوات على تولي القذافي لكرسي الرئاسة، كان هذا العقيد قد منح نفسه لقب «قائد الثورة» وبدأ بتمويل جهات ثورية متوزعة في الجهات الأربع للمعمورة. كان يريد تغذية تلك الحركات الثورية وتطويرها وتنصيب نفسه مرشداً لها. وعندما حققت تلك الجهات نجاحاتها، كان القذافي يتطلع إلى كسب استحقاقات في تلك النجاحات (أو ربما استخدامها في مزايداته). وضمن سياسته هذه، بدأ المال الليبي بالتدفق بتواتر متزايد على العديد من المجموعات الفلسطينية عبر قنوات منظمة التحرير الفلسطينية. ونتيجة لتلك السياسة، وضعت الخارجية الأميركية في عام ١٩٧٩ ليبيا على لائحة الدول الداعمة للإرهاب، عندها شنّت جماعات القذافي هجوماً على السفارة الأميركية في طرابلس وأضرمت النار فيها. اتخذ الأميركيون موقفاً عدائياً منه، وعبّرت كل من إدارة جيمي كارتر وإدارة رونالد ريغان عن استيائها الشديد منه، فصرّح ريغان علانية بأنّ القذافي «منبوذ دوليّاً»، وأنه

«كلب الشرق الأوسط المسعور». وأغلق القذافي بدوره سفارته الليبية في واشنطن، وهدّد بالانضمام إلى حلف وارسو. وعمل على تقوية علاقاته مع الاتحاد السوفياتي ومنح تمويلاً لثلاث من المجموعات المناهضة للإمبريالية، هي: فصيل الجيش الأحمر في ألمانيا، الألوية الحمراء في إيطاليا، والجيش الجمهوري الإيرلندي.

قام ريغان بسحب جميع شركات النفط الأميركية العاملة في ليبيا، وفي شهر آذار عام ١٩٨٢ فرض حظراً على النفط الليبي. ووصل التوتر في العلاقات ذروته في نيسان ١٩٨٦ إثر التفجير الذي استهدف ملهى «لابيلا» الواقع في برلين الغربية ويرتاده جنود أميركيون. لقي ثلاثة أشخاص مصرعهم في ذلك التفجير، وجُرح ٧٩ أميركياً. اتهمت الولايات المتحدة القذافي، وشنّت ضربات جوية على ليبيا، استهدفت مقرّ إقامة الرئيس الليبي، وأدت وفقاً لما ذكرته بعض المصادر إلى مقتل ابنته الرضيعة. وهنا بدأ القائد الليبي بالسعي إلى الانتقام من الضربات الأميركية عبر شنّ هجمات على إسرائيل. ومن هنا جاء يطرق باب أبو العباس في تشرين الثاني لعام ١٩٨٨. في الصيف التالي تلقى أبو العباس موافقة من صدام ومن عرفات للقاء القذافي.

أبو العباس في زيارة للقذافي
طرابلس، ليبيا، تموز ١٩٨٩

سافر أبو العباس مع مجموعة من أرفع ضباطه إلى طرابلس في ليبيا بجوازات سفر مزورة أصدرتها لهم الحكومة العراقية. لدى وصولهم إلى طرابلس، نزلوا في فندق الغراند، وأقلتهم طائرة إلى مسقط رأس القذافي في مدينة

سرت ذات المناخ الصحراوي المغبر والواقعة بين طرابلس وبنغازي. كان العقيد القذافي كعادته ينتظر ضيوفه في خيمة خضراء كبيرة، وكان يرتدي لباسه الملون بالأخضر والأصفر والبرتقالي. كان القذافي يتباهى ويفتخر بمدينته سرت، حيث كان يستقبل كبار الشخصيات، وعقد في وقت لاحق قمة عربية فيها.

استقبل القذافي أبو العباس مرحّباً ومعاتباً ثم قال: «أنا زعلان منك، أبو العباس، لقد قضيت حياتك كلها بين لبنان وسوريا والعراق، ولم تأتِ يوماً إلى ليبيا! بالرغم من أن ليبيا هي وطن جميع المقاتلين الأحرار من كل أنحاء العالم، ومع ذلك لم تأتِ يوماً لزيارتها». ابتسم أبو العباس وردّ بلباقة قائلاً إنه لم يتلقّ دعوة لزيارة ليبيا من قبل. ثمّ دار بين الرجلين الحوار الآتي:

القذافي: أنت لست أول مقاتل يزور سرت، ولست أول مقاتل يأتي إلى ليبيا. جميعهم مرّوا علينا أخي أبو العباس. ولكن يا حسرة، كانوا جميعاً تافهين، كانوا وما زالوا عديمي النفع تماماً. لطالما قدمنا الدعم لرجال ادعوا أنهم يمثلون المقاومة، ولكن اتضح في ما بعد أنهم عملاء للإمبريالية العالمية وعملاء للصهاينة. لقد كانوا من أبناء بلدك أبو العباس. وتبيّن أنهم كانوا رجال فنادق لا رجال خنادق. أنت رجل فنادق أم خنادق؟

أبو العباس: نحن مستعدون للتعاون أخ معمر. نحن منفتحون للعمل مع أي طرف يؤمن بقضيتنا وبتحقيق العدالة والحرية لفلسطين. نحن حركة مقاومة هدفنا محدد، وهو القضاء على دولة إسرائيل. أنت تعرفنا جيداً أخ معمر. لسنا بحاجة للتعريف عن أنفسنا أمامك، وفي النهاية هذا هو السبب الذي دفعك إلى دعوتنا لزيارة بلدك العظيم.

القذافي: في الواقع، نعم أنا أعرف كل شيء عنكم أخ أبو العباس. كيف هو حال الأخ صدام؟

أبو العباس: مستاء. الأخ صدام مستاء. فالإيرانيون يستهدفون بغداد بالصواريخ...

القذافي: لعنة الله على أولئك الفرس التعساء...

أبو العباس: ولكن أخ معمر، يقول الأخ صدام إن تلك الصواريخ مصدرها ليبيا. في الواقع، لقد سقط أحد تلك الصواريخ الليبية بالقرب من منزلي في بغداد، وكاد يقتلني مع عائلتي.

القذافي: صواريخ ليبية؟ لقد أرسلتُ تلك الصواريخ لحافظ الأسد، وليس لآية الله. لقد أُرسلَت من أجل الجولان... لتحرير الأراضي السورية. نعم هذه الصواريخ من عندي. لم يكن الغرض منها ضرب العراق. السوريون هم من قدموها لإيران، وإيران تستخدمها اليوم ضد الأخ صدام.

طبعاً، القذافي يعرف تماماً مصدر تلك الصواريخ، فقد كان كثير التودّد للإيرانيين، ويستخدمهم في حربه بالوكالة ضد الولايات المتحدة، ولم يهتم يوماً للمكان الذي تسقط عليه صواريخه، ما دامت تقلق رونالد ريغان. ومن الجدير بالذكر أنّ أبو العباس كان يحمل رسالة من صدام حسين الذي كان يرغب في لجم التنسيق الليبي - الإيراني. في نهاية المطاف، وافق القذافي وطلب بالمقابل مساعدة الفلسطينيين في تعقب بعض المنشقين الليبيين في أوروبا وتصفيتهم. لكنّ أبو العباس رفض ذلك الاقتراح الذي سبق أن رفضه عرفات من قبله. قبل عشر سنوات

من ذلك، وتحديداً في أواخر سبعينيات القرن العشرين، رفض عرفات مطالب العقيد القذافي الذي جنّ جنونه آنذاك وقطع جميع المساعدات عن منظمة التحرير الفلسطينية.

ولكنه في هذه المرة تقدم بطلبه بفتور لأنه يعلم مسبقاً أنّ أبو العباس لا يرضى بأن يكون «سلاحاً مأجوراً» مثل أبو نضال. انتهى اللقاء بعد ثلاث ساعات تقريباً على نحو إيجابي. لم يقدم القذافي شيئاً، ولم يطلب أبو العباس هو الآخر شيئاً. ودعا القذافي أبو العباس إلى زيارة ليبيا مجدداً في الأول من أيلول للمشاركة في احتفالية الذكرى الثامنة عشرة (لثورة الفاتح من أيلول) أو للانقلاب الذي قام به وأوصله إلى سدّة الحكم عام ١٩٦٩. كانت احتفاليات ذكرى الفاتح من أيلول ضخمة جداً، حيث يمكن أي شخص ينتمي إلى العالم العربي المشاركة فيها، وكان القذافي يدعو إليها الفنانين والكتّاب والسياسيين والشعراء والعلماء والقيادات العسكرية من كل أنحاء العالم، ويقدم هدايا نقديّة لجميع الضيوف، بالإضافة إلى ساعة رولكس من الذهب تحمل صورة القذافي وتكون عادة مرصّعة بحجارة من الألماس.

طرابلس، ليبيا، ١٥ أيلول ١٩٨٩
أبو العباس يلتقي القذافي ثانيةً

عاد أبو العباس للمرة الثانية فعلاً، ولكن في الخامس عشر من أيلول، أي بعد مرور أسبوعين على انتهاء الاحتفالات. لم يرغب أبو العباس في أن يكون فرداً في جوقة المهللين للقذافي، أو أن يضطر إلى تلقي هدية أو فضل

يجعله مديناً للحكومة الليبية. كان كل همِّه الحصول على دعمٍ مالي لتحقيق هدف واحد، هو تنفيذ عملية جديدة ضد إسرائيل يصحح من خلالها الأخطاء التي ارتكبت في عملية أكيلي لاورو.

مشروع في ليبيا، ١٩٨٩

خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٨٩، جرت الموافقة على اقتراح أبو العباس، ودخلت العملية حيّز الإعداد، على أن يكون التنفيذ في ٣٠ أيار ١٩٩٠. قدّم القذافي لجبهة التحرير الفلسطينية كل ما تحتاجه من فيلات وسيارات وخبراء عسكريين وجوازات سفر ومعسكرات حربية في الصحراء الليبية. انتشرت القواعد في الكثير من أنحاء ليبيا، من طرابلس ذاتها إلى بنغازي، وصولاً إلى سرت. وخلال الأشهر الثمانية التالية، تدفّق إلى ليبيا عدد كبير من الأفراد والقيادات العسكرية الفلسطينية، وذلك ضمن الاستعدادات لتنفيذ عملية القدس البحرية. قضى أبو العباس أياماً كاملة لم يذق خلالها طعم النوم، وهو يتابع تدريب رجاله في المعسكرات الليبية. وخلال تلك الفترة، عقد أبو العباس أحد عشر اجتماعاً مع العقيد القذافي لإطلاعه على الاستعدادات الجارية. في إحدى المرات طلب القذافي من أبو العباس إحضار كامل أعضاء المكتب السياسي للجبهة، ورافقتُه أنا في مرات عدة إلى طرابلس، لكنني لم ألتقِ شخصياً بالقذافي يوماً.

في أحد الأيام طُلب منّي استضافة القذافي وبعض القيادات الليبية على العشاء في منزلي. قضيتُ نهاري سجينة في المطبخ، وقبل بضع ساعات من موعد العشاء، أرسل القذافي موكباً رسمياً لاصطحاب أبو العباس إلى

القصر. توقعتُ أن تكون هناك جلسة ضرورية سيعقدها الرجلان ويحضرا بعدها معاً لتناول العشاء، لكنّ ذلك لم يحصل. انتظرتُ حتى منتصف الليل دون سماع خبر واحد من زوجي، وأخذت الأفكار السوداء تراودني وتدور في رأسي. كنت متأكدة من أنّ أبو العباس قد وقع في فخ نصبه له القذافي حيث أغراه بالقدوم إلى ليبيا لتغييبه تماماً كما فعل مع السيد الإمام موسى الصدر عام ١٩٧٨. جلستُ على شرفة منزلي ودفنتُ رأسي بين ركبتيّ وبدأتُ بالبكاء. لقد وجدتُ نفسي تائهة وسط مكان مجهول وليس لديّ أيّ سبيل للتواصل مع زوجي. حتى إنني لا أعرف أحداً أبداً في ليبيا. جلستُ في مكاني لفترة شعرتُ أنها دهر لن ينتهي، إلى أن سمعت صوت عجلات سيارة قادمة على الطريق. أخيراً عاد الموكب الرئاسي بعد أربع وعشرين ساعة من انطلاقه. لمحتُ أبو العباس جالساً في السيارة الأمامية وكان مبتسماً كعادته.

لدى دخوله المنزل قلتُ له: «لن تتركني هكذا وحيدة مرةً ثانية أبداً! أتفهم؟». كنتُ أصرخ وأصيح وأضرب صدره بيدي بغضب. ازدادت ابتسامة أبو العباس اتساعاً على وجهه الذي كان يبدو عليه السرور والابتهاج، وكان من الواضح أنّ لديه حديثاً ظريفاً لم يعد قادراً على الانتظار ليسرده. عندما أصبحنا داخل المنزل بدأ يقصّ الحكاية الآتية:

«لقد خضتُ رحلة طويلة لأرى القذافي، ركبتُ جميع أنواع المواصلات التي يمكنك تخيلها، من قطارات ومروحيات وموتورات وقوارب مطاطية، حتى وصلتُ أخيراً إليه في وسط الصحراء ووجدتُه جالساً أمام صخرة كبيرة، من الواضح أنها ليست من صنع أمّنا الطبيعة. لقد نُقلت إلى

مكانها الحالي بأمر من القذافي. على أعلى الصخرة، كان الأخ معمر القذافي نفسه يجلس مرتدياً لباساً برتقالياً لمّاعاً. لوّح لي بيده، مشيراً إليّ بالانضمام إليه. صعدتُ على الصخرة العملاقة، وجلسنا سوياً نحدّق في الصحراء. ذكّرتني ثيابه بيوم مجيئه للقاء عرفات، مرتدياً عباءة لونها أرجوانياً بنيّاً شبيهاً بلون الباذنجان. كان عرفات يكتم ضحكته، وهو يقول: «ها قد جاءت الباذنجانة». عندما رأيتُه يحدّق في الأفق من دون أن يتفوه بكلمة واحدة، أؤكد لك أنني لم أستطيع كتم ضحكتي. كان يمارس التأمل يا ريم، وأراد مني أن أتأمل أنا الآخر. لا يمكن أن يخطر ببالك قط ماذا كان يريد مني. لقد قال: «رفيق أبو العباس: نحن في ليبيا نعمل على إنتاج قنبلة ذرّية وبحاجة لمساعدتكم في تطويرها كي نتمكن من سحق الإمبريالية والصهيونية!»، هذا الرجل مجنون يا ريم! مجنون تماماً!».

كان أبو العباس سعيداً جداً، وهذا كان أهم شيء بالنسبة إليّ. لقد بدا وكأنه أخذ جرعة من الحماسة والأمل التي لم أرهما في أبو العباس منذ حادثة أكيلي لاورو وأيامنا في تونس. كانت عيناه تلمعان، وهو يتحدث عن عمليته الجديدة، ويتخيل طوال الوقت كم من الألم ستسببه لحكومة تل أبيب. كان يريد أن تنجح العملية، فكل شيء يتوقف عليها. باندفاع شاب في السادسة عشرة من عمره كان يجلس في الليل بجانبي ليحدثني كيف سيُلحق مقاتلوه الهزيمة بـ «قوات الدفاع الإسرائيلية التي لا تُقهر».

كانت الخطة تقضي بإرسال أربعة زوارق مطاطية تحمل على متنها ستة عشر فدائيّاً وزورقاً إضافياً محمّلاً بالوقود إلى شاطئ نيزانيم بالقرب من تل أبيب. قال أبو العباس إنّ الرحلة من ليبيا إلى إسرائيل تستغرق يوماً ونصف يوم.

كانت أعمار المقاتلين تتراوح بين الثامنة عشرة والسابعة والعشرين من السوريين والفلسطينيين المنحدرين من مخيّمات اللجوء المنتشرة في وسط دمشق وبيروت وعمّان وأطرافها.

كان من المفترض أن يتزامن موعد تنفيذ العملية مع انعقاد قمّة جامعة الدول العربية في بغداد باستضافة من الرئيس العراقي صدام حسين. كان كلٌّ من صدام والقذافي يريد أن تجري العملية في توقيت مراسِم افتتاح القمّة، وذلك لفرض أجندتيهما الراديكالية المتطرفة على العالم العربي. على الصعيد الشخصي، كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين، ولكن على الصعيد السياسي كانا يقفان على جبهتين متعاكستين تماماً، خاصة أنّ القذافي يشارك إيران قضيتها، بينما صدام يمطرها بالصواريخ. هناك مفارقة مضحكة أيضاً، هي أنّ القذافي كان العدو رقم واحد لأميركا، بينما صدام كان مقرّباً جداً منها في تلك الفترة التي سبقت غزوه للكويت ببضعة أشهر فقط عام ١٩٩٠. كان كلا الرئيسين يريد تلميع صورته لدى القوميين العرب، وهل هناك أفضل من الالتفاف حول القضية الفلسطينية للوصول إلى ذلك؟

عملية القدس البحرية، ١٩٩٠

تُعَدّ عملية القدس البحرية ثاني أبرز عملية عسكرية بعد عملية أكيلي لاورو نفذّها أبو العباس. بالرغم من أنّ هذه العملية معروفة جداً، إلا أنّها لم تحظَ باتفاق المؤرخين على مكان لها ضمن مسار الصراع العربي الإسرائيلي، حتى أبو العباس نفسه كان لديه إيمان كبير بها، ولكنه لم يكن راضياً أبداً عن الأداء فيها.

خمسة زوارق مطاطية تتجه نحو الشاطئ

الساحل الإسرائيلي، ٣٠ أيار، ١٩٩٠

لم يُنفَّذ ذلك الاعتداء البحري كما هو مخطَّط له من وجهة نظر أبو العباس، الذي ذكر في ما بعد أنه وفقاً لاتفاقه مع القذافي، كان من المفترض إنزال الزوارق المطاطية ومقاتلي جبهة التحرير الفلسطينية من السفينة الليبية على مسافة بضعة كيلومترات من الشاطئ المنشود. لكن في الواقع حصل الإنزال على مسافة أبعد بكثير من المتّفق عليها، وبالتالي توافر للإسرائيليين الوقت الكافي لاعتراض طريق الزوارق واعتقال فدائيي الجبهة وقتلهم.

ولكنّ زياد العمر الذي كان صلة الوصل بين أبو العباس وليبيا، كانت له رواية مختلفة عن تلك التي ذكرها أبو العباس. قال العمر إنّ العقيد القذافي نفّذ جميع التزاماته على أكمل وجه، ولكنّ الجبهة هي التي ارتكبت الخطأ. وشرح قائلاً: «تمكّن واحد من القوارب المطاطية من الوصول إلى الشاطئ في شمال أشكيلون، وبالتالي لو كان الإسرائيليون على علم مسبق بالعملية، لأطلقوا الرصاص على الزوارق وهي لا تزال وسط البحر». لكنه أورد تعقيدات أخرى واجهت سير العملية، منها أنّ أحد القوارب تعطل محركه أثناء إبحاره، وبالتالي حدث عطل في سير العملية، نظراً إلى اضطرار المقاتلين للانتقال مع أسلحتهم إلى قارب آخر وإغراق القارب. وأضاف العمر: «كان الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه المقاتلون هو نسيانهم إحضار حبل سميك معهم. لو فعلوا ذلك، لكان بإمكانهم ربط القارب المعطَّل بقارب آخر، ولتمكنوا من سحبه بسلامة وسرعة نحو الشاطئ. لقد غابت فكرة ضرورة وجود حبل عن أذهاننا تماماً». كان الجيش الإسرائيلي بانتظار المقاتلين، حيث اعتقلهم جميعاً قبل تمكنهم من تكبيده أي خسائر. وبعد

قضاء عشر سنوات في السجون الإسرائيلية، أُطلق سراحهم عبر عملية لتبادل الأسرى، جرت إثر توقيع عرفات اتفاقيات أوسلو للسلام.

أسباب عملية القدس البحرية

كتب المؤرخون والصحافيون الإسرائيليون الكثير عن عملية القدس البحرية، وبنوا تحليلاتهم انطلاقاً من «زاوية الإرهاب» التي يستخدمها صحافيو الغرب على نحو نمطي كإطار عام لكتاباتهم المتعلقة بالفلسطينيين تحديداً.

الرواة الذين سردوا قصة حياة القذافي أتوا أيضاً على ذكر عملية القدس البحرية على أنها إحدى حيل القائد الليبي لكسب شعبيّة في العالم العربي وتوجيه ضربة موجعة إلى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. لكنّ النسخة الفلسطينية للقصة كانت مختلفة نوعاً ما.

كان ياسر عرفات يتطلع إلى نجاح عملية القدس البحرية كما أبو العباس، خاصة أنها جاءت في فترة حساسة من تاريخ القضية الفلسطينية، حيث كانت الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت فوق الأراضي الفلسطينية قبل سنتين ونصف من ذلك الوقت في ذروتها، وأغلب القيادات، أمثال عرفات وأبو العباس، تتابع ما يحدث من بلاد المنفى في تونس أو العراق. كان أطفال الحجارة وشبابها في فلسطين يسطّرون بطولات مشرّفة تصغر أمامها قيادات منظمة التحرير الفلسطينية المترهلة والعاجزة بكل ما تعنيه الكلمة.

وبالإضافة إلى كل ذلك، كان الاتحاد السوفياتي على شفير الانهيار، وليس لدى

عرفات فرصة لفتح قنوات تواصل سرية مع واشنطن. فرسالة هذه الأخيرة كانت واضحة، وهي أنّ أبوابها ستبقى موصدة في وجهه إلى أن يأخذ موقفاً حاسماً ضد «الإرهاب الفلسطيني». وفي عام ١٩٨٨، وخلال انعقاد مؤتمر المجلس الفلسطيني الوطني في الجزائر، قرر عرفات القيام بذلك، وفي الوقت نفسه أعطى الضوء الأخضر لأبو العباس للمضيّ في المقاومة العسكرية.

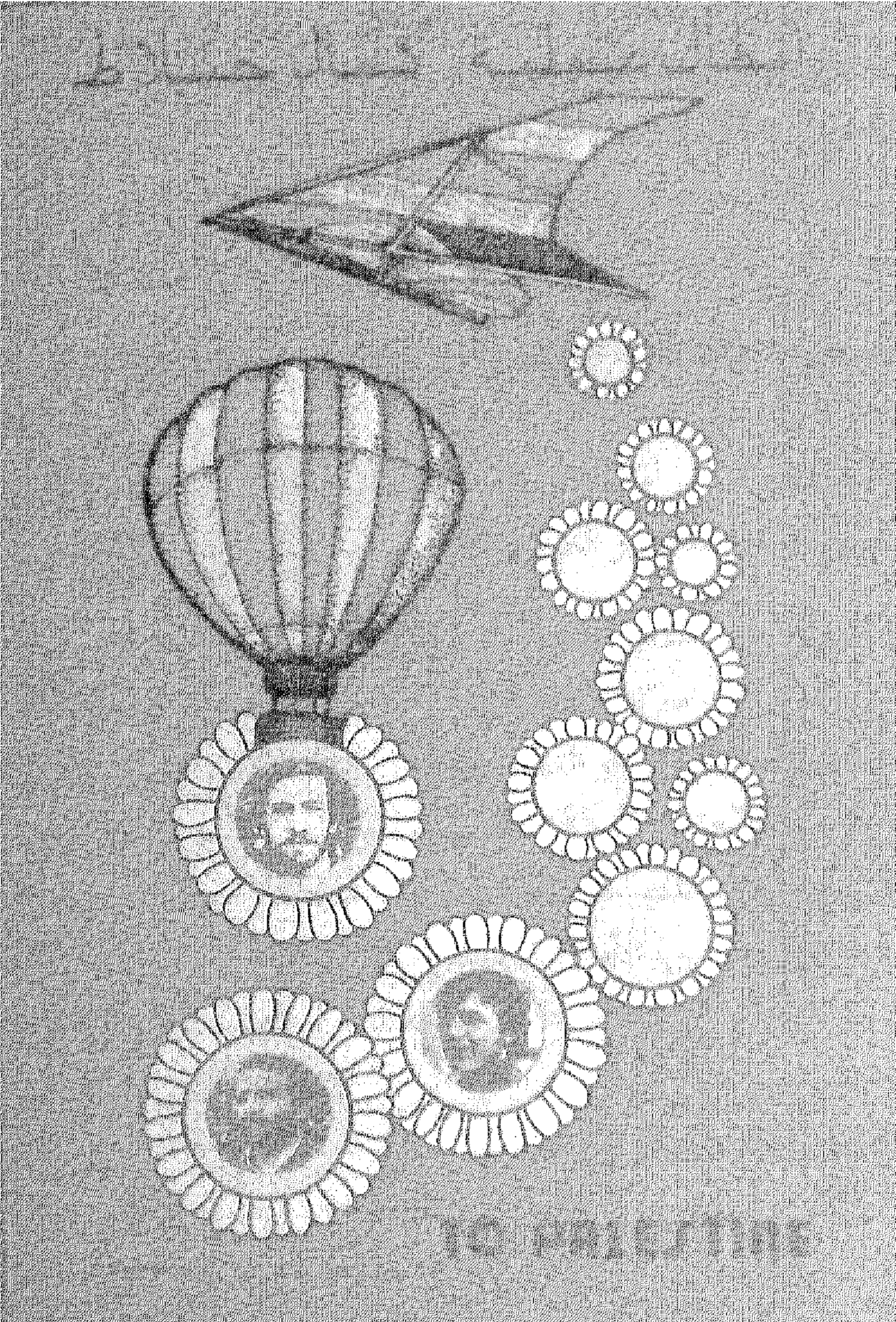
لم يوافق عرفات على عملية القدس البحرية إلا بعد أن تواصل مع الأميركيين؛ ففي حال انهارت علاقة الودّ بينهم سيقوم بدعم العملية وينسبها إلى نفسه. أمّا إذا نجحوا في توطيد العلاقة فسيتبرأ من العملية ويدّعي أنها من نسج أبو العباس.

وبالنتيجة، كانت عملية القدس البحرية السبب في انهيار جسر الدبلوماسية الذي بناه عرفات مع إدارة جورج بوش الأب. في شهر أيلول عام ١٩٩١، أسقط عرفات عضوية أبو العباس في اللجنة التنفيذية للمجلس الفلسطيني الوطني. ولكنّ هذه الخطوة كانت هزيلة جداً ومتأخرة بالنسبة إلى الأميركيين. في الواقع، جاءت تلك الخطوة بعد ستة عشر شهراً من التوبيخ الشهير الذي وجّهه وزير الخارجية الأميركية جيمس بيكر إلى إسحق شامير ومن خلاله إلى شركاء شامير في المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية.

جيمس بيكر يعلّق المحادثات
واشنطن ٢٠ حزيران ١٩٩٠

كانت الأيام الذهبية التي بدأ عرفات يعيشها مع الولايات المتحدة في شهر كانون الأول عام ١٩٨٨ تبدو ذات ديمومة طويلة، لكنها بعد خمسة

أشهر فقط، تبخّرت إثر إطلاق أبو العباس قواربه المطاطية الخمسة في اتجاه الشاطئ الإسرائيلي. بعد عملية القدس البحرية، ألقى وزير الخارجية الأميركية جيمس بيكر، شهادة أمام الكونغرس تضمنت ملاحظة ساخرة قال فيها: «رقم هاتفنا هو ٢٠٢-٤٥٦-١٤١٤. يمكنكم الاتصال بنا عندما تكونون جادين بشأن عملية السلام».



من ملصقات جبهة التحرير الفلسطينية



من ملصقات جبهة التحرير الفلسطينية



من ملصقات جبهة التحرير الفلسطينية

الفصل الثالث عشر

تقاعد مبكّر

لم أنعم بحياة عادية قطّ. فعلى مرّ سنوات هذا العمر، كنت شاهدة على حروب مشتعلة مثل حروب لبنان في عام ١٩٧٥ وفي عام ٢٠٠٦ والحرب الإيرانية العراقية في الثمانينيات، وكنتُ مراقبة لحروب أخرى عن بعد، مثل الحروب الإسرائيلية ــ العربية عام ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، ووقفت أخيراً شاهدة على الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ وحرب إسرائيل على غزة عام ٢٠٠٨ والحرب التي شنّها الناتو على ليبيا عام ٢٠١١ والحرب المستعرة حالياً في سورية.

عبر تلك الحروب نجوتُ من الصواريخ الإسرائيلية والأميركية التي كانت تنهال على رؤوسنا في بغداد، وهرعت للاختباء في الملاجئ في منتصف الليل في بيروت. بيروت هذه المدينة التي نشأتُ وكبرتُ فيها، والتي احتضنت

ذكريات طفولتي، وعرفت فيها رجالاً ماتوا بين يديّ، ورأيتُ بأمّ عيني أبنية تتحول إلى ركام في غزة. وفي سورية رأيتُ أبناء وأمهات تعتصر قلوبهن أسىً وألماً. لكنّ أصعب ما في الأمر، أنني لا أعرف كم يحمل لي بعد قدري من حياة وسط الحروب في الشرق الأوسط. إلى الآن، شهدتُ إحدى عشرة حرباً وعدداً لا حصر له من المعارك، وفي كل واحدة من تلك الحروب عشتُ ألم فراق الأصدقاء والرفاق وأبناء البلد ممن ماتوا أبطالاً في ساحات المعارك. كنتُ أفقد جزءاً من روحي مع كل معركة من تلك المعارك، ومع تحول كل مدينة أحببتها أو عشتُ فيها إلى حطام على أيدي الإسرائيليين أو الأميركيين، أو على أيدي طغاة العرب: بيروت، غزة، بغداد وطرابلس. وبالرغم من أني كنتُ من عناصر المقاومة الفلسطينية وزوجة قيادي فلسطيني، إلّا أنني أعترف بأنني أكره الحرب. لا يمكنني تخيّل فقدان المزيد من الأصدقاء والأقارب في حرب أخرى بعد. كانت أكثر حرب أمقتها حتى الآن وأرتجف لمجرد ذكرها هي احتلال صدام للكويت، وكل ما تبعها من وابل القنابل.

تعليم الأولاد

في عام ١٩٩٠ كان العراق على شفير الحرب. كان صدام على وشك ارتكاب حماقة ما، وبالتالي من السهل التنبؤ بردّ حتميّ للولايات المتحدة. لذا، كان من المنطقي نقل الأولاد من بغداد إلى مدينة أكثر أماناً. في ذلك الوقت، كانت الحرب الأهلية قد وضعت أوزارها في لبنان، وبالتالي سافرت مع أولادي إلى بيروت، وقمتُ بتسجيلهم في المعهد الإنجيلي الفرنسي، ووضعتُ علي الذي كان في سنّ الرابعة في روضة للأطفال.

العراق يغزو الكويت

الكويت، ٢ آب ١٩٩٠

في منتصف الليل اجتاح الجيش العراقي «المهيب المجلجل» الكويت بأوامر من صدام حسين. احتلت الأسباب الداعية إلى هذا الغزو حيّزاً كبيراً من تحليلات المؤرخين في الشرق الأوسط، وتعددت واختلفت كثيراً، ولكن من دون أدنى شك كان هناك سبب واضح، هو اعتقاد صدام بأنّ الكويت تسرق نفط العراق من خلال طرق الحفر المائل. أما السبب الآخر، فهو عدم قدرة العراق على دفع مبلغ ٨٠ مليار دولار أميركي كان قد اقترضها خلال حربه مع إيران التي استمرت ثماني سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨). كان صدام يطمح إلى إلغاء تلك الديون مكافأةً له على محاربته لآية الله في طهران على مدى عقد من الزمن بالنيابة عن الخليج العربي. ولتوفير المال الكافي لإعادة إعمار بلاده بعد انتهاء الحرب مع إيران، أرغم صدام الدول المصدرة للنفط على رفع أسعاره من خلال تقليص إنتاج النفط العراقي. لكنّ الكويت رفضت ذلك بشدة. وإضافة إلى كل ما سبق، كان صدام يستخفّ دوماً بحدود دولة الكويت التي وضعها الانتداب البريطاني عام ١٩٢٢، وهذه النقطة تحديداً كانت أحد المعتقدات التي يؤمن بها العراقيون أنفسهم على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية، وهي أنّ الكويت كانت على مرّ التاريخ جزءاً من بلادهم، ويجب أن تكون كذلك في الوقت الحاضر، وقد طالب بها السياسيون العراقيون على مدى قرن من الزمن. في عام ١٩٦٠ حاول الرئيس عبد الكريم القاسم احتلال الكويت، لكنّ الجيش البريطاني وجامعة الدول

العربية تصدّيا له. إذاً، لم يكن طموح صدام وليد رغبته الشخصية أو أمراً جديداً، بل هو مجرد انعكاس لعقيدة راسخة لدى الشارع العراقي.

في ٢٢ تموز ١٩٩٠، عبّر صدام حسين عن تذمره من العلاقات مع الكويت لوزارة الخارجية الأميركية من خلال سفيرة الولايات المتحدة في العراق إبريل غلاسبي. (ما زلتُ أتذكر غلاسبي جيداً، فلطالما كرهتْ زوجي أبو العباس، حتى إنها كانت تتسمر في مكانها كلما صادفته في شوارع العاصمة العراقية، وعلى الفور تتصل بالحكومة العراقية لتشكو وجود إرهابي على أرضها. لكنّ صدام كان يتجاهل كلماتها. على مرّ تلك السنوات التي عاشها أبو العباس في العراق، لم تعترف الحكومة العراقية رسميّاً باستضافة صدام حسين لزوجي، وحتى الصحافة العراقية لم تأتِ يوماً على ذكره أو نشر صورة له). وأخبر صدام غلاسبي بنيّته غزو الكويت. في تلك اللحظة قالت له غلاسبي إنّ الولايات المتحدة لن تتدخل بشأنٍ كهذا، لأنها تعدّه شأناً داخلياً يخصّ العراق والكويت، موضحةً أيضاً أنّ أمراً كهذا لا يهمّ الرئيس جورج بوش الأب ووزير خارجيته جيمس بيكر، ولن يعترضا عليه. وعلى الفور، سارع صدام إلى غزو الكويت واحتلالها في شهر آب من عام ١٩٩٠، معلناً إياها المحافظة التاسعة عشرة للعراق، ومشعلاً فتيل الأزمة الدولية الشهيرة.

كان الردّ الأول للرئيس الأميركي على غزو الكويت حذراً، فالكويت من جهة ليست المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى أنّ واشنطن كانت تمقت العلاقة التاريخية التي تربط الكويت بالفلسطينيين. ومن الجهة الثانية، تمتلك الولايات المتحدة ثقلاً سياسياً وعسكرياً ضخماً واستثمارات

خاصة في الكويت. لم يكن صانعو السياسة يرغبون في مزيد من الزعزعة في الخليج الفارسي. كان ذلك الغزو يهدّد برفع أسعار النفط العالمية، كذلك أدركت أميركا أنّ اقتصادها واقتصاد العالم أصبحا على المحك.

الرئيس بوش تحدث في الأمر مع رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر التي كانت تعتبر الحليف الأوروبي الأقوى للولايات المتحدة، وأشارت عليه بالقيام بعمل ما، خاصة أنّ بريطانيا تتمتع بعلاقات تاريخية قوية مع الكويت تعود لأيام الانتداب البريطاني في عشرينيات القرن العشرين، وتمتلك استثمارات فيها أكثر بكثير مما تمتلك الولايات المتحدة. وبالنتيجة، قررت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا الدفع باتجاه استصدار قرار من الأمم المتحدة تمنح العراق فيه مهلة محددة للخروج من الكويت تنتهي في منتصف كانون الثاني لعام ١٩٩١.

في ذلك الوقت، كنت أنا وأبو العباس مختفيين في الشمال العراقي بناءً على تحذيرات من استخبارات صدام التي نقلت إلى أبو العباس نيّة الإسرائيليين اغتياله. وكان إسحق شامير قد ظهر على قنوات التلفزة الإسرائيلية ليوجه تهديده إلى أبو العباس، قائلاً: «سوف نأتيك أبو العباس أينما كان الملجأ الذي تختبئ فيه في بغداد». طبعاً، أبو العباس أطربه سماع ذلك، وكان يردد دوماً: «هذا دليل على أنّ ما قمنا به كان ناجعاً ومؤلماً جداً لهم». وقال: «لا يمكننا البقاء أكثر من يومين في نفس المكان»، وطلب مني مغادرة المنزل بسرعة. وأردف أيضاً: «هكذا أخبرني العراقيون، ويجب أن آخذ بنصيحتهم. بيريز يستشيط غضباً، لذا احزمي الأشياء الضرورية فقط». أكثر جملة كرهتها في حياتي هي هذه الأخيرة: «احزمي الأشياء الضرورية فقط». لقد مللت

سماعها في حياتي. عندما غادرنا بيروت إلى سورية ١٩٨٢، ردّد أبو العباس هذه الكلمات على مسامعي، وأيضاً عندما غادرنا سورية إلى تونس في العام ذاته، وعندما غادرنا تونس إلى العراق إثر عملية أكيلي لاورو عام ١٩٨٥. لم أكن أعرف إذا ما كنت سأعود إلى منزلي مجدداً في بغداد. لطالما كرهتُ حياة الترحال تلك التي كلما شعرتُ باستقرار في مكان، صدرت الأوامر فجأة بمغادرته إلى دولة عربية أخرى. لقد فقدتُ معظم أشيائي الغالية في خضمّ هذا النمط من الحياة الذي تحول أيضاً إلى كابوس في حياة الأولاد، الذين كانوا يجدون أنفسهم فجأة خارج منزلهم وبعيداً من مدارسهم وأصدقائهم. تكفّل رجال صدام بنقلنا إلى ما يعرف اليوم باسم كردستان العراق، حيث قضينا بضعة أيام في كل من دهوك والسليمانية وأربيل، وطبعاً لم يكن مسموحاً لنا استخدام أجهزة الهاتف أو الفاكس، خوفاً من اختراق الإسرائيليين لمكالماتنا. ولكن سُمح لأبو العباس باصطحاب بعض مرافقيه الأمنيين خلال تلك الفترة من النفي المؤقت. كان أبو العباس يقول: «على الأقل، الوقت صيف وليس لدى الأولاد التزام مدرسي». هكذا كانت صفات الرجل الذي يحاول أبداً النظر إلى الجزء المشرق مهما كانت درجة الغيوم المتلبدة حوله. وقال لي: «إنها عطلة لا تُفوَّت». ولكنني أجبته: «أعتقد أنّ مصطلح عطلة إجبارية يليق بها أكثر يا عزيزي».

كان العراقيون يرون التهديدات الإسرائيلية «بالغة الخطورة»، لأنّ عملية القدس البحرية لم يمضِ عليها سوى ثلاثة أشهر فقط، إضافة إلى أنّ الأميركيين كانوا أيضاً غاضبين من أبو العباس بسبب حديثه لقناة «سي إن إن» خلال إحدى زياراته لأوروبا الشرقية، حيث أعلن منح جائزة قدرها مليون دولار أميركي لمن يأتيه برأس رونالد ريغان. وطبعاً، أبو العباس وجّه تلك

الكلمات ردّاً على تصريحات الرئيس الأميركي التي أطلقها من اليابان ووعد فيها بدفع مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دولار أميركي لمن يأتيه بأبو العباس حيّاً أو ميتاً. سبّب ذلك التراشق بالكلمات إحراجاً للحكومة العراقية التي كانت إلى ذلك الوقت تحافظ على علاقات جيدة مع واشنطن، والأكثر من ذلك أنها زادت من احتمال تعرّض أبو العباس للاغتيال على أيدي الإسرائيليين أو الأميركيين.

كنا نهرب من شبح الإسرائيلي المسلَّح ونختبئ في مكان بعيد جداً عن بغداد عندما اجتاح صدام الكويت في ذلك اليوم المصيري من صيف عام ١٩٩٠.

وبالرغم من أن الكثير كُتب عن دور لأبو العباس في غزو الكويت واحتلالها، إلا أنّ ذلك كله كان مجرد أكاذيب لا أساس لها من الصحة. لم يكن زوجي أبو العباس حتى على علم بعملية الغزو، ولم يكن ليهلل لها أيضاً. في الحقيقة كنا معاً عندما سمعنا بالخبر حينما اندفع حارسه الشخصي إلى غرفة نومنا في منتصف الليل وهو يصرخ بشكل هستيري قائلاً: «انهض يا رفيق». وكعادته، التقط أبو العباس مسدسه كالمجنون وهو على يقين من أنّ الإسرائيلي قد أتى لقتله. كانت القنابل والأسلحة في كل مكان، حتى في زوايا سريرنا، لدرجة أنني كنت دوماً استشعر برودة معدن سلاحه أو القطعة المطاطية المحيطة بقنابله كلما أردت معانقته قبل الإخلاد إلى النوم. وما إن وضع إصبعه على الزناد حتى تناهت إلى سمعه كلمات أبو علي المتدافعة قائلاً: «صدام اجتاح الكويت»، وعندها شغلنا التلفاز واستمعنا إلى التفاصيل مثل كل الناس. شعر أبو العباس بإحباط كبير لسماع تلك الأخبار، وقال لي على انفراد: «الله وحده يعلم ما تخبئه لنا الأيام القادمة. أبو عدي (صدام) قد جرّ العالم العربي بأكمله نحو المجهول».

ولا بد هنا من الوقوف عند آراء أبو العباس إزاء اجتياح صدام الكويت، خاصة أنّ الادعاءات المزعومة بدعمه ذلك الاجتياح كانت إحدى الشائعات التي لاحقت أبو العباس لفترة طويلة من حياته. فأبو العباس قال، في وقت لاحق، لنائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان: «يبدو أنّ السيد الرئيس قد أخطأ في حساباته». طبعاً تلوّن وجه البعثي الفذّ إلى القرمزي وقطّب حاجبيه أمام تلك الملاحظة الوقحة، فصدام حسين لا يمكن أن يخطئ أبداً. لكنّ أبو العباس تابع حديثه قائلاً: «في الواقع، كان من الأجدر أن يكون هذا التحرير لفلسطين، وليس للكويت. كنا ننتظر من أبو عديّ أن يصبّ تركيزه على دحر الجيش الإسرائيلي وليس الكويتي. إن خطوة كهذه كانت ستبدو أكثر حكمةً، وكانت ستكسبه مكانةً عظيمة في التاريخ العربي». اتخذ نائب الرئيس خطوة إلى الوراء، ولكنّ أبو العباس كان لا يزال لديه المزيد ليقوله. وتابع مشيراً إلى الحرب «المجيدة» التي خاضها صدام ضد إيران بدعم من أميركا. كان ذلك الصراع هو الأطول في القرن الأخير، والأعنف منذ الحرب العالمية الثانية. وأسهب أبو العباس في الحديث قائلاً: «استمع لي لو سمحت، فأنا أتكلم من حرصي على العراق. هل ترى النصر الذي حققتموه على إيران؟ سوف يذهب أدراج الرياح. سوف يتبخر إن بقيتم في الكويت. كل الذي وصلتم إليه في سنوات الحرب الثماني سوف يضيع».

منذ الحرب العالمية الثانية والاقتصاد الكويتي يعتمد بقوة على العمالة الأجنبية التي كان الفلسطينيون يشكّلون فيها عدداً لا بأس به. تدفق الفلسطينيون إلى الكويت بأعداد كبيرة على ثلاث دفعات، كانت أولها في عام النكبة ١٩٤٨، ومن ثمّ في عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة،

وأخيراً في عام ١٩٧٥ إبّان اشتعال الحرب الأهلية اللبنانية. وكان أحد أبرز الفلسطينيين الذي انتشر صيته من الكويت هو عرفات نفسه الذي عاش فيها وعمل مهندساً في خمسينيات القرن العشرين. وفي عام ١٩٩٠، كان تعداد الفلسطينيين العاملين في الكويت يُقدَّر بـ ٤٠٠,٠٠٠ ألف فلسطيني، يشكلون ٣٠ في المئة من التعداد السكاني للكويت الذي كان يبلغ ٢,٢ مليون نسمة. كان الفلسطينيون يعملون في الكويت ويرسلون المال إلى عائلاتهم داخل الأراضي المحتلة وفي مختلف أنحاء الوطن العربي. وكان عرفات يحظى بصداقة قوية مع أمير الكويت الذي كان كريماً جداً وسخيّاً في دعمه لمنظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد المالي والسياسي. ومن هنا أدرك أبو العباس سريعاً الآثار السلبية لغزو صدام للكويت، وجادل بأنّ هذا الغزو سيؤدي إلى تداعيات دراماتيكية على القضية الفلسطينية وسيقتل أي أمل ــ وإلى الأبد ــ بتلقّي تمويل من الكويتيين.

أشار أبو العباس على عرفات بعدم الوقوف علانية إلى جانب صدام، ولكنّ أبو العباس لا يستطيع أن يفعل ذلك مع المسؤولين العراقيين، لأنه ضيف لدى الحكومة العراقية. ومع ذلك، عبّر بكل صراحة عن استيائه من عملية الغزو تلك لصديقه نائب رئيس مجلس الوزراء طارق عزيز، ولكنه كان يعرف تماماً أنّ رأيه هذا سيبقى طيّ الكتمان ولن يصل إلى مسامع صدام حسين. من المؤكد أنّ أبو عدي لو سمع بذلك، لطرد أبو العباس وجبهته من بغداد على أقل تقدير، فهو إذا ما اشتدّ به الغضب، يمكن أن يقتل أبو العباس ويلصق التهمة بإسرائيل. كان أبو العباس معجباً بعزيز ويحبه ويعتبره رجل معرفة ومن خيرة رجال صدام، وكان دوماً يقول عنه «إنه رجل طيب، ولكنّ ولاءه الأعمى لصدام يقف في طريق تفكيره السديد».

بكل الأحوال، لم يكن أبو العباس يتمتع بصلاحية تجعله يقول «لا» لصدام حسين.

وبالفعل، حدث ما تنبأ به أبو العباس بالضبط. فبعد شهرين من «تحرير» الكويت من قوات صدام في كانون الثاني ١٩٩١، أصدرت حكومة الكويت أوامرها بطرد ٤٤٣,٠٠٠ فلسطيني من أراضيها. وحتى هذا اليوم، وبعد مرور أربعة وعشرين عاماً، لم تغفر الكويت للفلسطينيين دعمهم لذلك الغزو، ولم تغفر أيضاً للعراق، بالرغم من مرور عقد من الزمن على سقوط صدام حسين. وحتى اليوم، لا تزال حكومة نوري المالكي العراقية تشعر بذلك الحقد الكويتي عليها بسبب ذلك الغزو. أمّا بالنسبة إلى ياسر عرفات، فهو لم يقدم أي اعتذار عن دعمه غزو عام ١٩٩٠، ولكن في شهر كانون الأول ٢٠٠٤ فقط، أي بعد وفاة عرفات بفترة قصيرة، عبّر خلفه محمود عباس عن أسفه على المواقف التي اتخذتها منظمة التحرير الفلسطينية من ذلك الغزو.

مفاجأة، مفاجأة!

مدينة الكويت، ١٧ كانون الثاني ١٩٩١.

الولايات المتحدة وقوات التحالف تشنّ حرب الخليج

بناءً على طلب شخصي، تمكنتُ من إحضار إبني علي إلى منزلي في بغداد مع بداية غزو العراق للكويت في شهر آب عام ١٩٩٠. ولكن ريف ولؤي تابعا دراستهما في المدرسة الفرنسية في بيروت. وفي كانون الثاني، قبل إطلاق الولايات المتحدة عملية عاصفة الصحراء العسكرية «لتحرير الكويت»، قام أبو العباس بإرسالي مع علي إلى الأردن حفاظاً على سلامتنا. وما إن هدأت

العاصفة في بداية شهر شباط، حتى بدأتُ أرجو زوجي ليسمح لي بالعودة. كان جميع أصدقائي ضدي في قراري بالعودة، مبررين ذلك بقولهم: «لا يوجد كهرباء ولا ماء ولا حتى حاجات أساسية. الناس تموت هناك. لا يمكنك العيش في العراق في هذا الوقت. خليكي في الأردن». عندما أدركتُ أنّ جميع جهودي بإقناع أبو العباس بذلك القرار باءت بالفشل، قصدتُ عرفات الذي كان حينها في زيارة للأردن بعد أن رمّم علاقته بالملك حسين، وتوصل إلى تسوية خلافاته معه. تعمدتُ الذهاب إلى مكتبه يومياً، وطلبتُ منه إعادتي إلى بغداد. في أول مرة طلبت منه ذلك، انفجر في وجهي قائلاً: «شو هالحكي! لا أستطيع إرسالك إلى هناك. ماذا سيقول أبو العباس؟»، ولكن خبرتي الطويلة بعرفات علّمتني كيفية التعامل معه والحصول منه على مبتغاي، وقد حصلت عليه فعلاً، حيث وافق في النهاية وطلب من منصور حديثي، القائد الأسبق للجيش الأردني، أن يأخذني معه إلى بغداد. كان منصور حديثي هو من قاد الجيش الأردني في معركة الكرامة الشهيرة عام ١٩٦٩، وكان يقدّر عالياً الفلسطينيين الوطنيين، لذلك وافق على اصطحابي في تلك الرحلة الطويلة المرعبة من عمّان إلى بغداد برّاً. جلستُ مع ولدي علي في المقعد الخلفي، واكتشفتُ لحظة انطلاقنا أنّ ابنه الذي كان هو الآخر ضابطاً في الجيش الأردني هو من يقود السيارة بنا. كانت الطريق الرئيسية التي سلكناها خالية تماماً من أي مخلوق. على طول الأراضي العراقية المترامية صادفنا العديد من الجنود العراقيين ممن شتّتتهم الحرب وقذفت بهم وسط الصحراء الموحشة لا يسترهم فيها سوى بعض من ملابسهم العسكرية الممزقة بعد أنّ فرّوا من ساحة المعركة، تاركين مواقعهم خائفين من العقاب الذي ينتظرهم من صدام حسين ومن وقوعهم أسرى في قبضة

الجيش الأميركي. كانوا يتوسلوننا طالبين شيئاً من الطعام أو حتى شربة ماء فقط. لم نصدق ما رأته أعيننا أنا وحديثي في تلك اللحظة، حتى إنّ حديثي قال: «أهذي هي أم المعارك التي وعد صدام العالم بخوضها؟ انظري إلى الحال التي وصل إليها جنوده!». لم يكن على الحدود العراقية سوى شاحنة تابعة لوكالة غوث أردنية تحمل مساعدات لبغداد، أرشدتنا إلى وجهتنا على الطريق. أدار حديثي وجهه إلينا في المقعد الخلفي وخاطبني وهو يداعب الصغير علي قائلاً: «ما الذي يحملك على الذهاب إلى بغداد يا ابنتي؟ لو أنّ أحداً غير أبو عمار طلب مني ذلك، لما وافقت أبداً على اصطحابك في هذه الرحلة الشاقة. أنا وولدي ضابطان، وهذا جزء من عملنا، ونحن ذاهبان لإيصال رسالة للعراقيين. ولكن ما الذي يجبرك على تكبّد كل هذه المشقّة للوصول إلى بغداد؟».

أجبته: «زوجي يا سيدي الجنرال. أنا ذاهبة لأرى زوجي، فهو وحده هناك». وهنا سألني: «ألستِ خائفة؟».

ولكن أنا التي عشتُ وعملتُ في ميادين المقاومة الفلسطينية منذ بداية حياتي، أجبتُ بكل فخر: «أنا فدائيّة». وهنا أشار حديثي إلى علي وقال: «وماذا بشأن هذا الطفل الصغير؟ هل هو فدائي هو الآخر؟ أي ذنب اقترف ليتحمل كل هذه المعاناة؟».

وصلنا إلى بغداد التي تغرق في ظلام دامس لانعدام الكهرباء فيها. الشوارع خالية من السيارات والمارّة وحتى من مصابيح الإنارة. كانت مدينة أشباح. اجتزنا جسر المنصور باتجاه جسر بغداد المعلق لنجده محطماً إلى نصفين بسبب القذائف الأميركية. لم أتصل بأبو العباس ليأتي ويقلّني، لأنني كنتُ أريد

مفاجأته، فيها شبكة الهاتف معطلة أصلاً. لم أكن متأكدة مما إذا كان لا يزال مستقراً في المكان الذي تركته فيه، لأنني لم أكن قد سمعت صوته منذ نحو شهر بسبب الحرب. لذا طلبتُ من حديثي أن يأخذني إلى منزل عزّام أحمد، وهو أحد أبرز قياديي جبهة التحرير الفلسطينية، وكان يقيم في شارع أبو جعفر المنصور. لدى وصولنا إلى منزل أحمد، وجدنا أبو العباس قد غادر المنزل بسبب الجو الحار، وخرج يذرع الشارع جيئة وذهاباً ويتحدث مع الأصدقاء. لن أنسى في حياتي تعابير وجهه عندما رآني أنزل من السيارة، وما زلت إلى اليوم أستغرب من نفسي كيف خطر ببالي أنه سيكون سعيداً جداً لدى رؤيتي. لقد انهال عليّ بكل أنواع الاتهامات ونعتني بكل الصفات القاسية التي بدأت «بالطائشة واللامبالية»، ووصلت إلى حد «المجنونة والحمقاء»، ولكن لم يكن بإمكانه أن يفعل أي شيء في تلك اللحظة، فقد وصلتُ وانتهى الأمر. بقيتُ في بغداد أسبوعين كاملين، وأدركتُ بعدها أنه كان محقّاً، فالوضع لا يُحتمل مع عدم توافر الماء والحليب، ولا حتى فوط الأطفال، ولم يكن بيدي أي خيار سوى الاعتراف بخطئي في إحضار علي معي في تلك الرحلة الشاقّة، فعدتُ أدراجي إلى عمّان.

كان لغزو الكويت، وهزيمة العراق بعدها في حرب الخليج الثانية تأثيرهما القاسي على حياتي وحياة أبو العباس وعلى العراق أيضاً. قطعت الكويت مساعداتها للفلسطينيين، وحذت دول الخليج جميعاً حذوها. أما العراق الذي خرج منهكاً مهزوماً من تلك الحرب، وفوقها تلك العقوبات القاسية التي فُرضت عليه لاحقاً، فلم يعد قادراً على تقديم أي دعم لأبو العباس. وبالرغم من أنّ أبو العباس ظلّ مقيماً على الأراضي العراقية، إلا أنه كان من الواضح أنّ العراقيين قد بدأوا يشعرون بالتعب

من لعب دور المضيف، وأنّ لديهم الرغبة في إلقاء ما كانوا يرونه عبئاً سياسياً عن كاهلهم.

عودة الأولاد

بعد توقف القتال والانتهاء من جرف ركام الحرب وعودة الخدمات العامة، عدتُ مع علي من الأردن إلى الفيلا في شارع أبو نواس، وجاء ريف أيضاً من بيروت التي بقي لؤي فيها. لكن في العام التالي انضم إلينا أبناء أبو العباس آتين من كندا لقضاء عام كامل معنا في بغداد. كان أبو العباس مذهولاً من شدة تأثرهم بنمط الحياة الأميركي، لذا سارع بتسجيلهم في مدارس عراقية لإحياء لغتهم العربية وإعادة دمجهم في تقاليد الوطن العربي وعاداته. أصبحنا أنا وأبو العباس نعيش مع أربعة صبيان: ريف، خالد، عمر وعلي.

مؤتمر مدريد

إسبانيا، ٣٠ تشرين الأول ١٩٩١. انعقاد مؤتمر مدريد

عام ١٩٩١ كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى قد انتهت بعد أن استنزفت أرواح الشباب الفلسطيني في حرب غير متكافئة أبداً ضد الجيش الإسرائيلي. في ذلك الوقت، بدأ آخر أمل لدى أبو العباس بتحرير فلسطين بالتلاشي. لم يعد أبو العباس يملك مالاً ولا سلاحاً، ولا حتى غطاءً سياسياً لشنّ أيّ عملية. وأخذت فكرة السلام تستقر في أذهان الجميع بديلاً من الصراع المسلّح. وفي عام ١٩٩١ وضعت إدارة جورج بوش الأب كلّ ثقلها لعقد مؤتمر مدريد للسلام. لم يُسمح لعرفات بحضور المؤتمر بسبب دعمه

لصدام حسين. ولكن حضر المؤتمر ممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية، سواء أكان ذلك بموافقة عرفات وأبو العباس أم من دونها، وشاركوا في المحادثات وجهاً لوجه مع رئيس وزراء خارجية إسرائيل إسحق شامير.

تجاوز عديّ حسين، ١٩٩٢

بالرغم من أنّ جميع اهتمامات أبو العباس كانت موجّهة إلى القضية الفلسطينية، إلا أنه أحياناً كان يستخدم علاقاته في أمور أخرى في بغداد. وتخطرني الآن قصة حدثت معه كان لعديّ ابن صدام علاقة بها:

في يوم من الأيام طرقت باب منزلنا امرأة فلسطينية في منتصف العمر تطلب مساعدة أبو العباس. كانت محتشمة في لباسها وترتدي حجاباً أنيقاً وذات هيئة محترمة. وبخجل شديد بدأت تروي حكايتها قائلةً: «لقد نصحوني باللجوء إليك، وقالوا إنك تساعد الفلسطينيين. زوجي مصري الجنسية، وهو سجين الآن وليس لي أحد أذهب إليه سوى الله وأنت يا أبو العباس». كانت المرأة قد دخلت علينا ومعها أربع فتيات جلسن في غرفة المعيشة وعرّفتهنّ بأنهنّ بناتها. وبينما كنت أقدم لهنّ القهوة، لفتتني ابنتها الكبرى بعينيها الزرقاوين اللتين تشبهان عيني كليوباترا، ويبدو من محيّاها أنها في عمر الجامعة. كان زوج السيدة محكوماً بسبب قضية اقتصادية، وهذا يعني وفق القانون العراقي أنه متهم إما بتهريب العملة، وبالتالي يحقق أرباحاً على حساب الدولة، أو الإتجار غير الشرعي بالسلاح أو المخدرات. وخلال سعي الزوجة لإطلاق سراح زوجها، أشار عليها أحدهم بطلب المساعدة من عدي صدام حسين باعتباره الوحيد القادر على تحرير زوجها

من السجن. وهنا ارتكبت المرأة الخطأ الأكبر، حيث اصطحبت بناتها معها إلى منزل عدي حسين. في اليوم التالي أرسل عدي شخصاً لتوجيه دعوة لابنتها الكبرى لحضور إحدى حفلاته التي يعرفها العالم بأسره بأنها حفلات مجون وعربدة. رفضت الأم الدعوة قائلة: «ابنتي لا تخرج في الليل وحدها، لا لبيت عديّ حسين ولا غيرو». وفي اليوم التالي تكررت الحادثة وألحّ المرسال في دعوته وعاد خائب الرجاء أيضاً. وفي اليوم الثالث عاد مجدداً مهدداً متوعداً، وقال: «إما أن تأتي ابنتك إلى الحفلة، أو ستلقون جميعكم ما لا تُحمد عقباه!»، وذُعرت المرأة وغادرت منزلها في منتصف الليل مصطحبة بناتها معها، متنقلين من مكان إلى آخر ملتمسين الاحتماء من بطش عديّ حسين. وفي النهاية أشار عليها أحد الأصدقاء باللجوء إلينا، حيث قال لها: «سوف يساعدك أبو العباس. إنه سفير الفلسطينيين في بغداد، وكلمته مسموعة لدى المسؤولين العراقيين».

استمع أبو العباس إلى قصتها بالكامل، ومن ثمّ أومأ إليّ بطرفة عين، وكان يعني بذلك «لنتكلم على انفراد في الشرفة». كان منزلنا بالطبع مليئاً بأجهزة التنصّت، حتى كنا نشعر بأننا نعيش داخل ميكروفون. عندما أصبحتُ مع أبو العباس وحدنا في الشرفة، قلت له: «ماذا ستفعل الآن؟»، أشعل سيجارته وابتسم قائلاً: «سأفعل ما يجب فعله. سوف أساعدها في الخروج من العراق». وعندما سألتُه كيف سيفلت من غضب عدي حسين، أجاب أبو العباس: «صدام يثق بي وعديّ يخاف من والده، ولن يبحث كثيراً في الموضوع، لأنه يعرف أن بإمكاني حمل القصة مباشرة إلى والده الرئيس صدام، وهو لن يرضى بذلك أبداً». وخلال الساعات الثماني والأربعين القادمة، جرى تهريب المرأة وبناتها خارج العراق بجوازات مزورة قدمها لهم أبو العباس.

متفجرات في مدينة الكويت

مدينة الكويت، نيسان ١٩٩٣.

هل حاول صدام فعلاً قتل بوش؟

في شهر نيسان من عام ١٩٩٣، زار جورج بوش الأب الكويت بعد عامين من قيادة بلاده التحالف الدولي لتحرير الدولة الصغيرة من احتلال العراق. ويبدو أنه في تلك الزيارة نجا بحياته بأعجوبة.

الاستخبارات الكويتية ألقت القبض على سبعة عشر مشتبهاً فيهم وسيارة من نوع تويوتا لاند كروزر محمّلة ثمانين كيلوغراماً من المتفجرات البلاستيكية ومزودة بفتيل للتفجير بالإضافة إلى عشر قنابل مكعبية مصبوبة حول الفتيل. اعترف المشتبه فيهم بأنّ الاستخبارات العراقية هي وراء العملية. لكنّ الصحافي الشهير سيمون هيرش والسفير جو ويلسون شككا بالأمر في ما تلا من الزمن.

في حزيران ١٩٩٣، ردّت الولايات المتحدة على محاولة الاغتيال بإطلاق هجوم بصواريخ كروز على أحد الأبنية في بغداد يشغله عناصر من الاستخبارات العراقية. وشدّدت الولايات المتحدة عقوباتها فمُنعت العراق من بيع نفطه في الأسواق العالمية. سبّب نظام العقوبات الجديد معاناة قاسية للعراق، وساهم في تدمير اقتصاده وتحطيم البنية التحتية للدولة. لم يعد العراق قادراً حتى على تنقية مياه الشرب لديه وشملت المعاناة جميع العراقيين. أشارت التقارير الصادرة عن منظمات الأمم المتحدة إلى أنّ ٠٠٠ , ٥٠٠ إلى ٢ , ١ مليون عراقي دون الخامسة من العمر قد ماتوا بسبب تلك العقوبات.

اتفاقات أوسلو، ١٩٩٣

كان مؤتمر مدريد هو جسر العبور إلى إطلاق محادثات واشنطن التي جرت بين الفلسطينيين وإسرائيل والتي بدورها قادت الفريقين إلى اتفاقات أوسلو السرّية. التي وُقِّع عليها في حديقة البيت الأبيض في شهر أيلول من عام ١٩٩٣. لكن قبل الانتهاء من رسم الاتفاق، قام عرفات بزيارة بغداد لإطلاع كل من صدام حسين وأبو العباس عليه. كان عرفات مسروراً ومتحمساً على نحو واضح، فهو اليوم يشهد خيوط النور الأولى لانبلاج فجر أمّة فلسطينية. لكنّ أبو العباس لم يكن كذلك، فهو لم يكن في يوم من الأيام مقتنعاً باتفاقات أوسلو، وقال لعرفات إنه لن يدعم أبداً اتفاقاً كهذا، لكنه لن يقف في طريقه في الوقت نفسه، وذلك احتراماً لأبو عمار الذي يمثل الإرث التاريخي والقيادي للقضية الفلسطينية. كنا نشاهد معاً البث التلفزيوني المباشر لتوقيع اتفاقات أوسلو عندما بدأ أبو العباس يضرب على رأسه بشكل هستيري مرعب وأُصيب بارتفاع ضغط الدم واضطررنا إلى إحضار الطبيب لمعاينته في المنزل. فلشخص في مكانة أبو العباس ليس هناك ما هو أكثر توتيراً وإزعاجاً من رؤيته لياسر عرفات وهو يمدّ يده ليضعها في يد إسحق رابين. والأسوأ من ذلك، هو أن يستعرض رابين تلك الحركة السخيفة الشهيرة بالإحجام عن المصافحة ليعود ويمدّ يده إثر لكزة من الرئيس بيل كلينتون.

وفقاً لأحد بنود اتفاقات أوسلو، وافقت إسرائيل على الاعتراف بعرفات شريكاً لها في السلام والإقرار بإقامة سلطة حكم ذاتي انتقالية فلسطينية في الضفة الغربية وغزة. رسمت اتفاقيات أوسلو خطةً لعملية سلام تُنفَّذ

على مرحلتين وفقاً لجدول زمني محدد، على أن تشهد السنوات الخمس التالية سلسلة من الإجراءات تُبنى خلالها تدريجاً علاقة من الثقة المتبادلة والتعاون، بحيث يقوم الطرف الفلسطيني ببناء قوة شرطة فلسطينية لإحلال الأمن في الأراضي التي تسيطر عليها (بالاسم) متعاونة مع إسرائيل في «محاربة الإرهاب»، وقد أُسِّس فرع الأمن الوقائي الفلسطيني لهذا الغرض، كذلك عُدِّلت مواد ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية التي تدعو إلى تدمير إسرائيل. لكنّ هذه الاتفاقية لم تردع إسرائيل عن بناء المستوطنات، ولا حتى تضمنت بنداً واضحاً لإيقافها أو الحدّ من بنائها، بل على العكس ازداد انتشار تلك المستوطنات أكثر من الضعف بعد اتفاق أوسلو.

خلال سنوات عملية أوسلو السبع (١٩٩٣-٢٠٠٠) ازداد التعداد السكاني للمستوطنين الإسرائيليين على نحو غير مسبوق فبلغ ١١١,٠٠٠ مستوطن، أي بنسبة (٤٢ في المئة)، وهي نسبة لم يصل الاستيطان إليها طوال السنوات السبع التي سبقت أوسلو مباشرةً. أكثر من ذلك أنّ هذه الاتفاقيات لم تساعد في تسهيل حياة الفلسطينيين، بل على العكس خلقت حواجز على الطرق ونقاط تفتيش جعلت عملية الذهاب والإياب بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية بالغة الصعوبة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قبل اتفاق أوسلو كان طلّاب غزة الراغبون في الانضمام إلى جامعة بيرزيت بالقرب من رام الله بحاجة لساعة ونصف الساعة فقط للوصول إلى الحرم الجامعي، بينما بعد أوسلو أصبح لزاماً عليهم عبور معبر رفح ودخول الأراضي المصرية والانطلاق من مطار القاهرة إلى عمّان، ومن ثمّ اجتياز الحدود الأردنية الفلسطينية للدخول إلى فلسطين، وهذه الرحلة تستغرق يوماً أو أكثر.

بالرغم من التقسيم الذي أقامه أوسلو في فلسطين، إلا أنّ شعار منظمة التحرير الفلسطينية ظلّ هو الخريطة التي ترسم كامل فلسطين ما قبل الـ ١٩٤٨. وكان شعار فتح لا يزال يحمل الخريطة ذاتها مع بندقيتين متقاطعتين وقنبلة. فشلت اتفاقيات أوسلو في إرساء حلّ نهائي لقضية القدس، وفشلت في إنهاء مسألة المستوطنات، وبالتالي لم تكن قطّ حلاً للشعب الفلسطيني.

سهرة مع عائلة عرفات

بعد فترة قصيرة من توقيع اتفاقيات أوسلو، وقبل مغادرة عرفات تونس إلى فلسطين، تلقيتُ أنا وأبو العباس دعوة على العشاء في منزل أبو عمار في تونس. كانت أمسية خاصة دافئة جداً، فقد كنتُ أنا وزوجي وعرفات وزوجته سهى فقط. في تلك الأمسية أعدّت سيدة فلسطين الأولى العشاء، وساعدتُ أنا في ذلك. في غرفة أخرى كان القائدان يتحدثان في السياسة. وبعد الانتهاء من العشاء، أخرج عرفات الخرائط ونشرها على طاولة الطعام وشرح لنا وهو يشير بإصبعه قائلاً: «هذه النقطة ستصبح لنا من جديد. وستقوم إسرائيل بإعطائنا هذه. هل ترون ذلك الموقع هناك؟ هذا سيكون من نصيب الفلسطينيين هو الآخر. هذا الجزء بأكمله سيكون لنا». كان عرفات متحمساً جداً ومصدّقاً لكل كلمة يقولها. لم أرَه يوماً منهمكاً كتلك المرة. لكنّ أبو العباس كان فقط يومئ برأسه من دون أن ينبس بكلمة واحدة. كنت أرى في عينيه تشكيكاً في كل ما سمع.

على طريق العودة إلى المنزل، قال لي أبو العباس: «إمّا أنه يكذب، أو أنهم

هم (الأميركيين والإسرائيليين) يكذبون عليه. هل يمكن أن يكون ما قاله صحيحاً؟ هل حقاً سيعيدون إلينا كل ما أشار إليه؟ لم أثق بهم في حياتي، ولا يمكنني أن أثق بهم اليوم». كان يؤمن بأنّ السلطة الوطنية الفلسطينية وكل ما حازته من تنميقات الدولة كالعلم والأمن الوطني والحكومة داخل فلسطين المقتطعة هو مجرد خداع بصري.

العثور على عمل

بعد اتفاق أوسلو لم يبقَ لأبو العباس أي مهمات عسكرية ليقوم بها، وهاهو اليوم بعد أن قضى كل حياته محارباً لا يهاب الموت يتحول إلى طرف صامت في مشروع أوسلو الذي عدّه جزءاً من القدر. بعد عام ١٩٩٣ وجد أبو العباس نفسه يعيش أيامه من دون أي هدف وعمل يقوم به. كان واثقاً من أن اتفاقيات أوسلو أبعد بكثير من أن تكون حقيقية، ولذلك لم يفقد إيمانه يوماً بمجيء ذلك اليوم الذي سيشهد عودة الحراك العسكري إلى الساحة. واستمر في تلك الفترة بالذهاب إلى مكتبه بانتظام ولقاء رفاقه وقراءة الصحف اليومية والتحسّر على ما آل إليه الحال في العراق وفلسطين.

ولا بد أن نشير إلى أن أبو العباس كان مسؤولاً عن عناصر جبهة التحرير الفلسطينية الذين كانوا نحو ٢٠٠ عنصر في بغداد، ومثلهم أو أقل في لبنان وتونس. عاد بعض منهم إلى فلسطين بعد توقيع أوسلو. وفي ظل تلك العقوبات على العراق مرّت الأيام عصيبة على أبو العباس وعناصر جبهته. ومع انقطاع التمويل من منظمة التحرير الفلسطينية، بات القحط من

نصيبنا، والفضل في ذلك يعود إلى صدام حسين وقراره في اجتياح الكويت الذي أدى إلى فرض تلك العقوبات على بلاده، وأصاب اقتصادها بالشلل، وبالتالي لم يعد صدام قادراً على تعويضنا.

سمح العراقيون لعناصر جبهة التحرير الفلسطينية بتأسيس أعمال لهم في العراق، وأسهم أبو العباس في تنظيم بعض الأعمال الصغيرة في بغداد ومدن عراقية أخرى، لكنه لم يكن يمتلك شخصية أو عقلية رجل الأعمال، كذلك انخفض طلب المستهلك إلى الصفر بسبب العقوبات في تلك السنوات. وبالرغم من أنّ بعض تلك الأعمال شهدت ازدهاراً قصيراً، إلا أنها فشلت في النهاية.

وحاولت الاستخبارات العراقية تقديم مساعدتها لأبو العباس، وأعطته قطعة أرض ليزرعها. وبالفعل، بدأ أبو العباس يقضي وقته في تلك المزرعة، حيث زرع فيها أنواع الخضر التي ملأت مائدتنا، ووزع منها على رفاقه في الجبهة. وبدأت هذه المزرعة تتحول إلى هوس بالنسبة إليه... ولكنها لم تكن النداء الوحيد. كان الكلب روكي إلى جانب أبو العباس مرافقاً دائماً له. خلال النزهات في شارع أبو نواس، على ضفاف النهر كان روكي يمشي مع سيده، وكثيراً ما رافقه إلى عمله حيث اعتاد الجلوس بجانب مكتبه، ولطالما كان العين التي تحرس المزرعة لدى انهماك أبو العباس في تقليب تربتها.

يعيد اسم روكي إلى ذاكرتنا ذلك الملاكم المحترف الذي أخرجته هوليوود، ذلك الرجل البسيط المنحدر من طبقات المجتمع المتوسطة، الذي تمكن بقوة إرادته ورغبته الجامحة من تحقيق نجاح باهر. وبعد مرور سنوات على

أول فوز له وغيابه عن حلبة الملاكمة، عاد ليفاجئ الجميع بجولات من الفوز حققها واحدة تلو الأخرى. كان اسم كلبنا يرمز تماماً إلى أنّ جميع تلك اللكمات والضربات التي تلقاها أبو العباس في مسيرة حياته، ففشلت في هزمه. فقلب المحارب لا يزال ينبض بالحياة، وروحه تبحث عن سبيل لإحداث التغيير.

عرفات يدعو لانعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في غزة، ١٩٩٦

وأخيراً عاد أبو العباس إلى الحياة العملية بقرار عرفات الداعي إلى عقد الجلسة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني في غزة، بعد توقيع اتفاقية أوسلو الثانية عام ١٩٩٣. كان المجلس مؤلفاً من أربعمئة مندوب ممن شكّلوا منظمة التحرير الفلسطينية. رفضت بعض الشخصيات الفلسطينية البارزة حضور الجلسة مثل فاروق القدومي، مبرراً أن حضوره يعني اعترافاً بشرعية أوسلو الذي كان يعتبره تنازلاً كبيراً لإسرائيل. كذلك فإنّ الكثير من شخصيات منظمة التحرير الفلسطينية كانت قد قضت نحبها في ذلك الوقت، فمنهم من طاولته يد إسرائيل الغادرة أو حلفائها مثل أبو جهاد (خليل الوزير) وأبو إياد (صديق والدي) وكمال عدوان وأبو حسن سلامة (الذي خطط لعملية ميونيخ). وهناك آخرون لم يتمكنوا من الحضور، مثل زوجي أبو العباس ومحمد عودة (أبو داوود)، وذلك بسبب فيتو صادر عن إسرائيل.

كان أبو داوود العقل المدبر لعملية ميونيخ عام ١٩٧٢، بالإضافة إلى كونه عضواً في منظمة أيلول الأسود التي برزت إثر نشوب الحرب مع الأردن عام ١٩٧٠. كان زوجي وأبو داوود يتربعان على رأس قائمة المطلوبين لدى

إسرائيل. ولكنّ عرفات اعترض على ذلك الفيتو، حيث قال للأميركيين: «إذا كنتم تريدون مني نشر سلطتي في الداخل الفلسطيني، إذا كنتم حقاً تريدون منّي ذلك، فأنا بحاجة لهذين الرجلين، أنا بحاجة لأبو العباس وأبو داوود إلى جانبي. لو أراد أبو العباس إفشالنا، فإن أوسلو لن يمرّ. أنا بحاجة شديدة لوجوده في المجلس الوطني الفلسطيني». وبالنتيجة، وتحت ضغط أميركي، رفعت إسرائيل الفيتو، وسُمح لأبو العباس للمرة الأولى في حياته بالعودة إلى وطنه الأم فلسطين. لن يعود إليها ثائراً شاباً أو قائداً عسكرياً، بل سياسيّاً وعضواً في البرلمان الفلسطيني. من المؤكد أن تلك كانت نقلة نوعية وصعبة بالنسبة إلى أبو العباس.

أبو العباس يزور غزّة، ١٩٩٦

مع استعداده للسفر إلى غزة لحضور جلسة المجلس الوطني الفلسطيني، كان أبو العباس متوتراً وقلقاً للغاية. كان يدخن كثيراً لكنه كان متحمساً جداً. بالرغم من أنّه كان قد وُلد في مخيم للاجئين في سورية بعد نزوح عائلته من فلسطين عام ١٩٤٨، إلا أنّ تعلّقه كان أبداً بتراب وطنه المفقود، وبالتالي كان يشعر بالخوف. كان السفر إلى فلسطين بالنسبة إليه يعني إنزال صورة فلسطين الخيالية عن حائط أحلامه واستبدالها بصورة فلسطين الحقيقية الواقعيّة. كان قلبه يرتجف خوفاً، فيا ترى كيف هو شكل هذا الوطن الذي أحبه بجنون؟ كانت فلسطين التي عاد إليها أبو العباس عام ١٩٩٦ لا تشبه أبداً تلك التي تركها والداه عام ١٩٤٨. كانت تبدو صغيرة، ولربما أكسبها واقعها الملموس صلابةً وبأساً، ولكنها كانت تفتقر إلى الاتساع الرحب الذي تملّك أحلامه على مدى خمسين عاماً خلت.

كان أبو العباس على مر السنوات يطلب من الأهالي التقاط صور لبلدته الأم طيرة حيفا في جبل الكرمل وإرسالها إليه، وكان ذلك يكلّفه الكثير من المال، إلا أنه كان دوماً يدفع وهو في قمة السعادة. وكان يقضي الساعات الطوال في رصف تلك الصور، بعضها إلى جانب بعض، كقطع اللغز، محاولاً خلق صورة بانورامية للمنظر الطبيعي للمكان. كان يحفظ مكان كل شجرة وشرفة وكل زاوية من زوايا الطرقات. كان مجرد تمرين نفسي لإقناع نفسه بأنه موجود في فلسطين. في الواقع كان أبو العباس يحلم بعودة بطوليّة إلى وطنه. ولكنه لم يتخيل يوماً أن تكون عودته ناجمة عن مخاض كاتفاق أوسلو. كان عائداً إلى فلسطين وأغلال الإرادة الإسرائيلية تقيّده. كانت العودة التي تتوق إليها روحه مختلفة كليّاً عن هذه العودة، فقد كان يرى نفسه يمشي في شوارع فلسطين محررة كفارس مرتدٍ درعه وسط حشود من النساء والأطفال المهللة له على جانبي الطريق. هذه الصورة التصقت بخياله من خلال قراءاته عن الناصر صلاح الدين، ذلك القائد العظيم الذي قاد جيوش المسلمين وألحق الهزيمة بالصليبيين ومشى في شوارع القدس.

ولكن خلافاً لصلاح الدين، كان أبو العباس مجبراً على الوقوف على نقاط تفتيش تقيمها عناصر قوات الدفاع الإسرائيلي ويرفرف فوقها علم إسرائيل. وكان عليه أيضاً وسم وثائقه بالأختام الإسرائيلية ليتمكن من ولوج أرضه ووطنه. وفوق كل هذا وذاك، لم يكن مسموحاً له بزيارة قريته ومسقط رأسه الواقعة بالقرب من مدينة حيفا، ولا حتى العودة إلى مدينة القدس التاريخية أو حيفا أو عكّا. كانت خطوط تلك العودة تنحصر بقطاع غزة فقط، حيث سُمح له بالمكوث فيها خلال فترة انعقاد جلسة المجلس الوطني الفلسطيني، تماماً كما لو كان يسافر بتأشيرة سياحية تحَدَّدُ فيها

المناطق المسموح له التنقل ضمنها. أقل ما يمكن قوله عن تلك القيود إنها مؤلمة، ولكن برغم ذلك، ألقى بها أبو العباس خلف ظهره ووضع نصب عينيه فكرة أنه أصبح قادراً لأول مرة في الحياة على وطء أرض فلسطين.

قناة السي إن إن تجري لقاءً مع أبو العباس
غزّة ١٠ آيار ١٩٩٦

نقل مراسل سي إن إن، روب رينولدز، أن الزمان تغيّر بالنسبة إلى أبو العباس، وأنه يعمل على إسداء النصح بالتوجه نحو إرساء سلام دائم في الشرق الأوسط... إنه اليوم يقضي أيامه متنقلاً من اجتماع لاجتماع، ويتناول طعام الغداء مع مسؤولي السلطة الفلسطينية الوطنية الجدد حيث يتواصل معهم ويصغي إليهم ويقدم الاقتراحات... هو يقول اليوم إنّ زمن النزاع المسلح انتهى، ولكن النزاع نفسه لم ينته. إن الغاية من النزاع المسلح ليست القتل ببساطة... بل تحقيق هدف سياسي.

الفصل الرابع عشر

الرحلة الأخيرة إلى فلسطين

فلسطين، حزيران، ٢٠٠٠

في أواخر شهر حزيران ذهبتُ أنا وأبو العباس في رحلة إلى فلسطين. كانت محادثات كامب ديفيد ستبدأ في الحادي عشر من تموز، لم نكن نعلم أنّ المحادثات ستفشل في الخامس والعشرين من تموز، وأنّ إسرائيل ستسحب الفيزا التي تخوّل أبو العباس السفر إلى فلسطين. كانت تلك زيارته الأخيرة إلى فلسطين، وآخر مرّة يرى فيها وطنه العزيز إلى قلبه. كانت رحلة الوداع الأخير، وكانت آخر مشوار لنا معاً. في تلك الرحلة طفنا في جميع أرجاء المدن الفلسطينية التاريخية، كالقدس وحيفا ورام الله ونابلس وجبل الكرمل حيث تقع طيرة حيفا قرية أبو العباس. كانت رحلة اكتشاف لذاتنا وآلامنا ووداعنا.

أربع وعشرون ساعة على الطريق، ٢٠٠٠

خلال أربع وعشرين ساعة زرنا كل تلك الأماكن بصحبة الأصدقاء وولدنا علي الذي كان في الرابعة عشرة من عمره، حيث تلقّى خلالها دروساً في التاريخ والجغرافيا والسياسة الفلسطينية. وعلى طريق العودة، لم يكن ثمّة نقاط تفتيش أو حواجز إسمنتية تفصل المدن الفلسطينية عن الإسرائيلية. كنّا نعبر نقاط التفتيش من دون أن يُطلب إلينا النزول فيها، ونلمح جنود الجيش الإسرائيلي المنتشرين هنا وهناك ببنادقهم وعيونهم المحدِّقة بنا. نحن أيضاً كنا ننظر إليهم شزراً، ونشعر بالقرف من وجودهم على أرضنا من دون أن يكون باليد حيلة، فنحن عاجزون عن فعل أي شيء للتخلص من وجودهم ذاك. كانوا شبّاناً في ريعان الصبا، ومن الواضح أنهم لم يكملوا العشرين بعد. كانوا في عمر شبّاننا الذين عُيِّنوا في مقرّ المجلس الوطني الفلسطيني في مدينتي غزة ورام الله.

بالنسبة إلى أبو العباس، كان غارقاً في التأمل في تلك الرحلة، فوميض عينيه المنطفئ يومئ بآلاف الأفكار التي كانت تجتاح مخيلته. تراه بماذا كان يفكر؟ هل كان يفكر بحياته؟ بقضيته؟ بإرثه التاريخي؟ أم بالمستقبل؟ في تلك السنوات التي تلت مدريد وأوسلو، كنا نعيش فصلاً جديداً تماماً في تاريخ القضية الفلسطينية، وكان أبو العباس كارهاً له، فهو لم يصدق يوماً أنّ فكرة «السيادة الفلسطينية واستقلال فلسطين» موجودة في أذهان صانعي القرار من الإسرائيليين في تل أبيب، وهذا بالفعل ما تبيّن لاحقاً، والفضل يعود بذلك إلى آرييل شارون، حيث انهارت اتفاقات أوسلو بعد ستّ سنوات فقط من رجوع عرفات إلى غزة من

تونس، وبعد شهرين من رحلتنا التي دامت أربعاً وعشرين ساعة في شوارع فلسطين.

في تلك الرحلة أدركتُ أننا نحن العائلات الفلسطينية التي عاشت خارج الأرض المحتلة لم نفكر يوماً بإخواننا الذين كانوا يعيشون على تلك الأرض، وفي غزّة تحديداً. كان يجب علينا دخول تلك المدينة بتواضع كبير وبما يتناسب وبساطة قاطنيها، وليس دخول المتفاخر وكأنه هو من حررها وراح يتبختر في شوارعها ملقياً بتحيات سريعة على أهلها. في الواقع، نحن لم «نحرر» غزة. أولئك المسؤولون الفلسطينيون الذين تدفقوا إلى غزة من تونس والأردن والعراق ولبنان وسورية وصلوا إليها بجيوب مليئة بالمال حيث اشتروا فيلات واسعة مريحة لعائلاتهم التي لم تنتقل للعيش في تلك المدينة، وبقيت تلك الفيلات خالية في أغلب الأوقات. اعتاد مسؤولو منظمة التحرير الفلسطينية زيارة غزة لحضور اجتماعات المجلس الفلسطيني أو لقضاء عطلة الصيف على الشاطئ، ولكن قلّة منهم استقرّ فيها. كانت غزة مزدحمة سكانيّاً وتعاني تردياً في خدمات الرعاية الصحية، حيث كانت جائحات الأوبئة والأمراض تفتك بالأهالي على نحو متكرر، وكانت تفتقر إلى البنى التحتية، ولم يُسهم المسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية إلا ما ندر في تطويرها، ولم يحركوا ساكناً لتحسين ظروف الحياة في المدينة بأيّ بشكل من الأشكال. كانوا يطلقون سلطتهم من برجهم العالي بدلاً من إطلاقها من قلب شوارع المدينة. وعلاوة على ذلك، كانوا يوظفون شباب غزة كسائقين وحرّاس شخصيين لهم، ويفضلون تشغيل الأولاد على إرسالهم إلى مكانهم الطبيعي على مقاعد الدراسة في المدرسة أو الجامعة. كان أولئك المسؤولون يتصرفون كالملوك وينتظرون من الشباب

الغزّاوي تقديم فروض الطاعة لهم. ربما كانوا يعتقدون أنّ هذا أقلّ ما يمكن أن يحصلوا عليه لقاء شقائهم ومعاناتهم في دول الشتات في سبيل «تحرير» فلسطين. من وجهة نظري، كان أبناء غزة ممن صمدوا فيها ولم يغادروا بيوتهم وأرضهم وتحملوا كل الفقر والبؤس وقهر الاحتلال اليومي، هم أبطال القضية الفلسطينية الحقيقيون.

كانت البقعة الأكثر إشراقاً في رحلتنا طبعاً هي زيارة جبل الكرمل الواقع على الساحل الشمالي لفلسطين. عثر علماء الآثار في مواقع مختلفة من جبل الكرمل على أنواع معتّقة وقديمة من الخمور ومعاصر زيتون تعود إلى عصور سالفة من الزمن، وحولت إسرائيل تلك المواقع إلى سياحية نظراً لقربها من حيفا الواقعة على المنحدر الشمالي للجبل. يتدرّج عرض جبل الكرمل من ٦ إلى ٨ كم، ويأخذ شكل مثلث، رأسه في الشمال الغربي وقاعدته في الجنوب الشرقي. أمّا مدينة أبو العباس ومسقط رأسه، طيرة حيفا أو الطيرة، فتقع على بعد ٧ كلم من مدينة حيفا. في الكتب الحديثة يرد اسم هذه المدينة الفلسطينية «الطيرة» مترافقاً بالفعل «كانت» (أي: كانت الطيرة مدينة فلسطينية)، ولكن بالنسبة لي ولأبو العباس، كانت ولا تزال وستبقى إلى الأبد «مدينة فلسطينية». تتألف الطيرة من خمس خربات (مفردها خربة) مثل خربة الداير حيث توجد آثار دير القديس بروكاردوس. تعرضت مدينة حيفا لاعتداء من قوات الهاغانا في ٢١ نيسان ١٩٤٨ لتقديمها الدعم اللوجستي والعسكري للمقاتلين الفلسطينيين في المدينة. في ٢٥ نيسان أمطر الصهاينة المدينة بالقذائف، فأجبر المدنيون من سكانها الأصليين على الهرب والنزوح منها، وفي شهر تموز احتلها الإسرائيليون. وفي شهر شباط من العام التالي (١٩٤٩) هُجِّر من بقي من سكانها الأصليين بكل

وحشيّة، وأُسكن مكانهم ألفا مستوطن يهودي تدفقوا من جميع أصقاع أوروبا. خلال تجوالنا في الطيرة، استرعى انتباهنا كوخ صغير في شارع ضيق على بعد بضعة أمتار من شجرتين ضخمتين متشابكتين عرّفتا أبو العباس إلى مكان منزل عائلته، وذلك من خلال الصور التي جمعها لمدينته في سنوات طويلة. كان جلياً أنّ تلك الشجرات زُرعت قبل زمن طويل من زرع الكيان الإسرائيلي. وسط تلك البقعة المليئة بركام القمامة والحشرات وبضع دجاجات هزيلات قذرة، كان يسكن كلاد، اليهودي الإسرائيلي المتعصّب. كان كلاد بثيابه السوداء وخصلات شعره الطويلة يعكس شخصية اليهودي النمطي الذي اعتدنا رؤيته لسنوات طويلة، ولكن يبدو أنّ السنين قست عليه وحفرت التجاعيد عميقاً على وجنتيه ورقبته. اجتزنا الطريق صعوداً لنصل إليه ونسأله عن الاتجاهات، وطبعاً حادثه أبو العباس بلكنة عراقية ما إن وقعت في سمع الرجل حتى برقت عيناه، وسأل: «أنت... من العراق يا سيدي؟»، أومأ أبو العباس إيجاباً، مستغرباً من تمييز اليهودي للهجة العراقية الخشنة. وبكل فخر ضرب الرجل اليهودي على صدره، وقال: «أنا أصلي من الموصل». كان نسيج المجتمع اليهودي في الموصل يتألف بأغلبيته من العمال وأصحاب المتاجر مع بعض التجار كحالة استثنائية، وكان تعدادهم نحو أربعة آلاف هاجروا جميعاً إلى إسرائيل عام ١٩٥١. كان حنين الرجل إلى مدينته الأم الموصل، حيث قضى أيام طفولته، يعتلج في صدره، ولكنه لا يملك اليوم سوى ذكريات محببة عن العراق. من الواضح أنّ العراق يعني له أكثر بكثير من تلك البؤرة القذرة التي انتهى إليها في قلب إسرائيل. وانهال بلهجة عراقية طبعاً يسأل عن الموصل وأحوالها وعن أدقّ التفاصيل فيها، وأبو العباس يجيب ويطرح

هو الآخر أسئلة مفصّلة عن مدينته الأم الطيرة. أيٌّ رابط هذا الذي يؤلف بين رجلين غريبين ومن أصول مختلفة ليشدهما إلى تذكير أحدهما الآخر بما مضى من الزمان؟! كيف يحدث أن يلتقي فلسطيني سئم الحياة في العراق وطفح قلبه بحنين العودة إلى فلسطينه، مع إسرائيلي يهودي سئم الحياة في فلسطين وطفح قلبه بحنين العودة إلى عراقه. لقد دفع كل منهما ثمن أقدار فرضتها الحياة على كليهما.

اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية

فلسطين ٢٨ أيلول ٢٠٠٠

بعد فترة قصيرة من عودتنا إلى بغداد، وتحديداً في أواخر شهر أيلول لعام ٢٠٠٠، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية في القدس التي أشعلت فتيلها هذه المرة زيارة آرييل شارون الاستفزازية للمسجد الأقصى، وسط زعم الإسرائيليين أنها كانت مجرّد حجة استخدمها عرفات لإطلاق احتجاجات شعر بأنها ستجذب من جديد انتباه العالم للفلسطينيين وتحقق لهم مكاسب.

وبعد مرور بضعة أشهر، توضحت الصورة، وتبيّن أن اقتحام شارون للأقصى كان بهدف كسب الانتخابات والوصول إلى منصب الرئاسة في مجلس الوزراء الإسرائيلي.

كانت الانتفاضة الفلسطينية الثانية تكراراً لسابقتها عام ١٩٨٧، لكن من دون أن يكون لأبو العباس أو حتى لعرفات يد في ما يحدث في قلب الأراضي المحتلة، لأن مسلحي حماس هم الذين كانوا يسيطرون على الشوارع يومها. وبعد فترة قصيرة من اندلاع تلك الاحتجاجات فرض شارون حظراً على

تحركات عرفات وحصرها بمقارّ السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية ورام الله. لكن الانتفاضة الفلسطينية الثانية فشلت في تحريك عقل المجتمع الدولي وقلبه، وذلك لأنّ المكوّن الرئيسي لها كان العنصر الإسلامي المسلّح، بينما كان في الانتفاضة الأولى الشاب الفلسطيني الأعزل الذي جابه الدبابات بصدور عارية وحجارة في الأيدي.

الفصل الخامس عشر

حرب العراق

صراع الشرق الأوسط يمتد إلى أميركا

نيويورك وواشنطن ١١ أيلول ٢٠٠١ هجمات الحادي عشر من أيلول

بعد عام واحد على بدء الانتفاضة الثانية، ضربت هجمات الحادي عشر من أيلول المروّعة برجي مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك حيث أدى اختراق طائرات مختطفة مليئة بالركاب إلى تسوية البرجين بالأرض.

أكثر من ثلاثة آلاف شخص لقوا مصرعهم في ذلك الاعتداء المخزي الذي خطط له وعمل على تنفيذه أسامة بن لادن، ذلك العربي المسلم الذي لا يمتّ بصلة إلى العروبة ولا إلى الإسلام. لقد قام بن لادن بسرقة الهوية العربية والإسلامية وارتكب جريمته باسمها.

ومنذ ذلك اليوم، بدأ ما يسمى الإسلام السياسي في الشرق الأوسط، يشكل محوراً جديداً للنزاع بين الشرق والغرب في المنطقة وفي الولايات المتحدة نفسها أيضاً. ولكن بالرغم من أنّ تحديّات الإسلام السياسي برزت للعلن في ذلك الوقت إلا أنها تعود بجذورها إلى مشكلة جوهرية تنامت على مدى ثلاثة وخمسين عاماً، هي: الفشل في إيجاد حل منصف لنكبة عام ١٩٤٨.

حزب البعث العراقي

كان صدام حسين ينتمي إلى حزب البعث، لا إلى التيارات الإسلامية، والإسلام كمنهج سياسي يشكل أكبر تهديد لسلطته إذا استبعدنا احتمال عودة الماضي إلى واجهة الحدث بقوة. في هذه الفئة نعد خصمه اللدود إيران والغالبية الشيعيّة التي تمكّن صدام من قمعها في جنوب البلاد إثر انسحابه من الكويت عام ١٩٩١. وهناك أيضاً الغالبية الكردية في الشمال التي تمكن صدام منها باستخدام السلاح الكيميائي وسحق تمردها عام ١٩٩١.

ليس ثمّة ما يربط حزب البعث بالفكر الإسلامي، فحزب البعث حزب علماني وسياسي أسسه ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار ممن قدموا مثالاً لأبو العباس أيام شبابه في دمشق وعززوا لديه فكرة أنّ السياسة يمكن أن تكون مهنة. كان عفلق مسيحيّاً أرثوذكسياً وبيطار مسلماً سنّيّاً، ولكنّ كليهما ينتمي إلى الطبقة الدمشقية الوسطى التي يعمل أبناؤها في تجارة الحبوب. تلقى عفلق والبيطار دراستهما في فرنسا، وتميّزا بفكرهما الفلسفيّ. كان الفكر البعثيّ الذي طوراه ينادي بالاشتراكية والوحدة بين أبناء الوطن العربي. إذاً، أين كان الإسلام؟ كان الإسلام مجرد ثقافة مشتركة بين شعوب

المنطقة على اختلاف طوائفهم وخلفياتهم الدينية. كانت أيديولوجية الحزب تقوم على أساس القومية العربية ما يعني تعزيز علمانية الدولة والعمل على استصلاح الأراضي ورفع شأن المرأة وتمكينها في ميادين العمل والمناصب السياسية ودعم إسهام الأقليات والفقراء في الاقتصاد الوطني.

عندما كان صدام الرجل الثاني في السلطة العراقية إلى جانب قريبه الرئيس أحمد حسن البكر، عمل حزب البعث منذ بداية عام ١٩٦٨ وعلى مدى عشر سنوات على تطبيق معايير تجسّد الاشتراكية التي ينادي بها البعث على أرض الواقع، حيث قام بتأميم صناعة النفط العراقي ووزع عائدات النفط لتصل إلى كل فرد حصة جيدة منها. وعمل على تهميش اثنتين من الدوائر السياسية المسيطرة التي كانت الأولى تضم الطبقة العراقية الأرستقراطية التي تعود أصولها إلى العائلة الملكيّة، أما الثانية فكانت المساجد. وإلى جانب ذلك، أفسح مجالاً لخلق قاعدة علمانية تضم العائلات العادية التي تمثل الطبقة الوسطى في المجتمع العراقي. وفي خطوة استباقية مفاجئة لتوجيه البلاد نحو الحداثة، جعل صدام التعليم مجانيّاً حتى المرحلة الجامعيّة، ودعم قطاع الزراعة إلى جانب توزيع الأراضي على المزارعين، وأعاد بناء البنى التحتية للعراق، إضافة إلى إعطاء المرأة حقوقها في دخول ميادين العمل المهنيّ والحكومي. لا بد أن نشير هنا إلى أن سورية والجزائر قامتا ببعض تلك الخطوات، ولكن بفارق واحد، هو افتقارهما إلى الثروة التي تدرّها العائدات النفطية على العراق، والتي مكّنت صدام من تحقيق ما لم تكن أي دولة عربية أخرى قادرة على تحقيقه. وهو يستحق وساماً على حسن إدارة ثروة بلاده بما فيه خيرها ورفاهها. لكن صدام مارس سياسات أسهمت في نزوع العراق نحو الانقسام نتيجة الفروقات

الطائفية والعشائرية التي تسوده. وقام بالنتيجة بتدعيم قاعدة سياسيّة أسس عليها حكمه.

بالرغم من تقدير صدام الرفيع لميشيل عفلق كمؤسس للفكر البعثي، إلا أنه كان يشعر بضعف إزاء ردود أفعال الإسلاميين، لكون الأيديولوجية البعثية ذات منشأ مسيحي، وربما كان هذا السبب الذي دفع صدام إلى التصريح إبّان إعلان وفاة عفلق أن هذا الأخير اعتنق الديانة الإسلامية، وهو على فراش الموت، ووصلت تلك الأخبار إلى مسامع أفراد عائلة عفلق الذين كانوا فعليّاً إلى جانبه لحظة وفاته في باريس عام ١٩٨٩. وقدّم صدام لعفلق المثوى الأخير الذي بُني على نسق المساجد في المنطقة الخضراء، ببغداد.

الحياة في شارع أبو نواس

كنا نتابع حياتنا في منزلنا بالقرب من شارع أبو نواس على نحو طبيعي، حيث أكمل الأولاد دراستهم، ومن ثمّ التحقوا بميدان العمل. يبدو أنه مع مرور الوقت، حتى أحبُّ الأولاد إلى قلوبنا يكبرون ويتحولون إلى حياتهم الخاصة. عاد ابنا أبو العباس من زواجه الأول، عمر وخالد، إلى كندا، بينما التحق ابني ريف بجامعة أنغلو أميركان في براغ، وتخرّج عام ١٩٩٨. أمّا لؤي، فقد التحق بالجامعة نفسها التي تخرّجت منها، الجامعة اللبنانية الأميركية لدراسة إدارة الأعمال، وتخرّج فيها عام ١٩٩٧، فيما درس علي في جامعة كونكورديا في كندا، وتخرّج في عام ٢٠٠٩.

وفي ميادين العمل، أصبح ريف مقاولاً في براغ. أمّا لؤي، فقد حذا حذو خاله وجدّه واتجه إلى قطاع المصارف. أما علي، فكان خلال مرحلة إعداد

هذا الكتاب لا يزال يتابع دراسته، بالإضافة إلى ممارسة هوايته في تأليف مقطوعات من موسيقى الراب التي تتغنى بحياة أبيه.

مع مرور الأيّام، تغيّرت هيئة أبو العباس نتيجة الإكثار من الطعام والتدخين وقلّة ممارسة الرياضة إلى جانب تعاطيه الكثير من الكحول بسبب ضغوطات الحياة المفرطة. لكن مع كل هذا كانت جاذبيته في ازدياد. كان مولعاً جداً بأولاده، وكريماً معهم جميعاً. حضر أبو العباس حفل اجتياز المرحلة الثانوية لريف وخالد في بغداد، ولكنه لم يتمكن من حضور حفل لؤي، لأنه لم يكن مسموحاً له بالعودة إلى لبنان، ولم يتمكن من حضور حفل تخرجهم في الجامعة لأسباب مماثلة.

في بغداد كانت تحت تصرفنا سيارات عدة تعود ملكية بعض منها إلى جبهة التحرير الفلسطينية، والبعض الآخر كان منحة من الحكومة العراقية. وكان أبو العباس يهوى سيارات الدفع الرباعي، وكانت الرانج روفر هي المفضّلة لديه، أما أنا فكنت أقود سيارة من نوع تويوتا بيضاء موديل عام ١٩٩٤.

بحلول عام ٢٠٠١، وفّر لنا صدام أحدث أنواع التكنولوجيا من خلال تقديم هواتف ثريا لأبو العباس وتركيب شبكة إنترنت متكاملة تماماً كالتي قدمها صدام للمقربين منه. ولا بد أنّ نشير إلى أنّ الأنظمة العربية الديكتاتورية تأخرت كثيراً في استقدام شبكات الإنترنت إلى بلادها، ففي سورية كان الإنترنت محظوراً، آنذاك، لأنه يهدد الأمن القومي. وكان أيّ فرد سوري يخرق تعليمات الحكومة ويدخل على شبكات الإنترنت عبر الاتصال بشبكة لبنان، يتعرض لعقوبات تتلخص بإلغاء خطّه الهاتفي ودفع غرامة كبيرة، وإن أقدم على ذلك مرّة ثانية، يُعاقب بالسجن لفترة محددة.

كان عالم المعلومات يشكل تهديداً لأمن دول مثل سورية والعراق. ففي ظل حكومة صدام، لم يكن من المفروض أن يعرف الشعب العراقي أكثر مما يريده أبو عديّ أن يعرف، ولم يدخل الإنترنت بيوت العراقيين العاديين إلا بعد سقوط صدام عام ٢٠٠٣.

في الوقت الذي كان الإنترنت وسيلة لدى المسؤولين العراقيين لتبادل البريد الإلكتروني وإدارة النقاشات، كان أبو العباس مغرماً به كوسيلة للحصول على المعرفة. في الحقبة السابقة لوجود غوغل، كان الجيل الأول من محركات البحث مثل هوتبوت وألتافيزا وياهو يشغل حيّزاً من برنامج أبو العباس الصباحي، حيث كان يبحر وسط صفحات الصحافة الأميركية والإسرائيلية ويقضي الساعات الطوال للاطلاع على ما كتبته صحيفة معاريف أو هآرتس أو النيويورك تايمز.

وكان يحثني دوماً على استخدام الإنترنت، قائلاً: «لماذا لا تتعلمين استخدام الكمبيوتر؟ حاولي ذلك. إنه ليس بالصعوبة التي تتخيلين». في تلك الأيام، كنت أميّة تماماً بالنسبة إلى عالم الكمبيوتر. في الفترة التي سبقت الغزو الأميركي لأفغانستان، كان أبو العباس يقضي وقتاً أكثر من المعتاد وراء شاشة الكمبيوتر. كان يقرأ جميع التقارير والدراسات التي تنشرها المؤسسات الفكرية الأميركية والإسرائيلية على مواقعها الإلكترونية. وكان جلّ تركيزه ينحصر في شخصيات المحافظين الجدد الملتفين حول بوش، وعلى رأسهم بول وولفويتز. ومن خلال تلك القراءات، تمكن أبو العباس من التنبؤ بالأعمال العسكرية التي أقدمت عليها إدارة جورج دبليو بوش، وتأثير ذلك على منطقة الشرق الأوسط.

الولايات المتحدة تغزو أفغانستان

أفغانستان ٧ تشرين الأول ٢٠٠١ الولايات المتحدة تشنّ هجمات جويّة

استهدفت الولايات المتحدة مدن كابول وقندهار وجلال أباد الأفغانية في هجمات شنتها في خريف عام ٢٠٠١، وقبعنا بعدها أربعة عشر شهراً نترقب خطوة أميركا التالية التي كانت إدارة بوش تسعى إلى تحقيقها في سيناريو حربها على الإرهاب، وهي: غزو العراق.

في شهر أيلول من عام ٢٠٠٢، تقدّم جورج دبليو بوش إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بجدلية ارتباط صدام حسين بتنظيم القاعدة وتطويره لأسلحة الدمار الشامل. وعلى أثر ذلك، أصدر مجلس الأمن القرار رقم ١٤٤١ القاضي بالسماح بمتابعة عمليات التفتيش عن تلك الأسلحة والتهديد «بعواقب وخيمة» في حال عدم الإذعان. في ذلك الوقت، اعتبرت كل من فرنسا وروسيا، العضوين الدائمين في مجلس الأمن، أنّ كلمة «عواقب» لا تشمل استخدام القوة ضد الحكومة العراقية، كذلك قال المندوب الأميركي في الأمم المتحدة جون نيغروبونتي، إن قرار مجلس الأمن «ليس له دوافع خفيّة» للغزو. بالطبع، أقلّ ما يمكن قوله إنّ السفير الأميركي كان يكذب إزاء ما سطّره التاريخ للعراق بعد ذلك.

في شباط ٢٠٠٣، أعلنت الوكالة الدوليّة للطاقة الذرّيّة أنها لم تعثر على «أي دليل» على وجود برنامج لتطوير الأسلحة النووية في العراق. وفي الشهر ذاته، في الجمعية العمومية لمجلس الأمن، حاول وزير الخارجية

الأميركي كولن باول الفوز بدعم الأمم المتحدة لغزو العراق، حيث أبرز صوراً لما سمّاه «مختبر متنقل للأسلحة البيولوجية». وفي منتصف شهر شباط، أثناء إرسال الولايات المتحدة مواد لإرساء منصات إطلاق في الكويت، اندلعت تظاهرات احتجاجية مناهضة للحرب في أكثر من ٨٠٠ مدينة حول العالم، حتى إن أعداد المحتجّين وصلت ما يقارب ستة إلى عشرة ملايين شخص. وهذا الرقم، وفقاً لكتاب غينيس للأرقام القياسية، «أعلى رقم لأعداد المحتجّين في تاريخ البشرية». لكنّ جورج بوش ــ ببساطة ــ تجاهلهم تماماً، وتابع عمليات التعبئة والحشد بالتعاون مع كل من المملكة المتحدة وإسبانيا وأستراليا وبولندا والدنمارك وإيطاليا.

في السابع عشر من شهر آذار، منح بوش كلاً من صدام وولديه عديّ وقصي مهلة ثمانية وأربعين ساعة للاستسلام ومغادرة العراق. لكنّ صدام الذي يفوق الرئيس الأميركي عناداً رفض التزحزح من مكانه.

عرض الرئيس الإماراتي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «رحمه الله» على صدام اللجوء في أبو ظبي، لكن صدام لم يكن يتمتع بالحكمة أو الشجاعة لقبول ذلك. ولا بد أنّ العالم بأسره يذكر تصريحاته العنيفة التي تحدى في أحدها بوش قائلاً: «لنرَ من سيسقط أولاً!».

لماذا تقدم الولايات المتحدة على تقوية إيران من خلال اعتدائها على العراق؟ ألم تكن الولايات المتحدة تخشى أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة؟ لم يصدّق صدام أنّ الأميركيين سينفذون تهديداتهم. ما زلتُ أذكر حديثاً دار قبل بضعة أسابيع من عملية الغزو بيني وبين أحد الأصدقاء الأكراد

الذي كان يعمل في جهاز الاستخبارات العراقية، عندما سألته: «كيف هو حال عمّنا (هكذا كنا نشير إلى صدام)؟ أطرق الرجل وبدا في حيرة من أمره وأجاب: «عمّنا يقضي وقته في العوجا (قرية صدام الواقعة في مدينة تكريت)، هناك نصب خيمة (على النمط العربي التقليدي)، حيث يستضيف العجائز ليقصصن عليه الحكايات القديمة والأساطير العراقية لينفجر بعدها ضحكاً».

كان صديقي الكردي يريد أن يقول إنّ صدام حسين كان منفصلاً عن الواقع، وليس لديه أدنى فكرة عمّا يحدث من حوله! ويمكننا القول إنّ صدام هو الشخص الوحيد في العراق الذي اعتقد أنّ رايات الحرب لا تلوح في الأفق، مع أنّ عجاج الماكينة العسكرية كان ينبئ بنذير تلك الحرب. كان كل من في بغداد يرى جليّاً ذلك، وكذلك كل من في المنطقة.

قبل عشر سنوات من ذلك الوقت، وتحديداً عندما أخرجت الولايات المتحدة جيش صدام من الكويت عام ١٩٩١، كان ذلك بقرار صادر عن الأمم المتحدة، سمح باستخدام العمل العسكري، ولكن اليوم في عام ٢٠٠٣ تنحّت الأمم المتحدة جانباً. كانت تلك الحرب صنيعة اثنين من المجانين: بوش وصدام، المغامران بمصير المنطقة وأرواح الملايين.

حرب العراق، ٢٠٠٣

قبل فترة قصيرة من بدء الحرب، وتحديداً في شباط ٢٠٠٣، سافرتُ إلى بيروت لتسجيل ابني علي في المدرسة وزيارة والدي الذي كانت صحته

تتدهور. كان ابني البكر لؤي يعمل بين بغداد وبيروت، بينما ريف يدير عملاً في جمهورية تشيكيا. أدرك أبو العباس أنّ بغداد لن تكون مكاناً آمناً. عبر جميع الحروب التي مرّت علينا، كان يصرّ دائماً على بقائي إلى جانبه ولكنه في تلك المرّة أعطاني رزمة من الأوراق وقال: «خذيهم معك يا ريم. ما بتعرفيش شو ممكن يصير». قلّبت تلك الأوراق بين يدي، وكانت عبارة عن شهادات ميلاد أبنائنا وأوراق ملكية عقارات وأوراق مصرفية وشهادات جامعية وجوازات سفر ووثائق تتعلق بزواجنا الذي كان قد مضى عليه عشرون عاماً. أثارت رزمة الأوراق تلك رجفة في جسدي، ودفعتني إلى السؤال: «ليش محمد عم تعطيني كل هالأوراق؟ هل هذا آخر يوم لنا معاً؟». ابتسم أبو العباس وقال: «لا حبيبتي». وعاد يؤكد كلامه قائلاً: «سنكون معاً في أقرب وقت. لكن من الأضمن أن تأخذيها معك إلى لبنان». ركبتُ في السيارة ودموعي تنهمر على وجهي، واتجهتُ إلى دمشق لآخذ من هناك سيارة تقلّني إلى بيروت. كانت تلك هي المرّة الأخيرة التي رأيتُ فيها زوجي.

كانت الطريق إلى دمشق مظلمة بشكل محزن، فلا أنوار في الطرق ولا إشارات، لدرجة أن سائقي سيارات الأجرة والشاحنات كانوا يعتمدون على ضوء القمر والنجوم في شقّ طريقهم الضيق الذي يصل بين عاصمتي أكبر الإمبراطوريات الإسلامية في التاريخ. كنتُ في العادة أتناول حبوباً منوِّمة لأقتل ساعات السفر الطويلة التي تصل إلى ثماني ساعات، ولكني في تلك السفرة أحجمت عن ذلك. لم أكن أريد النوم. جلست باعتدال في السيارة، وبدأ قلبي بالخفقان وأنا أشاهد المنحدرات والكثبان الرملية تمرّ أمامي واحدة تلو الأخرى. كنتُ أغادر تاركة

ورائي العراق: تلك البلاد التي كانت وطني على مدى سبعة عشر عاماً أو أقل بقليل.

نهرب أم نبقى

أرسل أبو العباس عائلته إلى مكان آمن لتخوفه من الغزو الأميركي الوشيك للعراق، ولكنّه لم يتخذ أبسط الإجراءات التي تضمن خروجه هو من تلك البلاد. كان بإمكان أبو العباس القيام بأمر واحد، هو الاتصال بأصدقائه القدامى من المتنفذين في السلطة السورية، أمثال غازي كنعان الذي كان في منصب يخوّله منح أبو العباس مكاناً آمناً. أو على الأقل كان بإمكانه الحصول على أرقام هواتفهم الحالية. وكان بإمكانه أيضاً التواصل مع شخصيات مقرّبة من حزب الله في بيروت، وأن يطلب منهم التوسط له لدى إيران لمنحه حق اللجوء السياسي فيها.

باعتقادي، لم يكن أبو العباس يرغب في أن تتحسّس استخبارات صدام أي إشارة إلى رغبته في القفز من المركب العراقي. وربما كان أبو العباس يعتقد أنّ الغزو الأميركي للعراق يحتاج شهرين مثلاً للنضج قبل المباشرة فيه، وبالتالي لا يزال لديه الوقت للمناورة في وقت يكون فيه صدام حسين وعناصره الاستخباراتية مشغولين بصمودهم واستمرارهم. وبتعبير آخر، يمكننا القول إن أبو العباس تفاجأ بالسرعة التي انهارت فيها وتبخرت قوات صدام قبل الغزو الأميركي وخلاله.

سبب آخر استدعى تردد أبو العباس في ضمان خروجه من العراق، هو وضعه القانوني الذي لم يترك له سبباً للهرب. فهو يتمتع بحصانة تمنع

محاسبته على أيّ عمل عسكري قام به قبل عام ١٩٩٣، والفضل طبعاً يعود إلى اتفاقات أوسلو. منذ توقيع الاتفاق كان أبو العباس بحكم المتقاعد عسكرياً وليس لدى الولايات المتحدة أي سبب لنشر مذكرة اعتقال بحقه. كان الحفاظ على إظهار الولاء الكامل لصدام وعدم وجود أي مسبب قانوني لاعتقاله سبباً كافياً من وجهة نظر أبو العباس لإحجامه عن إيجاد مخرج له من العراق.

وعلى ما أظن، كان السبب الأعمق لعدم رغبة أبو العباس في وضع خطة للهرب من العراق، هو إيمانه المطلق بصحة ما قام به من تكريس حياته لأجل القضية الفلسطينية، فقد كان مقتنعاً تماماً بأنه عاش حياةً مشرّفة ورغب في أن يعلم العالم بأسره بذلك. ليس أبو العباس من يهرب كرجل مطارد، فهو ليس مجرماً. لقد كان صاحب مبدأ، ولا بد أن عزة النفس أمر عظيم لديه، فهو يفضّل إسداء المعروف لغيره من دون أن يطلبه لنفسه. من المؤكد أنه لم يرغب في مدّ يده متوسلاً السوريين أو الإيرانيين الذين لا بد أنهم يدركون مكانته كمقاوم فلسطيني. وكان يعتقد أنّ مجرد ذكر اسمه على الحدود الإيرانية أو السورية سيكون كافياً للسماح له بالدخول.

عندما كان أبو العباس أستاذ مدرسة في دمشق، تعمّد الوصول متأخراً في أول يوم عمل له في المدرسة، وكان يحمل رزمة من الأوراق المليئة بكتابات سياسية حول قضيته فلسطين لتكون المبرر اليتيم لتأخره عن العمل. حتى في عمر الحادية والعشرين، كان يرغب في فرض احترامه كمدافع عن عدالة قضية فلسطين، ولم تستطع العقود الثلاثة التالية أن تغيّر من سلوكه ذاك إلا ما ندر.

رحلة إلى المجهول

القاهرة شباط ٢٠٠٣ اتصال هاتفي من مصر

وجهت الحكومة المصرية دعوة إلى أبو العباس لزيارة القاهرة، وذلك للتدخل كوسيط في الخلاف القائم بين مجموعة فتح ومجموعة حماس الإسلامية داخل الأراضي الفلسطينية. لطالما قال أبو العباس عن ذلك الخلاف «إنها المعركة الخطأ مع الخصم الخطأ. وبدلاً من أن تتناحر تلك الفصائل الفلسطينية في ما بينها، عليها أن تتناحر مع الإسرائيليين». كان أبو العباس يريد إخماد النيران المشتعلة على الأراضي الفلسطينية، فقد أدرك أن حلمه في تحقيق انتصار عسكري ساحق على إسرائيل قد ضاع منذ زمن بعيد. كان أكثر ما يمكنه تحقيقه هو إرساء السلام والاستقرار فوق الأراضي الفلسطينية. كان أبو العباس بارعاً على نحو استثنائي في لعب دور الوسيط بين الفصائل الفلسطينية، خاصة أنه العمل الثاني الذي كان أبو العباس ينتظر القيام به.

في تلك الفترة، كان عرفات في وضع صعب، حيث فرضت قوات الدفاع الإسرائيلية حصاراً عليه منعه من تخطي حدود مجمّعه في رام الله. قال رئيس الاستخبارات المصرية اللواء عمر سليمان لأبو العباس: «جميع الأطراف تثق بك وتحترمك أبو العباس. هذه هي مهمتك اليوم: المساعدة في تحقيق السلام في الداخل الفلسطيني».

أثلجت تلك الكلمات صدر أبو العباس لأنها كانت بمثابة أول تعاون، إنّ صح التعبير، بينه وبين نظام مبارك منذ حادثة أكيلي لاورو عام ١٩٨٥. في الواقع، كان أبو العباس قادراً على صياغة مصالحة بين طرفي النزاع، وذلك لما يتمتع به

من علاقات ممتازة مع محمد دحلان، قائد الأمن الوقائي في غزة والشيخ أحمد ياسين، الزعيم الروحي لحركة حماس. لكنّ هذا كله لم يغير من ظنّ أبو العباس بالرئيس مبارك، فهو ما زال لا يثق به كثيراً. وصدق ظنه تماماً، حيث طلبت السلطات المصرية من أبو العباس البقاء في القاهرة، وأعلمته بأنّ الوفود ستأتي من فلسطين تباعاً لعقد اجتماعات معه بإشراف الحكومة المصرية، ووافق أبو العباس على الفكرة، إلا أنّ إدارة بوش سارعت للاعتراض على مشاركته، وطلبت من مبارك إجهاض الفكرة برمتها. وبالنتيجة، عاد أبو العباس إلى بغداد قبل بضعة أسابيع فقط من الغزو الأميركي للعراق. يا ليد القدر! لو أنه مكث في ذلك الحين في القاهرة، لربما كان إلى جانبي اليوم.

القوات الأميركية تسيطر على العاصمة العراقية

بغداد ٩ نيسان ٢٠٠٣

بعد أربعة وعشرين يوماً على الغزو الأميركي للعراق، انهار جيش صدام حسين العظيم، وتمكنت القوات الأميركية من دخول بغداد. ألقى جنود صدام بسلاحهم أرضاً، وتخلوا عن مواقعهم، ونزعوا الزيّ العسكري عنهم، وارتدوا ملابس مدنيّة خشية الوقوع بأيدي القوات الأميركية، بينما هرب الرئيس العراقي مع عائلته من العاصمة حيث اختبأ في محافظة الأنبار، بينما زوجته وأولاده توجهوا إلى سورية. وفي دمشق، جُرِّد ابنا صدام عديّ وقصيّ من أموالهما وأُعيدا إلى العراق، حيث قُتلا في تموز عام ٢٠٠٣.

حوصر أبو العباس في بغداد مع مساعده بلال قاسم ومرافقه الشخصي محمد زيدان. أما رجال جبهة التحرير الفلسطينية، فقد أخذوا في حسابهم

أسوأ الاحتمالات، واستأجروا ثلاث شقق في مواقع مختلفة في العاصمة لإخفاء أسلحة الجبهة وملفاتها وتأمين الضباط المرموقين بعيداً عن الأنظار. وقبل أربع وعشرين ساعة من احتلال بغداد، نقل ضباط الجبهة أبو العباس إلى إحدى تلك الشقق الآمنة الواقعة ضمن بناء سكني في منطقة حديقة السعدون التي كانت على الأغلب بعيدة عن الشبهات. مكث أبو العباس في تلك الشقة ليلة واحدة من دون كهرباء، لأن الأميركيين أوقفوا شبكة الكهرباء عن العمل لتسهيل مهمتهم في القبض على صدام وأعوانه.

وصل محمد مرافق أبو العباس، وكان قريبه في الوقت نفسه، إلى الشقة لرؤيته، وأخبره قائلاً: «يا رفيق، لقد سقطت بغداد!». أطرق أبو العباس آسفاً، فقد كان يعلم أنّ الغزو آتٍ لا محالة، ولكنه لم يتوقع قطّ أن يسقط بلد برمته وعاصمته بالسرعة التي سقط فيها العراق وعاصمته بغداد.

أبو العباس يطلب اللجوء لدى إيران
الحدود الإيرانية ١٠ نيسان ٢٠٠٣

عند نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، حمل أبو العباس هاتفه الثريا وبعض المال ووثائق السفر اللازمة وخرج من الفيلا وأغلق الباب خلفه، تاركاً المفتاح مع الجيران، وتاركاً أيضاً العزيز روكي الذي أخذ ينبح وينتحب على مغادرة سيده من دونه. وما هي إلا بضع دقائق، حتى كان أبو العباس ومعه بلال قاسم ومحمد زيدان يغادرون على طريق بعقوبة الرئيسي المتجه نحو الشمال الشرقي عبر الضواحي والصحاري ليصل إلى محافظة ديالى. على طول الطريق المتعرج باتجاه الحدود الإيرانية، مرّ أبو العباس ورفيقاه بجانب

القوات الأميركية وناقلات جند مصفحة ودبابات على مقربة من نقاط الاشتباكات. كانت الجبهة الأميركية مقسّمة إلى وحدات صغيرة منتشرة تنفّذ عمليات تطهير. وسط هذه المعمعة، لم يطلب أحد إليهم التوقف. استحالت الأبنية على جانبي الطريق إلى أكوام من الركام، وانتشرت سحب الدخان فوق تلك القرى التي كانت مثالاً للسلام والهدوء. وحتى الشوارع لم تتوقف القنابل وقذائف الهاون عند تمزيقها وتخريبها، ملقيةً جثث القتلى على قارعتها لتتعفن تحت أشعة الشمس المحرقة من دون أنّ يجرؤ أيّ من العراقيين على المجازفة بحياته لنقلها ودفنها.

اجتاز أبو العباس ورفيقاه مدينة بعقوبة، وبعدها المقدادية، وصولاً إلى ضاحية خانقين، وقطعوا بعدها عشرة كيلومترات كاملة ليصلوا إلى نقطة حدودية بعد ظهر ذلك اليوم. لا شك أن سعي أبو العباس ورفيقيه للحصول على لجوء لدى جماعة الملّالي في طهران أمر يحمل مفارقة ساخرة، فهذا القيادي العلماني لم يكن معجباً بهؤلاء الأشخاص.

كان أبو العباس يحمل اثنين من هواتف الثريا الخلوية وعشرة آلاف دولار، بالإضافة إلى ثلاثة جوازات سفر، الأول للتعريف به كمسؤول في المجلس الفلسطيني الوطني، والثاني صادر عن مديرية الهجرة والجوازات العراقية يمنحه صفة مستشار، ولكن هذا الجواز كان قد تجاوز صلاحيته بثلاثة أيام، أمّا الجواز الثالث فكان جواز سفر يمني مزور باسم «خليل عبد الرحمن». من وجهة نظره المنطقيّة، ارتأى أبو العباس أن يرتدي العباءة العربية التقليدية التي ترتديها قبائل الشمال الشرقي من العراق، لأنّ هذا الزيّ مع إطالة لحيته سيجعل من السهولة بمكان الاختفاء وسط الصحراء

العراقيّة. كان محمد يحمل هو الآخر مبلغ ثلاثة آلاف دولار إضافية. لدى وصوله إلى الحدود العراقية، وزّع أبو العباس مبلغ ٢٥,٠٠٠ دينار عراقي (يعادل اليوم ٢٠ دولاراً أميركياً) على عناصر المفرزة الحدودية، مقابل ختم جوازه وجواز مرافقيه، وتمكنوا من عبور الحدود العراقية من دون أيّ عائق، ولكنّ المشكلة كانت على الحدود الإيرانية، حيث من الصعب تقديم الرشوة للعناصر الإيرانيين، إن لم يكن مستحيلاً. خلت النقطة الحدودية من أيٍّ عابر لقلّة أو لانعدام سفر العراقيين إلى إيران خلال الأسابيع الثلاثة التي تلت دخول القوات الأميركية إلى العراق، وذلك لأنّ طهران لم تلَمّح إلى أنها على استعداد لاستقبال أو حتى عبور أيٍّ من رجالات صدام. ولدى لقائهم بالضابط المسؤول، خاطبهم بلغته الفارسية، قائلاً: «لن تعبروا هذه الحدود. في هذه النقطة الحدودية أُوقف السفير السوداني في بغداد ومكث هنا ثلاثة أيام. وفي النهاية سمحنا له بالعبور فقط بعد تلقينا أوامر من وزارة الخارجية بالسماح له بذلك. خذوا جوازات سفركم وانطلقوا إلى سورية».

أدرك أبو العباس بحنكته وحكمته التي لطالما استخدمها في التخطيط لعملياته العسكرية أنّ أيّ تأخّر في مثل هذا الوضع الحساس الذي هم فيه ستكون عواقبه وخيمة جداً، وبالتالي استدار فوراً وقفل عائداً إلى العراق.

أبو العباس يتجه إلى سورية

العراق ـ بعقوبة ١١ نيسان ٢٠٠٣

بعد ساعتين كاملتين من الانطلاق نحو الجنوب الغربي، وصل أبو العباس إلى منزل أحد أصدقائه في مدينة بعقوبة التي تُعَدّ عاصمة محافظة

ديالى والتي تبعد ٥٠ كم عن العاصمة بغداد. أخذ أبو العباس قسطاً من الراحة، بينما أرسل رفاقه مرّة ثانية إلى الحدود الإيرانية لإجراء محاولة أخيرة لدخول إيران على أيدي بعض المهربين. لكنّ بلال ومحمد عادا مع حلول الظلام وقالا إنّ السفر إلى إيران مستحيل تماماً، لأنّ الألغام تنتشر فوق كل إنش على طول الحدود العراقية الإيرانية، حتى إنّ تاريخ بعضها يعود إلى ثمانينيات القرن العشرين. في منزل ذلك الصديق تناول الرجال طعامهم وانطلقوا بعد منتصف الليل باتجاه الشمال ليصلوا إلى الموصل مع نسمات البرد الصباحية، ومن ثمّ اتخذوا طريقهم شرقاً وإلى الشمال، متجهين إلى نقطة حدودية بعيدة على الحدود العراقية السورية.

سورية وخلافاً لإيران، رحّبت بالكثير من الضباط وصفّ الضباط العراقيين. وذكرت تقارير أنّ دمشق منحت اللجوء لزوجة صدام حسين ساجدة طلفاح وولديها، بالإضافة إلى نائب الرئيس عزة إبراهيم الدوري وعدد من الجنرالات العراقيين المرموقين الذين دخلوا إلى دمشق محمَّلين بشحنات مليئة بالذهب والمال، لدرجة أنّ العراقيين قالوا في ما بعد عنهم: «كانت الثروات التي حملوها معهم لتفتح أمامهم أبواب الجنة، وليس أبواب سورية فقط». لكنّ البعض الآخر مثل زوجي لم يحالفه الحظ مثلما حالفهم.

لمحات من عام ١٩٦٣

لدى تسلّم حزب البعث زمام السلطة في سورية في الثامن من آذار عام ١٩٦٣، قام الضباط الثلاثة الشبّان الذين أمسكوا بزمام السلطة آنذاك بتعيين أكبرهم سنّاً، وهو أمين الحافظ، ليكون أول رئيس للبلاد، وذلك

ضمن حركة الهدف منها أن يطمئن الشعب إلى أن مقاليد الحكم باتت في أيد خبيرة. وبعد ثلاث سنوات على حكومة أمين الحافظ الذي ينتمي إلى الطائفة السنيّة، أطاحه انقلاب قاده العلويون بدعم من الدروز المؤيدين للنظام. ومنذ ذلك الحين والعلويون يحكمون سورية. قضى أمين الحافظ فترة عصيبة في سجن المزة، قبل أن يُطرَد إلى لبنان عام ١٩٦٧، وبعد عام انتقل إلى حياة المنفى في العراق، حيث رحّب به صدام وأغدق عليه من كرمه. ومن هناك أخذت علاقته مع النظام السوري تتأزم أكثر فأكثر، إلى أن أصدرت المحكمة السورية حكماً غيابياً بإعدامه عام ١٩٧١.

وها هو الحافظ يقبع على الحدود السورية منذ أسابيع، وذلك عقاباً له على انتقاداته اللاذعة لنظام الراحل حافظ الأسد، في ما خلا من السنوات التي كان يعيش فيها تحت سقف بغداد الآمن. كذلك إن حكم الإعدام الصادر بحقه بحاجة للإلغاء لمنحه الإذن بالدخول إلى الأراضي السورية. وفي النهاية حصل الحافظ على الإذن، واتجه إلى حلب حيث أقام فيها حتى وفاته.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً لدى وصول أبو العباس ورفاقه إلى الحدود السورية. إثر عبورهم النقاط الحدودية العراقية، أوقفتهم السلطات السورية على حدودها وطلبت أوراقهم وتركتهم ينتظرون. بالنسبة إلى أبو العباس، لم يكن معه سوى عشرة آلاف دولار التي لا تكفي بالتأكيد لرشوة ضباط البعث المناوبين، ولكن كان لديه الكثير من الأصدقاء في سورية مثل اللواء غازي كنعان الذي جمعته به علاقة صداقة قوية خلال فترة قيادته القوات السورية في لبنان، إلا أنّ الرجلين لم يتحادثا منذ سنوات، وبالتالي لم تسمح لأبو العباس كبرياؤه بالاتصال بغازي

كنعان. ذكر لي مرافقه محمد في ما بعد أنّ أبو العباس «لم يكن يعرف حتى أرقام هواتف المسؤولين السوريين الذين ربما كانوا سيساعدونه آنذاك». وكان أبو العباس قد طلب من مساعديه في وقت سابق من ذلك الصباح الاتصال بناصر قنديل، النائب اللبناني المقرّب من الرئيس السوري بشار الأسد. من الجدير بالذكر هنا أنّ ناصر قنديل تردّد كثيراً على العراق بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٣، حيث كان إلى جانب الكثيرين من العرب يحاول الاستفادة من برنامج النفط مقابل الغذاء التابع للأمم المتحدة. ولكن حتى قنديل المعروف بصداقته القوية مع نظام الأسد، فشل في الحصول على الضوء الأخضر لأبو العباس بالدخول إلى سورية. باختصار، اجتاحت القوات الأميركية مدينة بغداد، ووجد أبو العباس نفسه مجبراً على الفرار إلى الحدود، أيّ حدود، ليجد نفسه تائهاً وسط اللامكان، مقدِّماً وثائقه المزوّرة للشباب القائمين على النقاط الحدودية السورية. وبعد انتظار طال لمدة ساعتين، قرر أبو العباس كشف أوراقه الحقيقية، وطلب من أحد مساعديه قائلاً: «ادخل وأخبرهم من أكون».

كان أبو العباس رجل مبدأ ومحارباً فلسطينياً وحالماً حتى النهاية، ولم يتغيّر قطّ منذ ذلك اليوم الذي تشاجر فيه مع مدير المدرسة في دمشق عام ١٩٦٨. في ذلك الوقت أُعفي من عمله، وبالتالي راح يطرق أبواب جميع معارفه من المتنفذين في دمشق، طالباً مساعدته كمقاوم فلسطيني على الأرض. وها هو اليوم للمرة الثانية يحتاج لمساعدة أشخاص متنفذين في دمشق.

لطالما كانت سورية بلداً يتفاخر بتأييده للمقاومة، وكانت قد أسست مع عرفات «جبهة الصمود» في سبعينيات القرن العشرين. وبالتالي من المؤكد

أنها لن تغلق أبوابها في وجه قيادي فلسطيني مقاوم. وبالفعل، تبيّن أن ذكر اسم أبو العباس له وقعه في المسامع، ولكن ليس بالطريقة التي كان يتمناها صاحب الاسم.

خلال ساعة من الوقت، عاد إليهم رجل حاملاً أوراقهم الثبوتية بيده، ولكنه لم يكن من عناصر النقطة الحدودية، بل كان ذلك الشخص ضابط استخبارات عسكرية، سنُطلق عليه هنا اسم خلدون، وذلك حفاظاً على سرّيته. خلال الساعات العشر التالية، كانت حياة أبو العباس المهنيّة وآماله وحياته تحديداً في يد خلدون. قدّم ضابط الاستخبارات نفسه لأبو العباس، وبكل احترام دعاه إلى المكوث في غرفة الانتظار على الجانب السوري من الحدود. وبعد قليل عاد الضابط وأعاد الأوراق الثبوتية لرفيقي أبو العباس، وأشار إليهما بمتابعة طريقهما إلى الداخل السوري، لكنّ المرافق محمد زيدان اختار البقاء إلى جانب أبو العباس، وقال له: «لن أتركك أبداً، وإما أن نعبر سوياً إلى سورية أو نموت معاً وسط الصحراء السورية». دعا خلدون الرجلين إلى الجلوس في غرفة مجاورة، وقال: «علينا الحصول على تصريح الدخول من دمشق، وقد يستغرق ذلك بعض الوقت».

كانت الغرفة التي خلت من كل شيء سوى سريرين من الحديد، باردة ومليئة بالرطوبة، ومن المؤكد أنّ الانتظار في هذه الغرفة أفضل من الانتظار في البرّية المقفرة. ومن ثمّ أرسل خلدون أحد عناصر المفرزة بضيافة من الشاي الساخن والقهوة العربية المرّة، وعاد مرّة ثانية لطمأنة أبو العباس إلى أن الأمور تسير جيداً، قائلاً: «ما في مشكلة أبداً، ومسألة التصريح مسألة إجراءات فقط». لكنّ أبو العباس لم يقتنع كثيراً، فهو يعرف السياسة

الداخلية لسورية، وهو يعي تماماً أنه عندما تدخل المخابرات العسكرية في الأمر، فلا بد أنه بحاجة لموافقة مباشرة من الرئيس بشار الأسد الذي لم يكن قد أكمل عامه الثالث في الرئاسة، وربما كان متردداً في اتخاذ مثل هذا القرار وحده، فهو ليس لديه سابق معرفة بأبو العباس، بالرغم من علاقة العمل الجيدة التي جمعت بين زوجي وحافظ الأسد في يوم من الأيام. وأنا أشكّ في أنّ الرئيس السوري الشاب استشار الأميركيين في هذا الموضوع. هل اتصل الأميركيون أيضاً بإسرائيل؟

في المساء فتح خلدون الباب ونقل جواب بشار، قائلاً: «احزموا أغراضكم، سنأخذكم إلى دمشق في تمام الساعة السابعة مساءً».

شعر مرافق أبو العباس بالارتياح، لكنّ القلق كان لا يزال يتسرب إلى صدر أبو العباس، فهو لم يثق يوماً بكلام المسؤولين السوريين، نظراً إلى خبرته الطويلة بنظام البعث الذي غالباً ما يقول شيئاً ويفعل عكسه تماماً. لم يمضِ وقت طويل، حتى وصلت حافلة صغيرة مغلقة بيضاء اللون وذات ستائر سوداء إلى النقطة الحدودية. سأل خلدون: «إلى دمشق؟»، وأشار للرجلين بالركوب في المقاعد الخلفية. رأى أبو العباس أربعة جنود بوجوه متجهمة يحملون بنادق كلاشينكوف. أين اختفت تلك الوجوه الوديّة وتلك الكياسة التي استضافتهم وقدمت لهم القهوة والشاي في صباح ذلك اليوم؟ ألقى أبو العباس التحية عليهم، قائلاً: «السلام عليكم»، ليردّ عليه الرجال السلام بخشونة مقتضبة. بدأ القلق يستولي أكثر فأكثر على أبو العباس، فالعملية أقرب إلى الاعتقال منها إلى مرافقة لوصول آمن. صعد خلدون إلى الحافلة وركب في المقعد الأمامي بجانب

السائق، ولكنّ شيئاً ما اختلف فيه هذه المرة! ما هو يا ترى؟ ربما كان المسدس الذي يحمله بيده اليمنى.

أشار خلدون إلى السائق باتخاذ الطريق نزولاً باتجاه دمشق. في الطريق، نظر أبو العباس إلى محمد وقال له: «أعطني سيجارة»، ورفع حاجبيه قليلاً كما يفعل عادة عندما يريد أن يقول: «هناك شيء مريب. بدأ القلق يساورني!».

بعد مرور بضع دقائق فقط، أومأ خلدون للسائق باتخاذ طريق معزول ينعطف مساره باتجاه الطريق العائد إلى الحدود ذاتها. وصلت الحافلة إلى مكان لا أثر فيه لمخلوق في المنطقة الفاصلة بين البلدين، وهناك طلب خلدون من السائق التوقف، ثمّ شهر مسدسه وأمر أبو العباس ومحمد بالنزول من الحافلة.

نزل أبو العباس ومحمد من الحافلة وحدّقا وسط الغسق. كانت الحدود العراقية على بعد ١٢ كيلومتراً، أي مسير نصف ساعة أو أكثر قليلاً. في تلك اللحظة، كان أبو العباس قد أمضى ستاً وثلاثين ساعة وهو على الطرقات من دون أن تسنح له الفرصة بأخذ قسط من الراحة. كان مرهقاً جداً وعلى وشك الانهيار من شدة التعب. خاطب خلدون أبو العباس قائلاً: «أبو العباس، سورية لم تعد قادرة على حمايتك أو السماح لك بالبقاء على أراضيها. نحن آسفون. عليك أن تعود إلى العراق». نظر أبو العباس حوله ليرى الجنود الأربعة وقد اصطفوا رتلاً واحداً بأجسادهم المشدودة وأيديهم على زناد بنادقهم الملقَّمة.

حاول أبو العباس أن يشرح قائلاً: «لا يمكنني العودة إلى العراق، البلد

كتلة من النار اليوم بسبب الاحتلال الأميركي. لقد وضعوا مكافأة لمن يجلب لهم رأسي! إنهم يريدون قتلي».

لم يُبدِ خلدون أيّ ردّ فعل، ومع ذلك تابع أبو العباس كلامه قائلاً: «نحن لا نريد البقاء في سورية، أرسل معنا مرافقة وسنتجه فوراً إلى مطار دمشق».

وللمرة الثانية وقف خلدون كالصنم الأصمّ تماماً.

وهنا أردف أبو العباس قائلاً: «إذا كنت لا تريد السماح لي بالدخول، فعلى الأقل أعدني إلى النقطة الحدودية من حيث أتيت. لا تتركني هنا وسط المجهول».

هنا تحرك خلدون باتجاه أبو العباس ومسدسه لا يزال في يمينه، ووضع عينه في عين أبو العباس وقال: «رفيق أبو العباس، عليك أن تعود إلى العراق. وإذا عدت إلى هنا ثانية أقسم أننا سنقتلك». ثم رفع خلدون يده مشيراً إلى ضوء بعيد قائلاً: «أترى هناك؟ تلك هي الحدود العراقية. «يلا، إرحل»!».

وقعت الكلمة الفيصل وانتهى النقاش، وحان وقت المسير، أو ربما اللوذ بالفرار؟ استغرب أبو العباس تصرف خلدون الذي حملهم إلى هذه البقعة المعزولة، وفكّر في أنه كان بإمكان الرجل إرسالهم إلى الطريق العام المتجه إلى مدينة الموصل؟ وهناك لا بد وأن يجدوا سيارة أو حافة ما تقلّهم. لكن من المؤكد أن هناك فخاً نُصب لهم. وفكر أبو العباس في أنّ السوريين لا بد أنهم يريدون إطلاق النار عليه من الخلف وإلصاق التهمة بالقبائل المنتشرة في المنطقة أو قطّاع الطرق. ماذا يجب عليه أن يفعل؟ أخذ يفكر بصمت

كيف يمكن أن يقطع النصف كيلومتر الأول بأقصى سرعة كي تكون الرصاصات المصوبة إلى ظهره غير قاتلة.

حثّ أبو العباس ورفيقه الخطا بأسرع ما استطاعا وبتيقظ كامل لسماع صوت رصاصات الكلاشينكوف. ركض أبو العباس بقامته الضخمة الممتلئة لاهثاً متعثراً وسط رمال الصحراء وصخورها، هائماً على الكثبان العربية. قبل وصولهما إلى أول نقطة حدودية، سمع أبو العباس ومحمد صوت محرك الحافلة السورية وهي تنطلق مبتعدةً. استدار الرجلان ليريا خلدون وأتباعه وقد اختفوا خلف إحدى التلال داخل الأراضي السورية. والآن أصبحا وحدهما تائهين وسط الصحراء، ولكن لا يزالان على قيد الحياة.

توقف أبو العباس ليلتقط أنفاسه، بينما كان محمد يمزق جواز سفر أبو العباس العراقي. وقبل متابعة مسيرهما وسط لسعات ليل نيسان القارسة دفن أحد هاتفيه الثريا في الرمل، خاصة أنّ استخدام تلك الهواتف كان مقصوراً على المسؤولين العراقيين خلال فترة الحرب وبعدها. كان هاتف الثريا أو جواز السفر كفيلاً بكشف النقاب عن شخصيته. واستعمل هاتفه الآخر واتصل بأخيه المقيم في دمشق ليخبره بعدم تمكنه من دخول الأراضي السورية وبأنه عائد إلى منزله في بغداد.

وصل أبو العباس ومحمد أخيراً إلى الحدود العراقية الخاوية تماماً إلا من كوخ صغير بضوء خافت خلا من قاطنيه. وقف الرجلان قليلاً يفكران في ما قد يفعلانه الآن، وإذا بهما يسمعان صوت محرك سيارة دفع رباعي تتقدم وسط الرمال والكثبان الصحراوية. عندما أبصرهما توقف السائق وقفز من

حافلته وقال: «بحق السماء ما الذي تفعلانه وسط هذه البرية الخاوية؟». كان الرجل متقدماً في السنّ ويرتدي كوفيّة حمراء وعباءة قطنيّة بيضاء، وتبدو عليه مظاهر النبل، وكأنه أحد شيوخ تلك المنطقة. أجابه أبو العباس بلكنة مختلفة، قائلاً: «حضرة الشيخ الموقر، نحن مجاهدون يمنيون جئنا إلى العراق لمحاربة الغزاة الأميركيين الكفرة. ونحنا نحاول العثور على مكان آمن بعيداً عن عناصر الجيش الأميركي».

وبدوره عرّف السائق عن نفسه كأحد مشايخ قبيلة الشمّر ذات النفوذ القوي التي يعود تاريخ وجودها إلى ما قبل اتفاقية سايكس- بيكو المبرمة بعد الحرب العالمية الأولى التي قضت بتقسيم البلاد ورسمت حدوداً فصلت أبناء تلك القبيلة الواحدة في أكثر من بلد عربي مثل سورية والسعودية والعراق. أخذ الشيخ أبو العباس ومحمد إلى مقرّ إقامته الذي كان عبارة عن خيمة مليئة بالمؤن ورجال القبيلة.

قال الشيخ: «إن عاداتنا وأعرافنا تفرض علينا عدم توجيه أي سؤال للضيف قبل انقضاء ثلاثة أيام، ولكن بعدها عليه أن يخبرنا بقصته كاملةً، لذلك بإمكانكم المكوث وتناول الطعام والنوم». بعد قضاء يوم واحد في ضيافة الشيخ، كان أبو العباس ومحمد قد أخذا حاجتهما من الراحة واستعدا للعودة إلى بغداد. في ذلك الوقت، كان أحد أفراد القبيلة قد اكتشف وجود هاتف الثريا بحوزتهما، وأدرك الشيخ على الفور أنهما من رجال صدام، ولكن لم يعد هناك وقت لمعالجة الأمر. كان الشيخ قد أمّن لهما طريق العودة مع اثنين من المهرّبين المحليين اللذين رتبا لسفر الرجلين في حافلة تُقلّ نساءً وأطفالاً إلى الموصل، وبعدها في شاحنة تحمل مسعفين

دوليين. وبعد ثماني ساعات من السفر المتواصل، وجدا نفسيهما ثانية في ذات الطرقات الممزقة في العاصمة العراقية.

طائرات الأباتشي

اتجه أبو العباس فور وصوله إلى منزل زميله وصديقه فيصل زكي، حيث بدّل ثيابه البدوية المليئة بغبار الصحراء وأخذ قسطاً من الراحة، ثمّ اتصل بي من هاتفه الثريّا، ونقلتُ له ما دار من حديث بين والدي ومسؤول رفيع المستوى في حزب الله ومقرّب من الأمين العام للحزب السيد حسن نصر الله. كان ذلك المسؤول صلة الوصل بين حزب الله والفلسطينيين، وهو من توسط لدى بعض المسؤوليين الإيرانيين الرفيعي المستوى لمنح أبو العباس حق اللجوء في إيران. وبدأ أبو العباس بالاستعداد للعودة إلى الحدود الإيرانية في صباح اليوم التالي. لم يرغب في البقاء في مكان واحد فترة طويلة، لذلك غادر إلى منزل أحد أصدقائه الأردنيين في بغداد. لكن بعد بضع دقائق من مغادرته، شنّت القوات الأميركية غاراتها على منزل فيصل زكي، بعد تعقبها لشارة هاتف الثريا الذي استخدمه أبو العباس. لم يتمكن فيصل من إخبار أبو العباس بما حدث وتحذيره بتعقب القوات الأميركية لخطاه، لعدم وجود وسيلة تواصل لديه.

في نحو الساعة الرابعة والنصف صباحاً، استيقظ أبو العباس فزعاً من أصوات سيارات عسكرية طوقت الشارع، ومروحيات تحلّق فوق المنزل مرسلة ضوءها الأزرق الذي اخترق نوافذ غرفة نومه. كانت تلك الطائرات تحلّق على ارتفاع منخفض جداً لدرجة أنها ألحقت أضراراً جسيمة بسقف

المنزل، وجعلت جدرانه تهتز. كان الأمر أشبه بزلزال من الدرجة الثامنة على مقياس ريختر يعصف ببغداد. سمع أبو العباس وشعر خطوات الجنود الأميركيين الذين وصل عددهم إلى مئة وثمانين عنصراً طوقوا المنزل مصحوبين بثلاثين ناقلة جند وست مروحيات من نوع أباتشي الأميركية. خرج من غرفة نومه وجلس على الأريكة في غرفة المعيشة بانتظار اعتقاله. قفز محمد من فراشه لدى سماعه كل ذلك الضجيج وقبض بيده على سلاحه، لكنّ أبو العباس أوقفه بحركة من يده وكأنه يقول له: «ما الفائدة من ذلك؟»، وعلى غرار ما نشاهده في أفلام الإثارة الهوليودية، حطم الجنود الأميركيون باب المنزل، وولجوا إلى الداخل حاملين بنادقهم وسددوها باتجاه رأس أبو العباس وصدره، وصرخوا: «ارفع يديك للأعلى. ارجع خطوة إلى الوراء!»، ومن دون أي مقاومة منهما كبّلوهما بالقيود وساقوهما تحت تهديد السلاح، ليكتشفا بعد ذلك أنّ الأميركيين اعتقلوا كل من في الحيّ قبل اقتحام المنزل كقطيع من الذئاب.

يقول محمد مسترجعاً تلك الحادثة: «سحبوني خارج المنزل بالقوة، وألبسوني قناعاً أسود له فتحة صغيرة عند الفم وفتحتان صغيرتان جداً لأرى. وقفت إلى جانب الجيران في صف واحد مستندين إلى الجدار، بينما كانت الكلاب البوليسية تنبح وتزمجر حولنا وكأنها كانت تحاول عضّنا ونهش قطعة من أجسادنا. كانت النسوة تنتحب والأولاد يبكون بشكل هستيري. كانت المرة الأخيرة التي التقطت فيها عيني طرف رداء أبو العباس الأبيض وسط الحشود، بينما كان اثنان من الضباط الأميركيين يجولان حاملين صوراً بالأبيض والأسود لأبو العباس. نظر أحد الضباط المرموقين إلى الصورة جيداً، وقال: نعم هذا هو بذاته. أمسكنا به. وكانت تلك المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها أبو العباس».

في المعتقلات الأميركية

تابع محمد حديثه قائلاً: «حُشرنا في شاحنات عسكرية سارت بنا نحو وجهة مجهولة، وبعد أربع ساعات أدركنا أننا كنا لا نزال في بغداد، وتحديداً في مطار صدام الدولي».

أما أبو العباس، فقد ذكر محمد أنه احتُجز في زنزانة مع مجموعة من كبار الضباط العراقيين، من بينهم وزير الداخلية السابق سعدون شاكر، ورئيس الوزراء السابق سعدون حمادي. أما الباقون، فكان بينهم عبد حمود، وهو من الصحافيين المؤيدين لصدام، وأصيل طبرة الذي كان شريكاً في الأعمال مع عديّ حسين.

وصلتني الأخبار في بيروت بأنّ القوات الأميركية اقتحمت الفيلا خاصتنا في بغداد، ووضعت يدها على كل ممتلكاتنا، وأدركتُ أنّ كل ذكريات حياتنا التي قضيناها معاً ضاعت بين ليلة وضحاها. ولكن ماذا حلّ بكلبنا؟ تُرى هل أطلقت القوات الأميركية النار عليه وقتلته؟ حاولتُ كثيراً معرفة ما حلّ به، وتمكنتُ أخيراً من التواصل مع جارتي التي قالت: «بعد ما أفرغت القوات الأميركية المنزل من كل محتوياته، تسللتُ إلى الداخل على رؤوس أصابعي ووجدتُ روكي على قيد الحياة. كان مربوطاً إلى جذع شجرة في الحديقة. كان في حالة مزرية من الجوع والعطش والخوف. بإمكاني إيجاد طريقة ما لإرساله إليك في بيروت إن كنت ترغبين في ذلك».

من زنزانته في بغداد، سأل أبو العباس عن مصير روكي، وفرح كثيراً عندما علم أنه لا يزال على قيد الحياة. كنّا جميعاً بخير حتى كلبنا نجا من

تلك الحرب، وعاد ليكون معنا في بيروت، والشكر للقدر الذي تلطف بنا وأنقذنا جميعاً من بطش الأميركيين، وهذا يخلق الأمل بأن يسعف القدر ذاته أبو العباس أيضاً.

خلال وجوده في السجن، طلب أبو العباس مني إرسال بعض الكتب إليه. لكن عندما ذهبتُ إلى إحدى المكتبات في بيروت، لم أجد سوى كتب سياسية وتاريخية وفلسفية، وخطر لي أنّ مثل تلك الكتب قد لا تسمح بها السلطات في المعتقلات الأميركية. لذا، اشتريتُ له بدلاً من كل ذلك المجموعة الكاملة للشاعر العباسي أبو الطيب المتنبي، الذي لطالما أحب أبو العباس شعره، وكان دوماً يقول: «لو كان لديّ الوقت لقرأت جميع أعماله، فهو فيلسوف طليعي سياسياً ودينياً». تذكرتُ تلك الكلمات وقلتُ لنفسي: «ربما حان الوقت لذلك»، وتمنّيت أن يكون المتنبي خير رفيق ومؤنس له في السجن.

من بين جميع أعضاء مجموعته، وحده أبو العباس دخل السجن ومات فيه من دون العرض على محكمة، أو حتى وجود محامي دفاع. لم يصدر الأميركيون حكماً بالإعدام على أبو العباس، وفي الواقع لم تصدر أي مذكرات اعتقال أميركية أو إسرائيلية في حقه، لأنّ كل ما ارتكبه من «جرائم» كان قبل عام ١٩٩٣ سنة اتفاق أوسلو، الذي مُنح أبو العباس بموجبه عفواً عن كل ما سبق. لم يكن أبو العباس يعاني من أيّ مرض عضال، وبرغم ذلك توفي فجأة في الثامن من آذار عام ٢٠٠٤ عن عمر يناهز السادسة والخمسين.

كنتُ أتناول العشاء في أحد مطاعم دمشق القديمة مع رجل الأعمال السوري منذر الكسّار الذي كان صديقاً مقرّباً من أبو العباس، عندما دخل سائقه وهمس في أذنه بأمر ما. شحُب وجه منذر فجأةً وكأنه رأى

شبحاً. سألته بهدوء: «ما الأمر منذر؟»، ولمحتُ الجمود الذي أصاب عينيه وهو يرفع نظره في وجهي من دون أنّ يجيب عن سؤالي. وما هي إلا دقائق حتى رنّ هاتفي وكان المتصل على غير عادة شقيق زوجي الذي باغتني بسؤاله قائلاً: «هل ما سمعناه صحيح؟ هل حقاً مات؟». خطف منذر الهاتف من يدي بغضب عارم، وأجابه على الفور: «بالطبع غير صحيح. ما الذي أصابك يا رجل؟ لقد كذّبت قناة العربية الشائعة للتو!»، لم يعد الأمر يتطلب أيّ شرح، فقد أدركتُ أنّ أبو العباس قد رحل.

ضبطتُ نفسي بقوة، وسألت منذر: «كيف مات؟»، ولكنه للمرة الثانية نفى الفكرة تماماً، وأصرّ على أن الأمر مجرد شائعة لا أساس لها من الصحة، وأنها محض خيال أحد الصحافيين في تلك القنوات التلفزيونية العربية. عدتُ إلى منزلي وشغّلتُ التلفاز على قناة العربية التي كانت بالفعل تكذّب على شريطها الإخباري الشائعة عن وفاة أبو العباس. من الواضح أنّ رويترز هي المصدر الرئيسي لذلك الخبر. وبدوره نفى ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من مكاتبها في تونس صحة الخبر. لكنّ قناة الـ«بي بي سي» أصرّت على أنّ الخبر كان صحيحاً. وبعد بضع دقائق، اتصلت قناة الجزيرة القطرية تطلب إجراء مقابلة معي، حيث استهلّ مدير الأخبار لديها حديثه معي بتقديم التعازي، وما كان مني إلا أن أجبته: «رجاءً لا تقل ذلك! لننتظر قليلاً حتى نتأكد من صحة الخبر أولاً. اتصلتُ للتوّ برام الله وأنا أنتظر ردّاً مؤكداً من الرئيس عرفات». صمت مدير الأخبار قليلاً، ولا بد أنه كان مذهولاً من أنّ زوجة أبو العباس لا تزال جاهلة بما حلّ بزوجها. وتابع قائلاً: «سيدتي، للأسف الخبر صحيح ومؤكد، وأنا آسف أن أقول لك إننا تأكدنا من صحة الخبر من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمر».

بعد ذلك تلقيتُ اتصالاً من مسؤول سويسري في اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وللمفارقة كان قد التقى أبو العباس في صباح ذلك اليوم. كانت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر قد انتقلت إلى عمّان بعد أن لحق الدمار بمكاتبها في بغداد، وكان المسؤولون فيها يقومون بزيارات شهرية للسجون العراقية والأميركية. كنتُ في وقت سابق قد لجأتُ إلى هذا المسؤول وطلبتُ مساعدته لإيصال بعض الحاجيات لزوجي. قال السويسري المهذّب: «يؤسفني إخبارك أنني التقيتُ زوجك اليوم. لقد ترك هذا الرجل أثراً عظيماً في نفسي لشخصيته القيادية وثقته الكبيرة بنفسه. كان مقيماً في زنزانة مع تسعة من كبار الضباط العراقيين السابقين ممن لا يمكنني الإفصاح عن أسمائهم. ولكن كل ما أستطيع قوله عنهم إنهم كانوا يندبون ويضحكون ويئنون كالأولاد. كانوا رافضين لقدرهم ويعملون يوميّاً على إثارة الشغب والغضب في السجن. لكنّ أبو العباس كان القيادي الحقيقي الوحيد بينهم حيث كان يعمل على رفع معنوياتهم وينظّم العلاقات بينهم ويضع لهم خططاً للأيام التي لن يكون فيها معهم في السجن. كان مقاتلاً حتى اللحظة الأخيرة من حياته».

أصيل طبرة سرد الرواية ذاتها، حيث كان محتجزاً مع زوجي، وكان آخر شخص رآه قبل مجيء الأطباء وإجراء الفحوصات الطبيّة له. قال أصيل: «دخلوا ومعهم النقّالة، ولكنّ أبو العباس رفض الاستلقاء عليها، وأصرّ على السير بنفسه إلى الغرفة الطبيّة. ودّعتُه في تلك اللحظة وتمنيتُ له حظاً طيباً. كنت أراقبه وهو يمشي عبر ذلك الممر الطويل. في اللحظة التي دخل فيها إلى غرفة الفحص الطبّي رأيتُه يقع أرضاً. تمنيتُ له في نفسي أن يرقد بسلام، فقد أدركتُ أنّ النخلة قد سقطت. كنتُ أعلم أنّ الموت

وحده قد يطرح أبو العباس أرضاً. وبما أنه سقط أرضاً، فهذا يعني أنه قد مات».

هل تراها كانت مجرد مصادفة أن يشهد عام ٢٠٠٤ وفاة أربعة من القادة الفلسطينيين الذين عاشوا عقوداً من الزمن في مرمى العدو الإسرائيلي؟ اثنان منهم اغتيلا علناً، بينما الاثنان الآخران قضيا بالسُّم وفقاً لحقائق ذكرت الآتي: توفي أبو العباس لأسباب مجهولة في شهر آذار ٢٠٠٤. وفي ٢٢ آذار ٢٠٠٤ قُتل الشيخ أحمد ياسين باستهداف صاروخي من مروحية إسرائيلية. وقُتل عبد العزيز الرنتيسي بقذيفة أطلقتها أيضاً مروحية إسرائيلية في نيسان ٢٠٠٤. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني ٢٠٠٤ مات ياسر عرفات لأسباب مجهولة.

أم هل تراه كان قراراً صدر في تل أبيب بالتخلص من كبار قادة المقاومة الفلسطينية التي أثبتت لسنوات طويلة أنها عصيّة وراسخة بصمودها.

اليرموك

بعد مرور سنوات عديدة على الأسرار التي كشفتها قناة الجزيرة الوثائقية حول موت عرفات، خرجت نتيجة أحد المختبرات السويسرية لتقول إن عرفات ربما مات مسموماً بمادة البولينيوم ٢١٠. لكن المختبرات الفرنسية والروسية لم تؤكد هذه النتيجة. وللأسف، لم يحظَ أبو العباس قَطّ بشرف صناعة فيلم وثائقي يتناول الأسرار التي أدت إلى وفاته. في شهر آذار ٢٠٠٤، ووري جثمانه الثرى في مثواه الأخير في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك بدمشق، حتى من دون إجراء تشريح للجثة. لا يمكنني الجزم بأنه قُتل، لأنني

لم أكن معه في الساعات الأخيرة من حياته، لكنني أعلم تمام العلم أنه لم يكن يعاني من أي مرض خطِر. أليس مستغرباً أن يموت أربعة من أرفع القياديين الفلسطينيين، بمن فيهم القيادي التاريخي ياسر عرفات خلال مدة زمنية لا تتعدى ستة أشهر؟ في تلك الفترة، كان شارون هو من يشغل منصب رئيس الوزراء في إسرائيل، وكان قد وعد بقتل أولئك القياديين، في ما سيأتي من الزمن. حتى إنّ سهى عرفات ــ أرملة عرفات ــ ترى أنّ شارون قد أوفى بوعده فعلاً. كانت تعتقد أنّ شارون هو وراء موت عرفات، ولديّ الشك أيضاً في أنّ شارون هو من كان وراء موت زوجي. من الطبيعي جداً أن يكون الأمر كذلك، فأبو العباس كان على الدوام مُستهدَفاً بعد كل تلك السنين التي قضاها من حياته في صراع مع الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

ربما انطوت حياة أبو العباس العسكرية على بعض الأخطاء أو الفشل مثل حادثة أكيلي لاورو، وربما رأى الغرب في أبو العباس «إرهابيّاً من الدرجة الأولى»، ولكن أنا من عرفت أبو العباس، وأنا التي أعرف عنه ما لم يعرفه أحد قَطّ، فأنا من رافقه وسار على نهجه السياسي، وأنا من كنت صديقته وزوجته.

واليوم لم يبقَ لنا في فلسطين سوى رموز قضيتنا المتمثلة بأغصان الزيتون وبيارات البرتقال وقبة الصخرة والمسجد الأقصى وإرث رجال أمثال أبو العباس وأبو جهاد وأبو إياد وأبو عمار. أولئك الصامدون في الأراضي المحتلة وفي دول الشتات أطلقوا عليهم اسم «آخر جدار صامد» في فلسطين. حتى «الدولة» التي لطالما حلموا بتأسيسها، دمرها شارون على نحو ممنهج، ودّمر بالطريقة نفسها فلسطين الكبرى. أما المجلس الوطني الفلسطيني

(الذي تأسّس عام ١٩٩٣ وفق اتفاقيات أوسلو ليكون بمثابة حكومة مؤقتة) المُحصّن من الخارج والمُقسَّم في الداخل، فقد تعثّر هو الآخر في ظل حالة الفوضى السائدة التي تعيشها الأراضي المحتلة حالياً. سواء أحب العالم أو كره، فإن أولئك الذين تنعتهم أميركا «بالإرهابيين من الدرجة الأولى» أصبحوا رموزاً بالنسبة إلى الفلسطينيين، وتحولوا إلى أسطورة منذ قيام فتح بشنّ أول هجوم لها في قلب إسرائيل في الأول من كانون الثاني عام ١٩٦٥ واندلاع الثورة الفلسطينية. هؤلاء الرجال تمكنوا من قيادة الصراع المسلّح لسنوات، ومن إبرام اتفاقيات أوسلو وإعادة فلسطين إلى خريطة العالم. ربما لم تكن فلسطين ذاتها التي نعرف حدودها، ولكنها في النهاية فلسطين.

لسنوات طويلة عانى الفلسطينيون من حرمانهم السفر، ومن ساعات الانتظار على أبواب السفارات وفي المطارات، وتحملوا جلسات الاستجواب المطوّلة. أما اليوم، فقد حصلوا على جوازات سفر صادرة عن المجلس الوطني الفلسطيني، وأصبح بإمكانهم السفر من مطارهم في غزة. وحصلوا على منزل يعيشون فيه، وخدمات مدنيّة وقوات أمن داخلي تنظم لهم حياتهم، وحكومة قادرة على مساعدتهم، وقائد يلتفون حوله. اليوم أصبح للفلسطينيين مجلس شعب، ودستورهم الخاص، ومحاكمهم المستقلة، وبرنامج ضمان اجتماعي، بالإضافة إلى المدارس والجامعات الوطنية.

لماذا أضعنا ثمار أوسلو؟ من المؤكد أنّ السبب يكمن في ضعفنا إلى جانب الجنون والتحريض الذي مارسه شارون. بقدر ما عمل أبو العباس وأبناء جيله للفلسطينيين، عملت الصهيونية لليهود بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد أخرج عرفات وأبو العباس الفلسطينيين من الظلام وحرروهم من ظلم خمسينيات القرن العشرين واضطهادها، ومن بؤس مخيمات اللاجئين، وحوّلوهم إلى لاعبين أساسيين في العلاقات الدولية في العالم. كان أولئك القادة على مدى أربعين عاماً مركز ثقل السياسة الفلسطينية، تحلّ القوة حيثما حلوا، سواء في عمّان أو بيروت أو في تونس أو في غزة أو في رام الله. يقع اللوم على الجميع في موت أبو العباس، تماماً كما يقع اللوم على إسرائيل والولايات المتحدة، وحتى العرب أنفسهم. في الواقع، إننا لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية، فقد سمحنا لإسرائيل بحصار عرفات، واحتجازه في مكتبه من عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٤، كما سمحنا بأن يتعفن أبو العباس في السجون الأميركية بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤.

في دمشق مشيتُ خلف نعشه المحمول وسط جنازة مهيبة، وكانت النسوة يرششنَ الأرزّ فوقنا توديعاً لأبو العباس. كان قلبي يعتصر ألماً على رحيله. بكيتُ خسارتي لزوجي وخسارتنا للقومية العربية، وبكيتُ أيضاً بغداد التي تصول وتجول فيها القوات الأميركية مرحاً. ولكنني أرفض إلى اليوم تسطير نَعي الصراع الفلسطيني، تلك القضية التي قاتل لأجلها أبو العباس بشراسة وبأس. رحل ذلك الجيل الذي أنجب رجالاً فلسطينيين «خارقين» كما يصفهم الناس، وبرحيلهم سيتغير وجه الشرق الأوسط، ولن يعود كما كان أبداً.



نعش أبو العباس في دمشق



ريم النمر في جنازة أبو العباس

رسائل من السجن

ما دمنا نتحدث عن الإرهاب والإرهابيين، ونتساءل عمّا إذا كان هذا المصطلح ينطبق على أبو العباس كما انطبق على بن لادن، أعتقد أن سرد بعض من تفاصيل حياتنا العائلية الخاصة قد يهمّ القارئ. وها أنا أنقل بالحرف اثنتين من الرسائل التي كتبها أبو العباس بعد اعتقاله على أيدي القوات الأميركية عام ٢٠٠٣. ولنتذكر أنّ علي، وهو ابننا الأصغر، كان في الثامنة عشرة من عمره عندما تلقى هذه الرسالة، وكان طالباً وهاوياً مبتدئاً في موسيقى الراب.

بغداد، ١٦ كانون الثاني ٢٠٠٤

رسالة أبو العباس إلى ولده علي

5.MESSAGE

نــص الرســالة

Family and /or private news only

أخبـار شخصـية أو عائلـية فقط

بسم الله الرحمن الرحيم

ولدي الحبيب علي

هذه هي المرة الأولى التي اكتب فيها اليك خاصة

وانك الآن في سن الثامنة عشرة ومضى عام كامل على

آخر لقاء لنا ولقد اسعدتني وفرحت بها رسالتك التي

كتبتها لي مع رسالة الوالدة و[illegible] في تلك العبارات

على قلبنا احساس بالحزن وبالروح العالية التي ادعو

الله على تكريسها في [illegible] العالية

ولدي الغالي [illegible] اعرف كم سيطول غيابي عنكم ولكني

اعلم ان الحياة لا تسير على خط واحد فهي شديدة

التقلبات والمهم دائماً ان نبقي انفسنا فرصة للتفاؤل

علينا نضع نصب اعيننا اهدافنا السامية ونسعى وان لا ندع

الحياة تمر دون انجازات فالاهداف السامية تتطلب

جهداً وتضحية والكثير من الجهد والمعرفة والمعرفة لا

تكامل الا [illegible] بالقراءة والتجربة وكلما ازددنا [illegible]

معرفة كلما اقتربنا من الله ولهذا لا بد من الاهتمام بالدراسة

هذا العام [illegible] بالقراءة والاطلاع [illegible]

[illegible] موقع احترام الجميع عائلتك اولاً والمدرسة

[illegible] والاتصال بهم [illegible]

[illegible] والاتصال بأقاربك واصدقائي لكي تتمكن فعلاً

[illegible]

[illegible] هذا العام.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ابوك

[illegible] اخوتك [illegible]

Date ٢٠٠٤/١/٦ التاريخ Signature [illegible] الإمضاء

The addressee is my ابني (ولدي الأصغر) علاقة الصلة بيني وبين المرسل إليه

[illegible]

بغداد، ١٥ كانون الثاني ٢٠٠٤

رسالة أبو العباس إلى زوجته ريم

5.MESSAGE

نص الرسالة

Family and /or private news only

أخبار شخصية أو عائلية فقط

CHECKED

الغالية ريم

[illegible]

6.

Date [illegible] التاريخ

Signature [illegible] الامضاء

The addressee is my [illegible] علاقة الصلة بيني وبين المرسل إليه



ريم النمر مع العائلة

أرسلت هذه الصورة إلى أبو العباس في سجنه في العراق

كلمة أخيرة

مع إنتاج فيلم سينمائي حول سفينة أكيلي لاورو وغيرها من الإصدارات الإعلامية الغربية، ارتبط اسم أبو العباس بعدها للأبد بكلمتين: «الإرهابي المطلوب». واليوم بعد أحداث الحادي عشر من أيلول فقط، أصبحت كلمة إرهابي تُطلق لتوصيف التفكير الأرعن المدفوع بمعتقدات دينية عوجاء ومتشددة.

لم يكن أبو العباس في يوم من الأيام إرهابياً، ولطالما رسم خطاً فاصلاً بين «الهدف التاريخي المحدد» لجبهة التحرير الفلسطينية، الساعي إلى تحرير الأراضي الفلسطينية، وبين هجمات الحادي عشر من أيلول التي وصفها بأنها «حرب مقدسة لا تعرف حداً ولا تعترف بحدود، على أميركا وإسرائيل وعلى الأميركيين واليهود».

كان أبو العباس رجلاً مثالياً، ولكن ليس أرعن قط. كان يحترم المعتقدات الدينية، ولكنه لم يكن متعصباً لدين أو مدفوعاً بعقيدة دينية. كلمة «الحرب المقدّسة» لم يكن لها وجود في حياته أو في أفعاله. في عام ١٩٤٨ بدأت الحرب بالنكبة ولم تنته تلك الحرب، واليوم بعد مرور ستين عاماً ما زلنا ننتظر اتفاقية سلام.

كلنا نكره الحرب، فهي لا تجلب سوى الدمار والموت وتحصد أرواح الشباب والأطفال، وتنشر الجوع وتدمّر الاقتصاد الوطني وتملأ محيطنا بالخراب. أيُّ فائدة نجنيها من الحرب بحق السماء؟ ومع ذلك تستمر البشرية بشنّ الحروب لعدم رغبتها في إيجاد حلول لخلافاتها.

في الحرب المستعرة كل ضحية تُعَدّ خسارة كبيرة وجريمة ضد المدنيّة. هل حقاً يوجد فرق بين مقتل العسكري ومقتل المدنيّ أو الأم أو الطفل؟ هل حصد مئات الأرواح في قصف عشوائي أفضل من قتل ثلاثة أو أربعة أشخاص في مواجهة وجهاً لوجه؟

لم يكن العمل الحربي خيارنا أنا وأبو العباس، ولم نهلّل فرحاً له في يوم من الأيام، ولكن الرغبة بإحقاق العدالة وإنصاف فلسطين هي ما كان يدفعنا. وأكبر دليل على ذلك هو ترحيب أبو العباس بإحلال السلام الحقيقي. وعندما قرأ بنود اتفاقات أوسلو، ساورته الشكوك العميقة بشأنه، فذاك الاتفاق كان أكرم بكثير من أن يكون حقيقياً. كان أبو العباس بثقله السياسي قادراً على تقويض اتفاق أوسلو، لكن ولاءه لعرفات وأمله بأن تكون شكوكه في غير محلها إزاء أوسلو، سمح بإمرار الاتفاق، وشارك في العملية بصفته عضواً في البرلمان الفلسطيني.

كنت دوماً فخورة به، وبعد عشر سنوات على رحيله ما زلت معجبة بشخصه. كان أبو العباس رجلاً ذا مبدأ وموهبة وشخصاً مثابراً ومعطاءً.

قد يبادر أحدهم إلى القول إن تلك العمليات العسكرية التي نفّذها أبو العباس مثل الأكيلي لاورو وعملية القدس البحرية باءت بالفشل. صحيح، ولكن ليس بمقدور أحد أن يشكك بجرأة تفكيره وخياله الخصب كشخص بارع في التكتيكات الحربية.

كانت الحياة مع أبو العباس حلوةً مرّةً، وفيها من أحداث الحرب والسلاح وحكايات المؤامرات ما يكفي لإنتاج عمل سينمائي هوليوودي، لكن دور البطولة فيه لأبو العباس وليس لأعدائه.

كان أبو العباس رجلاً قضى بشجاعة خمسة وثلاثين عاماً من عمره في ظلال الموت. رجل لم يعرف الخوف يوماً. لم تثنه الخيبات عن الوقوف مجدداً والمضيّ وفقاً لمبادئه في التركيز على العمل العسكري الهادف إلى دحر إسرائيل وتحرير فلسطين. وبعزيمة لا تلين وطموح لا حدود له، عاش أبو العباس ومات، وهو يحلم بتحقيق هدفه المقدّس الذي لم يتحقق حتى اليوم.

كنتُ إلى جانب أبو العباس منذ عام ١٩٨٠، وعلى مدى أربعة وعشرين عاماً من الاضطراب المشتعل، ولغاية آخر يوم من حياته ووفاته في المعتقلات الأميركية. أنا من عرفته زوجاً مُحباً وسياسيّاً ناجحاً وقائداً عسكرياً فذّاً على مدى حياة عشناها معاً في لبنان وسورية وتونس، وأخيراً في العراق. واليوم أكتب هذه السطور لأقول: «وداعاً أيها المعلم والصديق والحبيب».

بطاقة شكر

لطالما حلمت بخطّ سطور هذا الكتاب وإصداره وأخذت عهداً على نفسي بكتابته تخليداً لذكرى أبو العباس بعد وفاته في بغداد عام ٢٠٠٤. ولكنّ هذا العمل لم يكن ليكتمل لولا دعم عائلتي وأصدقائي الذي لا يمكن وصفه.

بداية أرغب بتوجيه شكري لوالدتي المرحومة ربيحة المصري وأخي رامي وزوجته ملك ولأختي رنا الذين كانوا اليد التي ربتت على كتفي وتحملتني في أصعب لحظات حياتي وكانوا الروح التي طالما ناجيتها وبكيت شاكية إليها همومي على مرّ جميع الأيام التي سردتها في هذه الصفحات والتي عانيت فيها ضربات مؤلمة من القدر. لولا هؤلاء جميعاً لكان الانهيار مصيري المحتوم منذ زمن بعيد.

وأخص بالشكر أيضاً جميع رفاق زوجي المخلصين على تكريس جزء من وقتهم للقائي وإحياء ذاكرتي بأحداث كنت قد كبحت ذكراها قسراً. ربما بسبب قسوتها. أقول شكراً لكل من زياد العمر، عباس جمعة، بسام الأشقر، بلال قاسم، محمد زيدان والسفير نمر حماد.

وكذلك الشكر الكبير إلى صديقي المؤرخ السوري الدكتور سامي مبيّض الذي أشرف على تطوير نصوص هذا الكتاب، نظراً لخبرته ومعرفته الواسعة بالقضية الفلسطينية.

فهرس الأعلام

ب

ز

س

ش

ص

ط

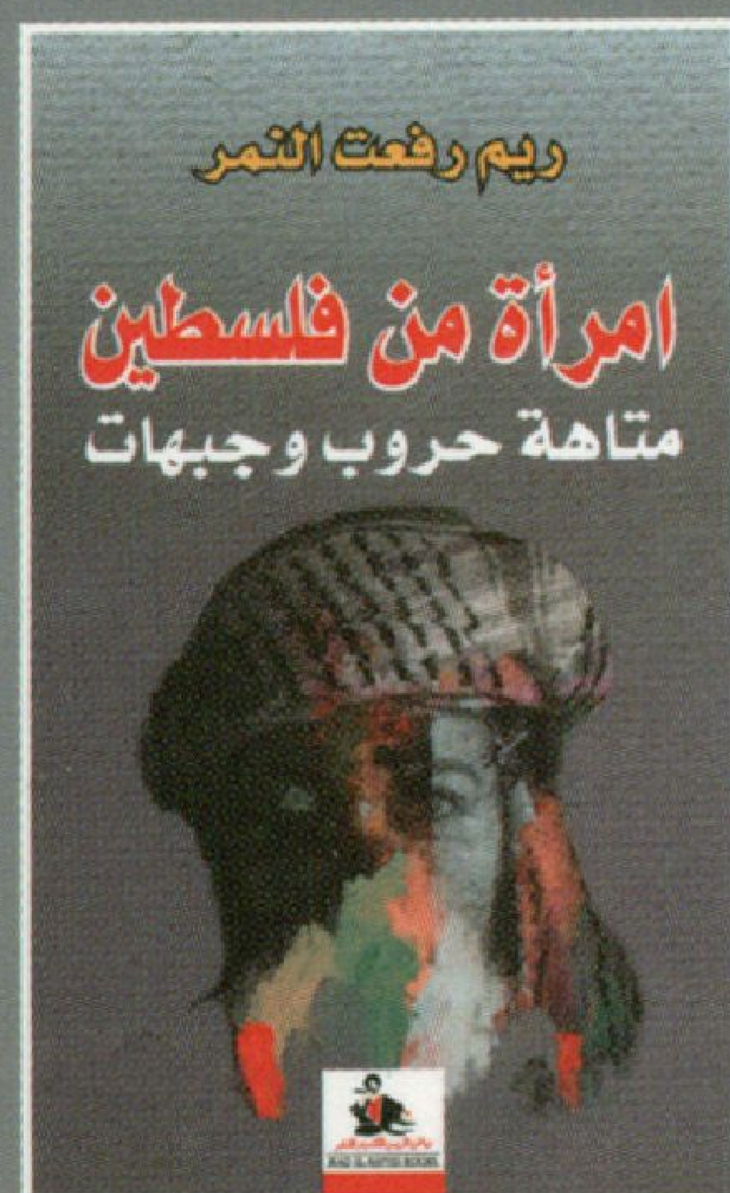
فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ج



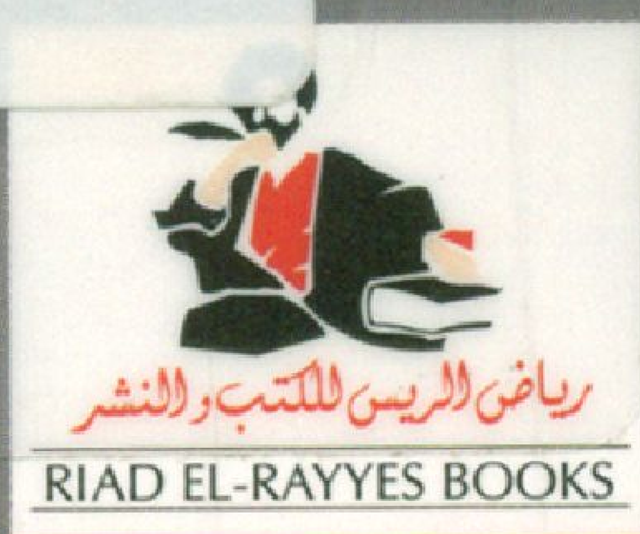
ريم رفعت النمر

امرأة من فلسطين

متاهة حروب وجبهات

يروي هذا الكتاب قصة استثنائية لزوجين في غاية الانسجام والتكامل في ما بينهما، على الرغم من الخلافات الصارخة التي كانت تنشب بينهما من وقت إلى آخر. لقد جمعنا حبنا لفلسطين ولأولادنا، ولحوار هادئ وسط عالم كان يبدو أحياناً مليئاً بالجنون المُطبق. كنا نتشاطر حبَّ كل إنسان بريء على وجه هذه الأرض، وحب كل الذين أحبوا أوطانهم وعائلاتهم وتطلعوا إلى تحقيق العدالة والخلاص. كانت حياتنا معاً مفعمة بالتسامح والشرف وبالعقيدة الطيبة والشهامة. هذه قصة حياتي مع أبو العباس.







ISBN 978-9953-21-620-1